

البازار الأسود
آلان مابانكو

- ♦ المؤلف: آلان مابانكو
- ♦ العنوان: البازار الأسود
- ♦ ترجمة: عادل أسعد الميري
- ♦ طبعة آفاق الأولى 2021
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢٠ / ١٤١٣٥

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977-765 - 278 - 0

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

آلان مابانكو

البازار الأسود

رواية

ترجمة

عادل أسعد الميري

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

مابانكو، آلان.

آلان مابانكو : البازار الأسود - ترجمة: عادل أسعد الميري

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2021

360 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 14135 / 2020

الترقيم الدولي 978 - 977 - 765 - 278 - 0

1 - الأدباء (روايات)

2 - مابانكو، آلان

*Cet ouvrage a bénéficié du soutien du Programme
d'aide à la publication de l'Institut français et du
Programme Taha Hussein de l'Institut français d'Égypte.*

حظي هذا العمل بدعم من برنامج دعم النشر الخاصة بالمعهد الفرنسي
وبرنامج طه حسين بالمعهد الفرنسي بمصر.

INSTITUT
FRANÇAIS
Egypte

BLACK BAZAR
Alain Mabanckou

©Éditions du Seuil, janvier 2009

هذه الرواية هي عن أحوال سود وعرب باريس. والسود هنا هم الذين جاؤوا من أفريقيا السوداء، التي هي هذا البازار الأسود. والمقصود بالكلمة، كل تلك الأشياء السوداء المشعّنة، المتراكمة داخل نفوس الأفريقيين السود، حتى لو كانوا يعيشون حاليًا في باريس؛ إذ يظلّ السواد متراكمًا داخل نفوسهم.

الأرقام الملحقة ببعض الكلمات، تشير إلى موقع الكلمة في معجم مفردات الرواية، الوارد في نهاية النصّ الروائي، حيث يتمّ شرح الكلمة أو تعريفها. وهي في الغالب كلمات تتعلّق بجغرافية فرنسا أو باريس، أو بشخصيات من التاريخ الفرنسي، أو بموضوعات ثقافية فرنسية، أو موضوعات خاصة بالفترة الاستعمارية.

بداية الكلام

مرّت أربعة أشهر منذ هربت شريكة حياتي ومعها ابتنا، مع ذلك الرجل الهجين، الذي يلعب على آلة الطمطم الإيقاعية، في فرقة موسيقية لا يعرفها أحد في فرنسا، بما في ذلك إمارة موناكو وجزيرة كورسيكا^(١).

في الحقيقة أنا أبحث الآن عن شقّة جديدة أنتقل إليها؛ فقد نلت ما فيه الكفاية من تصرّفات جاري أبقرات، الذي لم يعد يجاملني على الإطلاق، بل إنه يراقبني باستمرار، ويضع عينيه على كلّ تصرّفاتي، عندما أنزل إلى الطابق تحت الأرضي؛ حيث نضع أكياس القمامة، ثم إنه يتهمني بكل السيئات الموجودة في العالم.

هذا بالإضافة إلى أنني عند عودتي إلى الشقّة، لم أعد أستطيع أن أتحمّل خيالات رفيقتي^(٢) السابقة ومعها خيالات الهجين، وهما يتسكّعان معاً في كل مكان، رغم أنني نظّفت الشقّة، وقلبتها رأساً على عقب؛ حتى أتخلّص تماماً من كلّ متعلّقاتهما. ثم دهنت الجدران باللون الأصفر، بدلاً من اللون الأزرق السماوي السابق. وهكذا لم يعد هناك أي أثر يدلّ على أن امرأة وطفلة كانتا تعيشان هنا، معي في هذه الشقّة.

ليس هناك ربّما سوى الحذاء الذي نسيته رفيقتي، دون شكّ بسبب أنها كانت تتعجّل الرحيل.

في يوم الرحيل، من المؤكّد أنها كانت تقول لنفسها، إن رفيقها (أنا) يستطيع أن يرجع إلى المنزل في أيّ لحظة، ويباغتتها وهي تجمع متعلّقاتها، في حين أنني كنت أتلذّذ بتدوّق الجعة (البيلفورث)، في حانة جيس. فإذا كنت بالصدفة قد عثرت على هذا الحذاء، فذلك كان إلى حدّ ما، بفضل النصائح التي وجّهها لي أحد أصدقائي في جيس، وهو (بول) القادم من الكونغو الكبير^(٣)، الذي أسرّ إليّ، بين كويين من الجعة، قائلاً إنه عندما تهجرك امرأة، يجب عليك أول شيء، أن تغيّر وضع الفراش الذي كنتما تنامان فيه، وهو كأنك تضع خطأ بالعرض، في نهاية الصفحة، لتبدأ صفحة جديدة، وبالتالي تستطيع أن تتجنّب الكوابيس، التي ترى فيها رجالاً حقراء، يلاحقونك ويريدون أن يسيئوا إليك.

وكان هذا الصديق محقّاً فيما قاله؛ ففي الواقع لاحقتني الكوابيس خلال ليالي الأسبوع الأول، بعد رحيل رفيقتي السابقة، حيث كنت أرى نفسي وأنا أففز من فوق جدران سور الصين العظيم، وأسقط في الفراغ، ثم أرى نفسي وقد نبتت لي أجنحة أطيّر بها على ارتفاعات كبيرة، وأقطع بها أكثر من عشرة آلاف كيلومتر في مدّة بضع ثوان، ثم أستقر فوق قمة جبلية، يزيد ارتفاعها عشر مرّات عن قمم جبال الهمالايا، وتزيد خمسمائة وعشرين مرّة عن ارتفاع قمة جبالنا في غابة مايومبيه Mayombe في أفريقيا.

كنت أحياناً أجد نفسي بين أقزام البيجمي^(٤) في الجابون، وقد أحاطوا بي، وفي أيديهم رماحهم المسمومة، ولم أكن أستطيع أن أتخلص منهم؛ لأنهم كانوا يطيطون بسرعة تفوق سرعة طيراني. في طفولتي كانوا يقولون لنا إن هؤلاء الأقزام كانت لديهم قدرات خارقة؛ لأنهم كانوا أول البشر الذين استأنهم الله على مفاتيح الأرض، منذ ما قبل زمن أسفار التوراة الأولى، وكانوا هم من وجه إليهم الله قوله في خامس أيام خلق الكون والأرض والسموات: «تكاثروا واملؤوا الأرض وكونوا كثيري الخصوبة».

في ذلك الوقت فكر هؤلاء الناس صغار الأجسام، وتساءلوا ماذا سيأكلون على هذه الأرض؟ لهذا فإن الله الذي يقرأ أفكار الناس، أراد أن يطمئن أقزامه، فأضاف قائلاً: «أنا أعطيك لغذائكم في جميع أنحاء الأرض، كل نبات يحمل بذوره داخله، فهو القادر على الاستمرار وحده في الحياة، وأعطيك كل شجرة فاكهة تحمل بذورها بداخلها، فهي القادرة على الاستمرار وحدها في الحياة». في زمننا هذا يقوم الإنسان بتدمير الغطاء النباتي الطبيعي للأرض، وربما لهذا السبب يأتي هؤلاء الأقزام لإزعاجنا في كوابيسنا.

خلال هذه الكوابيس كنت أظن ألف وأدور حول نفسي في الفراش، وأنصب عرقاً؛ كما لو كنت مصاباً بالحمى. رأيت أقزام الجابون (اسم بلد أفريقي) وهم يستعدون للقاء ابنتي الطفلة في إناء طهي، مليء بزيت نخيل في درجة الغليان، فصرخت فيهم: «لا تفعلوا هذا أيها الرجال إنها ابنتي، إنها هنرييتا الصغيرة، إنها بريئة، فإذا أردتم يمكنكم أخذي أنا بدلاً

منها. لا تجلبوا الخزي والعار إلى البشرية فأنتم أسلافنا. بيّنوا للعالم كله أننا لسنا من بين أكلة لحوم البشر، وأن أكل لحوم البشر ليس إلا فريّة اخترعها المستكشفون الأوائل، ساعد على انتشارها الأفارقة الذين يؤلّفون الكتب».

ثم حدث أن اقترب منّي أكبرهم سنّاً، وكان بلحية رمادية، وعينين حمراوين، وأسنان صفراء، وسألني: «من قال لك إننا نأكل لحوم البشر؟ نحن نباتيون مئة بالمئة، ونحن فقط نقدّم طفلتك كأضحية على مذبح إله المطر؛ فنحن في احتياج إلى كلّ قطرة دمّ منها، ثم بعد هذا الطقس سنعيدّها إليك». في تلك اللحظة من الكابوس اتصلت برفيقتي أطلب منها المعونة. هنا استيقظت من نومي قفزاً في الفراش. ليس هناك أقزام من الجابون حول فراشي، وقد نمت دون إطفاء الأنوار وجهاز التلفزيون. لم يختفِ هؤلاء الأقزام من كوابيسي إلا بعد أن غيرت وضع الفراش.



أنا أذهب بشكل منتظم إلى حانة جيبس، وهي حانة تخصّ الكوبيين من ذوي الأصول الأفريقية، وتقع بالقرب من نافورة (الهال)^(٥)، في الدائرة الباريسية رقم واحد^(٦). أستطيع أن أقول إنني أذهب إليها حالياً بشكل أكثر مما كنت أفعل سابقاً. أحياناً وأنا هناك يحدث أن أنعس قليلاً، حتى توقظني ضوضاء (لازيو) حارس الأمن، أثناء نقله الكراسي، وإعادة ترتيبها. وهو يفعل هذا عادة وهو يتدبّر متلفظاً بشتائم، ومتوعداً

بالانتقام من أحد الزبائن، الذي يكون غالبًا قد غادر الحانة دون أن يدفع حساب مشروباته، لذلك يتهمه صاحب الحانة بالإهمال في عمله، رغم أن عمله الحقيقي، هو توزيع اللكمات على سوقة الحيّ الذين قد يأتون إلى الحانة متطفّلين، وليست مهمّته معرفة إن كان الزبائن قد دفعوا حساباتهم أم لا.

يحاول (ويلي) المسؤول عن تقديم المشروبات للزبائن، أن يشرح للزبائن أنه لا فرق بين النوعين؛ فكلاهما يستحق اللطم باللكمات على رأسه، على أن تكون اللكمات الموجهة للمتطفّلين، أكثر قسوة من تلك الموجهة للزبائن الذين يتهرّبون من الدفع، وهو لا يفسّر له أبدًا السبب في وجود هذا الفرق.

كنت قبل أن أدخل إلى الحانة، قد اعتدت على إلقاء نظرة على المحل الموجود في نفس الشارع، في الجهة الأخرى المواجهة للحانة. *Vogue à l'âme* (فوج آلام) هو اسم هذا المحل^(٧)، وقد تخصّص في بيع الملابس الداخلية النسائية. وليست تلك النظرة من نوع النظرات العابثة، بل يجب أن أشرح لكم السبب، وهو أن رفيقتي السابقة كانت تعمل بائعة فيه. ثم حدث ذات يوم أن أغلق هذا المحلّ أبوابه بشكل نهائي، لسبب غير معروف لأحد. ثم على الفور جاء الصيني، الذي يمتلك مطعمًا على بُعد بضعة خطوات، واشترى المكان، وجعل فيه خدمة كيّ الملابس بالبخار.

في هذه الأوقات الأخيرة، كنت كلّما ظهرتُ في حانة جيبس، وجدت (روجيه) الفرنسي الساحل عاجي^(٨) يقفز عليّ، ثم ينصحني

قائلاً إنه وفقاً لكلام بول من الكونغو الكبير، وحتى أتمكن من أن أُغرق أحزاني بعد رحيل رفيقتي، ومن أن أتغلب على غضبي من الهجين، ينبغي عليّ أن أكتب يومياتي على الآلة الكاتبة، التي كنت قد اشتريتها فعلاً من مخزن للبيع عند بوابة (فانسان)^(٩).

حدث أول أمس، أن روجيه هذا عندما رأي أدخل الحانة، لم يترك لي الوقت الكافي لأذهب إلى نضد المشروبات، حيث يجلس عادة بول من الكونغو الكبير، في المكان الذي يسمح له بمشاهدة الفتيات المارات في شارع (سان ديني)، بل قفز عليّ قائلاً:

(هذا هو الوقت المناسب فعلاً للوصول إلى الحانة، أيها المتخصص في الأرداف؛ إذ كنت في انتظارك، حتى تشرح لي ما قاله لنا بول من الكونغو الكبير، بخصوص كتابتك لأشياء تسميها البازار الأسود. اسمح لي أن أسألك هل هذه هي عملية نصب واحتيال تعدها لنا؟ لماذا تكتب؟ هل أنت تعتقد أن كل من هبّ ودبّ يستطيع أن يكتب قصصاً؟ هل أنت تكتب لأنك اكتشفت أنها حيلة جيّدة، تدّعي بها البطالة، وتذهب إلى التأمينات تطالب بإعانة بطالة؟ وتفلت من القيود وتصيب النظام الاجتماعي للبلاد بالعطب؟).

تولّد لديّ الانطباع بأن من أنصت إليه هنا ليس هو روجيه صديقي، بل هو (أبقراط) جاري، الذي ينتظرنني عادة عند مكان تجميع قمامة البناية في الطابق تحت الأرضي، لكن روجيه الفرنسي الساحل عاجي، أدرك أنني لم تعجبني اللهجة التي يتحدث بها معي، فطلب لنا زجاجتي جعة بيلفورث ليصالحني.

روحيه: أنصت لي يا صديقي، يجب أن تكون واقعياً، واترك تلك المسائل المتعلقة بكتابة القصص؛ فهناك أناس أفضل منك في هذه المسائل، وهم نفس الأناس الذي نراهم يتحدثون في التلفزيون، فهم يتحدثون جيّدون، وهم عندما يتحدثون، فهناك فاعل، وهناك فعل، وهناك مفعول به. هم قد وُلدوا من أجل هذا، وتربّوا وتعلّموا من أجل هذا. في حين أننا الآخرون من الزنوج، ليست هذه الكتابة هي موضوعنا المفضّل، فنحن كان أجدادنا شفاهيين، وقد حكوا لنا في طفولتنا حكايات الغابات، ومغامرات الأرنب البرّي (لوك)، التي نحكيها نحن بدورنا إلى الأطفال المتحلّقين حول نار تطقطق على إيقاع الطمطم.

(صمت)

روحيه: مشكلتنا هي أننا لسنا من اخترع الطباعة وأقلام الجبر الجاف، مشكلتنا هي أننا سنكون دائماً من بين الجالسين في الصفوف الأخيرة في كل الفصول المدرسية، مشكلتنا هي أننا نشعر أننا لن نكون قادرين حتى على كتابة تاريخ قارتنا السمراء برماحنا الصغيرة. هل تفهمني؟ بالإضافة إلى ذلك، فنحن لدينا لكنة غريبة عندما ننطق اللغة الفرنسية، وهذه اللكنة تظهر حتى عندما نكتب اللغة الفرنسية. والناس لا يحبّون أن تكون لغتهم منطوقة بلكنة مختلفة. من ناحية أخرى يجب أن تكون لك تجربة خبرات معاشة، قبل أن تستطيع أن تكتب. وأنت ما هي تجربة الخبرات المعاشة التي لديك؟ لا شيء. صفر.

(صمت)

روجه: أنا مثلاً حالتي عكس حالتك؛ إذ لديّ أشياء وأشياء يمكنني أن أرويها؛ لأن لديّ تجربة كوني من أب وأم من جنسيّتين مختلفتين، لذلك فإن بشرتي أقل قتامة من بشرتك، وهذا يعتبر امتيازاً كبيراً هنا، فإذا كنت لم أكتب سطرًا واحدًا حتى الآن، فالسبب هو أنني لا أجد الوقت الكافي للكتابة، وأنا أنوي أن أستدرك هذا التقصير، عندما أصل إلى سن الإحالة إلى المعاش، في منزل ريفي جميل، هنا سيعرف العالم كلّ ماذا تعني عبارة (عمل أدبي رائع).

(صمت)

ثم بلع في جرعة واحدة كأسه من جعة البيلفورث وسألني.
قال: حيث إنك تدّعي أنك تكتب، فهل هناك في حكاياتك على الأقل خروف أبيض؟

قلت: أنا لا أحب الخراف، ولم أرَ في حياتي كلها خروفاً باللون الأبيض.

قال: هل تريد أن تقول لي، إنه لم تكن هناك خراف في الحيّ الذي كنت تسكن فيه في الكونغو؟

قلت: نعم كانت توجد خراف لدى تجّار حيّ الثلاثمئة، لكن خرافهم لم تكن بيضاء، بل كانت إمّا سوداء تمامًا، أو ببعض البقع من لون مختلف، ثم إن هؤلاء التجّار كانوا يقطّعون أجساد الخراف إلى أجزاء صغيرة يبيعونها مشوية في الشوارع، وليس مع خراف مثل تلك، يمكننا أن نروي حكايات قابلة للتصديق.

قال: حسنًا أتفق معك فيما تقول، ولكن أليس لديك في حكاياتك على الأقل البحر، الذي يذهب إليه رجل عجوز ليصطاد، وهو يسحب في يده طفلًا؟

نفيت وجود بحر في روايتي، خاصة أن البحر يخيفني، مثلما يخاف منه أناس كثيرون في هذا البلد؛ منذ أن رأينا في السينما فيلم (الفكّ المفترس)، وكنت قد خرجت من قاعة العرض في سينما ركس بباريس قبل نهاية العرض. أعطى روجيه إشارة بيده لويلي، حتى يقدم إلينا زجاجتين جديدتين من مشروبنا المفضل البيلفورت.

قال: حسنًا أتفق معك، لكن قل لي أليس هناك في روايتك على الأقل، رجل عجوز يقرأ الروايات العاطفية في قلب الأدغال؟

قلت: لا يحدث هذا في روايتي، لكن قل لي أنت أولاً، ماذا نفعل حتى يمكننا أن نحصل على روايات عاطفية في قلب الأدغال؟ هذه هي المهمة المستحيلة عندنا؛ ففي غابات قاع بلادنا، يكون السكان محبوسين خلف العوائق الطبيعية، ولا يمكن الوصول إليهم بسهولة؛ حيث لا يوجد إلا طريق برّي واحد، يعود إنشاؤه إلى زمن الاحتلال الفرنسي، وقد ساءت أحواله تمامًا.

قال: أنتم قد حصلتم على استقلالكم منذ ما لا يقل عن نصف قرن، وأنتم تقول لي إنه لا يوجد إلا طريق واحد. ماذا تصنعون إذن منذ نصف قرن؟ يجب أن تتوقفوا عن الإشارات المسيئة إلى زمن الاحتلال؛ فقد رحل البيض وتركوا لكم كل شيء، بما في ذلك منازلهم المبنية بالطراز الكولونيالي^(١٠)، وسككهم الحديدية، وخطوط كهربائهم،

ومواسير مياههم الجارية القابلة للشرب، وأنشأوا لكم وسط المدينة، حيث تتجمع الأنشطة التجارية، وأنتم فوق ذلك لديكم أحد أكبر أنهار أفريقيا، ولديكم ساحل على المحيط الأطلنطي، بما أعدّوه لكم هناك من موانئ، ومن تجهيزات بحرية، وأحضروا لكم أدوية النيفاكين، وزجاجات الميركوروكروم.

قلت: أنا لست مسؤولاً عن كل هذا، وإنما المسؤولون هم حكامنا؛ إنها الأخطاء التي وقعوا فيها؛ إذ كان عليهم على الأقل تجديد الطرق التي تركها لنا المستعمرون، في هذه الحالة فقط، كان يمكن لهذا الرجل العجوز، أن يحصل في قلب غابته، على الروايات العاطفية. في الحقيقة إن ما تبقى من هذا الطريق هو عار على الكونغو.

قال: لماذا تعتقد أن هذا الطريق هو عار على الكونغو؟ هل أنت بهذا القول تريد أن تسيء إلى المستعمرين المساكين؟ أنا أقول لك إنه ينبغي أن نرجع الفضل إلى أصحابه، وأن نمتدح جهود المستعمرين. لقد فاض بي الكيل وأصابني الملل، من تكرار اتهام المستعمرين بالحق وبالباطل، في حين أنهم راعوا ضمائرهم في العمل الذي قاموا به؛ عندما أرادوا إخراجنا من عصر الظلمات، الذي كنا نعيش فيه، وجلبوا إلى بلادنا منتجات الحضارة.

(صمت)

قال: هل كانوا مضطرين إلى فعل كل ما فعلوه؟ أنت لا تدرك إلى أي حدّ هم كانوا مجتهدين في أعمالهم. كانت هناك الحشرات والناموس، وكان هناك مرض النوم، وأمراض الحمّى الصفراء، والحمّى الزرقاء،

والحمى البرتقالية، والحمى بألوان الطيف السبعة، ولا أعرف ماذا أيضًا من أنواع الحمى، وكان هناك الشياطين والسحرة المحليون، وكان هناك أكلوا لحوم البشر. كانت هناك كل هذه الشرور على أراضينا، أراضي أفريقيا الشبحية، إلى درجة أن تان تان *Tin tin*^(١١) وجد نفسه مضطراً إلى الحضور بنفسه إلى أفريقيا، من أجل خير الشعوب الأفريقية، لأجل هذا كله فأنا لست مستعداً أن أشعر بالمرارة تجاه المستعمرين.

(صمت)

قال: هل أنت تتفق معي على الأقل أن تان تان قد جاء إلى أفريقيا ليساعد من أجل صالح الشعوب الأفريقية؟ هل تقرّ بأنه حضر إليكم بنفسه في الكونغو؟ هل سأل نفسه ألف سؤال متردداً في الحضور إليكم؟ ألم يذهب إليكم ومعه كل أصدقائه؟ القبطان الملتحي الذي يوجه السباب للجميع، والكلب الأبيض الصغير الأكثر ذكاءً مني ومنك. ألم يمرّ هو عبر ذلك الطريق الذي تعتبر أنت أنه عار على الكونغو؟ إذن كان يمكنك أنت أيضاً أن تمرّ بنفس هذا الطريق، في الروايات التي تكتبها، على أن تحمل أنت بنفسك الروايات العاطفية إلى الرجل العجوز في الأدغال. قلت: نعم ولكن هذا الطريق خطر جداً، خاصة وقت سقوط الأمطار.

قال: أين هي المشكلة؟

قلت: إن السماء عندنا تمطر دون توقّف، يحدث أن يكون المطر أكثر ألف مرّة من الطوفان.

بعد فترة صمت، وجرعتين من زجاجة الجعة، وقد أعاظه أن لديّ دائماً ردودي الجاهزة، طرق روجيه الفرنسي الساحل عاجي بقبضته على المائدة.

قال: أنا أحاول مساعدتك، هذا هو كل ما هنالك، هل تفهم على الأقل أن الكتابة ليست إلقاء نكات؟ وأن هؤلاء الذين يكتبون الحكايات، هم الذين يخترعون المواقف، اعمل إذن على تشغيل خيالك؛ حتى تساعد عجوز الغابة الملول، في الحصول على رواياته العاطفية.

وحيث إنني استأنفت عدم الردّ، لذلك فقد تراجع عن موقفه، واستسلم.

قال: حسناً، أنا أعرف أنني أفقد أعصابي من أجل لاشيء، اعذرني، ربّما أنا أطلب منك المستحيل، أنا أقدر في الحقيقة صعوبة المهمّة، ولكن أليست هناك في حكاياتك على الأقل، شابة يابانية ت اخترع حكايات كاذبة، وتسرّ إلى محلّ لها النفسي بأنها لم تعد تنصت إلى الموسيقى، وهي تقصد بهذا أنها لم تعد تحصل على لذة جنسية.

هنا كان الدور عليّ حتى أفقد أعصابي.

قلت: لا لم يحدث، ولن أذهب إلى اليابان، لأحكي قصّة فتاة يابانية مغرمة برواية الحكايات الكاذبة، ولم تعد تحصل على لذة جنسية.

قال: هل أنت ضدّ اليابانيين أم ماذا؟

قلت: لا أبداً، لكن طالما أننا سنذهب إلى اليابان، فلماذا أيضاً لا نذهب إلى جزر هايتي، لتحدّث عن الفودو؟ هل هناك خطأ ما

في رأسك؟ هل أنت في الحقيقة لست إلا أحد المصابين بالوسواس الجنسي؟ هل نجحت من قبل في أن تصل بامرأة إلى اللذة الجنسية؟

قال: اصمت. أنت لست في حاجة إلى الصياح هكذا وأنت تهينني؛ فكل الناس في الحانة يسمعون ما تقوله، وليس هذا بالأمر الطيب. فالكاتب عليه أن يكون قادرًا على كتمان الأسرار، وعليه كذلك أن يلاحظ المحيطين به؛ ليتمكّن من وصفهم بدقّة. ولكن هل هناك في حكاياتك على الأقل شخص سكّير، يذهب إلى بلاد الموتى؛ حتى يعثر على شخص آخر كان يقدّم إليه نبيذ البلح، ثم مات في حادثة عارضة عندما سقط من أعلى جذع نخلة؟

قلت: لا، وذلك لأنني لم أضع قدمي أبدًا في أرض بلاد الموتى، ولا أحرص على الذهاب إلى هناك مهما كان السبب، خاصة وأن بلاد الموتى أبعد من اليابان ومن هايتي.

قال: نعم، ولكنها مجرد قصّة نحكيها. ويجب عليك كمؤلف أن تستطيع تخيّل ذهابك إلى هناك، هذا ليس سحرًا، أليس كذلك؟

قلت: لن أذهب إلى هناك، فهي أماكن تجتذب إليها اللعنات، ومثل هذه الحكايات الخاصة بالناس الذين يذهبون إلى عوالم الموتى لا تناسبني.

قال: حسنًا، ولكن أليس هناك في حكاياتك على الأقل، قصّة حبّ عظيم في زمن الكوليرا، بين موظّف تلغراف فقير وتلميذة صغيرة، سينتهي بها الحال لاحقًا بالزواج من طبيب؟

قلت متسائلاً بسداجة مفتعلة: ماذا يفعل موظف التلغراف هنا؟
قال: هكذا إذن فأنت تزيد العوائق. أنا أرى بوضوح أنه يجب عليك أن تعمل على إثراء معجم مفرداتك. أليس هناك في حكاياتك على الأقل صراع غير، حيث رسّام يقتل امرأة قابلها في أحد المعارض الفنية، رغم أنها كانت معجبة برسوماته؟

قلت: لا تحدّثني عن فنون الرسم والرسامين.

قال: أنت إذن لا تحبّ فنون الرسم، ومع ذلك تدّعي أنك كاتب.
قلت: إن فنون الرسم في زمننا الحالي تجعلني أفقد أعصابي.
عندما كنت لا أزال في بلادي الكونغو، أذكّر أنني شاهدت في المركز الثقافي الفرنسي، معرضاً لمستنسخات اللوحات، كانت من بينها نسخة للوحة معروفة باسم (آنسات أفينيون)^(١٢)، وكانت قبيحة جداً مثل وجه الكلب البولودوج.

قال: إذن فأنت لا تفهم أي شيء في فنون الرسم، وهذا عائق كبير أمامك ككاتب. لكن أليست هناك في حكاياتك شخصية طفل يمسك في يديه بطبلة، ولا يريد منذ سن الثالثة أن يواصل نموّه الجسدي، وسيصبح لاحقاً نزيلاً في أحد بيوت الرعاية الصحيّة، يروي حياته لحارسه عبر فتحة في الباب المغلق بينهما^(١٣)؟ أنا أذكر لك كل هذا في محاولة مني لمساعدتك؛ فأنت لا تعرف أي أرض تطوّها قدماك، ولا تعرف هؤلاء الناس الذين سبقوك إلى تلك الأرض. سيكون من الأفضل كذلك لو كان الحارس المشار إليه أعلاه، قادراً على صنع الجبال المعقودة، وأن يريها لنزلاء الدار. أنت طبعاً تفهم ما أقصد هنا أن أشير إليه.

أوضحت له أن لديَّ في روايتي شخصية تضرب على الطبله، وأنني أعطيت لهذه الشخصية لقب الهجين، وأنه هو نفسه ذلك الرجل الذي هرب عائداً إلى البلاد، ومعه رفيقتي وابنتي، ثم صرخت بصوت مرتفع قائلاً: إذا حدثتني من جديد عن الطبله أو عن الطمطم، سأخرج من هذه الحانة؛ فلقد اكتفيت على أي الأحوال من كلامك، وسأغادر الحانة على الفور. ثم إنك لا تفهم أي شيء في أي شيء، فأنا أكتب بنفس الطريقة التي أعيش بها، وهكذا أُنقل بين الأشياء ذات القيمة، والأشياء عديمة القيمة، فهذه هي الحياة، وأنت لا تعرف معنى الحياة.

وليس لأنك دفعت لي ثمن مشروب البجعة، سأكون مضطراً إلى أن أقبل سخافاتك المتعلقة بالخراف البيضاء، وبالعواجيز الذين يقرأون الروايات العاطفية، فأنا لي صديق حقيقي ينصت باهتمام إلى كل ما أرويه عليه، اسمه (لويس فيليب)، وهو من جزر تاهيتي، وهو كاتب حقيقي، وليس شخصاً كثير الصياح مثلك، ينتظر إحالته إلى التقاعد حتى يضع بيضته، ما تسميه أنت تحفك الأدبية، التي سيقراها العالم أجمع. يمكنك الآن أن تذهب إلى الآخرين لتضجرهم هم أيضاً، كما أضجرتني.

قال بصوت معدني: كل شيء هنا على هذه الأرض مكتوب مسبقاً، وأنا قد قرأت، أيها المتخصص في الأرداف، كل الكتب العظيمة، ولست أنت من سيأتي ليغير الأشياء. وأنا على الأخص، لا أريد أن أجد اسمي في يومياتك، يوميات الزوج المخدوع، ومن جهة أخرى أين هما الآن امرأتك وابنتك؟ أنت غير قادر حتى على أن تجيب عن هذا السؤال في

كتاباتك؛ لأنه سيكون لديك إحساس بالخزي والعار، لو عرف الناس هذا عنك. أنت تعتقد أنك تكتب، لكن في الحقيقة أنت تتقيأ الغضب نحو رفيقتك السابقة، ونحو المغني الجوال الذي خطفها منك، لكن هذا هو المصير الذي تستحقه.

خرجت من المكان مثل الصاروخ المندفع؛ لأن محدثي كان يزداد سُكْرًا لحظة بعد أخرى. قرّرت ألا أتحدّث معه أبدًا بعد ذلك عن مشاريعي التأليفية.



الفصل الأول

(١)

لست أنا على الإطلاق المسؤول، عن الثقب الذي حدث في نظام التأمين الصحي الفرنسي، فأنا عندما وصلت إلى فرنسا لأول مرة، كان هذا الثقب موجودًا من قبل، وكانوا يتحدثون عنه في الواقع قبل عشرات السنوات، حتى إن بعض الناس يدّعون أننا بمجرد مشينا في شوارع فرنسا، يمكننا أن نجد أنفسنا دون أن ندري وقد سقطنا في هذا الثقب؛ لأنه ليست هناك علامات إرشادية، تحذّر الناس من الثقب ومن خطر السقوط فيه. لم يكن هناك إذن ما ألوم نفسي عليه، ولكن ليطمأن قلبي كنت أكرّر كثيرًا على نفسي، أن حكاية الثقب هذه لم تكن إلا حجة، استعملها بعض السياسيين المعارضين، وحاولوا بها منع الحكومة من إنجاز أي شيء، حتى تكون نتائجها في الانتخابات كارثية.

لهذا السبب فإن أولئك الذين كانوا في التلفزيون الأسبوع الماضي، يتجادلون حول سياسات الحكومة، قد أعلنوا كلهم، أننا بهذا الإيقاع الذي تسير به الحكومات المتتالية (نتجه مباشرة نحو سقوط مروع وغير مسبوق). بسبب هؤلاء المتحدثين التلفزيونيين عدت من

جديد إلى الإحساس بالخطر. حتى روجيه الفرنسي الساحل عاجي، بدأ ينشر الإشاعات حول مسؤوليتي المباشرة في تفاقم الأوضاع، بدعوى أنني لا أعمل إلا بنصف جدول عمل، وأقضي باقي الوقت المتاح أمام أَلتي الكاتبة.

عندما عدت إلى الإنصات بانتباه إلى ما يقوله ناس التلفزيونات، الذين يدعون أن لديهم كلّ المعلومات، اكتشفت أثناء تلك المناقشات، أن هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الوضع أكثر من خطير^(١٤)، وأن حالة التأمين الصحي في فرنسا شبه ميؤوس منها، وأن البلد لم يخسر فقط المعركة، بل خسر الحرب كلّها. هم تحدّثوا عن عجز كارثي في ميزان المدفوعات، بسبب سوء الإدارة بشكل كارثي.

كنت أكتب كلمات بلا ترتيب، على المساحات البيضاء من البطاقات الملتصقة على زجاجات الجعة البيلفورث، التي كنت أشتريها من محلّ بقالة عربي الناحية الموجود في شارعنا. هو رجل لطيف، كلما دخلت محلّه سألني من هو الشاعر الأسود الذي كانت لديه شجاعة أن يقول: (إن الغرب ملأ عقولنا بالكاذيب، وملأ أحشاءنا بالروائح النتنة).

طوال فترة الجدل الحاد تلك، لم أرفع عيني عن شاشة التلفزيون. كانت متابعة هذه الحوارات بالنسبة لي عملاً مبهرًا، ففي العادة أنا أفضل مشاهدة الأفلام العاطفية، أو برامج المسابقات التي تقدّم للمشاهدين الوعود بأنهم قادرون على أن يكسبوا سيّارات ذاتية التحريك (أوتوماتيكية)؛ إذا قام المشاهدون فقط بالاتصال برقم التلفزيون الذي يظهر في زاوية الشاشة. نعم هذا هو كل ما عليهم فعله.

فيما مضى كنت أحبّ نوعية أخرى من البرامج، حيث نرى رجلاً وزوجته يُقَدَّف بهما إلى جزيرة منعزلة في سواحل أمريكا الجنوبية، حيث يتم الفصل بين الزوجين، ثم يقوم رجال بمحاولة إغواء الزوجة، وتقوم نساء بمحاولة إغواء الزوج، طوال الأربع والعشرين ساعة، خلال اثني عشر يومًا. لم تكن تفوتني حلقة واحدة، وكنت أمازح رفيقتي وأتحدّثها أن تقبل أن نرحل معًا في مغامرة شبيهة.

يحدث كثيرًا أن هناك بعيدًا في هذه الجزيرة المنعزلة، يكتشف الناس أن حبّهم غير قابل للسقوط، ولكن رغم ذلك يحدث أحيانًا بعد مثل تلك الإجازة القصيرة، ألا يعود الرجل والمرأة معًا إلى منزل الزوجية، وقد تتغيّر حياتهما تمامًا، ولا يعودان يتحدّثان أحدهما إلى الآخر على الإطلاق.

عندما عرضت على شريكة حياتي قبول هذا التحدي، كان ردّ فعلها جادًا جدًّا، وغير قابل للمزاح. أما أنا فقد تخيلت نفسي محاطًا بعدد من شقراوات الشعر وحمراواته وسوداواته، بمؤخّرات مستديرة شبيهة بتلك التي للأفريقيات، وهي المؤخّرات التي أُجَنّ بها.

قالت رفيقتي إن هؤلاء النساء اللاتي نراهن على شاشات التلفزيون، لسن نساءً حقيقيّات، بل هنّ نتاج عمليّات تجميل وتكبير، واستعمال الكثير من مستحضرات التجميل. قالت إنها لم تكن ترى أبدًا نساءً بهذا الشكل، في محلات المونو بري^(١٥) ومحلات الفران بري، التي يقع فرعها في نهاية شارعنا، وتتردّد عليهما لشراء لوازمها النسائية.

كادت أن تفقد أعصابها وهي تقول إنه من بين الرجال والنساء المتروكين والمتروكات في هذه الجزيرة، هناك من سقط في خطيئة الجسد منذ اليوم الأول. كنا نراهم على شاشة التلفزيون وهم يتناكحون على حافة حمام السباحة. لكن هناك كذلك من استطاعوا مقاومة الإغراء، واختاروا أن يتمهلوا قليلاً في إظهار مشاعرهم، قبل أن يقرّروا تعويض ما فاتهم من وقت ضائع على هذه الجزيرة، فيفقدون وعيهم تماماً، ونحن نراهم يتناكحون، في كافة أرجاء هذه البجّة الأرضية^(١٦).

كنت في نظرها أنتمي إلى تلك الفئة المتعجّلة، التي يقضم أفرادها أول تفّاحة تقع في أيديهم. فإذا كنت قد توقّفت عن متابعة هذا البرنامج، فذلك لأنني عرفت أن بعض الأزواج يخدعون المشاهدين، فهم في الحقيقة غير متزوّجين، هم أزواج مزيفون. فهل هذا هو أسلوب معاملة يا تلفزيون؟ ما علينا.

لكنني في مرّة أخرى كنت أشاهد شيئاً آخر، جعلني أشعر كما لو أنني كنت في موقع التصوير في الاستوديو. كانت المناقشة الدائرة أمامي، تجعلني أنا شخصياً في موضع الاتهام، أو على الأقل في موضع الشكّ بشكل مباشر.

بدأ العراك بين ضيوف البرنامج، بعد أن شاهدوا تحقيقاً صحفياً تلفزيونياً مصوّراً، تدور وقائعه في أحد مكاتب التأمين الصحي في باريس، ثمّ في صيدلية قريبة من هذا المكتب، وبالصدفة البحتة استطعت تمييز هذين المكانين، وهما يقعان في دائرة الحيّ الذي أسكن فيه في باريس، وبالقرب من دار عموديّة الحيّ^(١٧). إن الرجال والنساء الذين

تمّ استجوابهم في التحقيق المصوّر، عبّروا عن آرائهم بحريّة تامة، وقد انتقدوا كلهم نظام التأمين الصحيّ الفرنسي، بالشكل الذي هو عليه في الوقت الحالي.

لقد نطقوا ٩٢٥ مرّة بكلمة (ثقب) في نظام التأمين. هل كان المستجوبون يجهلون أن صورههم وكلماتهم، ستذاع في جميع أنحاء فرنسا، بما في ذلك جزيرة كورسيكا وإمارة موناكو؟ هل أدركوا حجم هذه التغطية الإعلامية؟ كان المتحدثون يشرحون كيف أنهم يغضّون البصر عن بعض التجاوزات في هذا النظام التأميني كأنه لا يعينهم، أو كأنهم لا يدركون أن الأموال التي تنفق بالملايين، في التعويضات لهذا ولذاك، وكأنها يُلقى بها بلا اكتراث من النوافذ، تخرج من جيوبهم هم. في نهاية هذا البرنامج كان ينبغي طبعاً أن يقدّموا لنا بعض الحلول، إلا أن ما حدث فعلاً هو انسياق بعض الضيوف إلى بعض التعميمات.

- «يجب على الدولة أن تلعب دورها» قالها رجل أصلع، لم يعد لديه فوق رأسه إلا بضع شعيرات، سحبها بطول الرأس من القفا إلى الجبهة.

- «يجب اتخاذ تدابير جوهرية بشكل عاجل» قالها رجل يبدو شعر ذقنه منتوفاً، كأنه ينزع شعر ذقنه بمستحضر نزع الشعر الذي تستعمله زوجته.

- «يجب وضع خطة مارشال جديدة على الفور» قالها رجل يشبه سمك موسى، سواء نظرت إليه بنظرة أمامية وجهاً لوجه، أو نظرت إليه بنظرة جانبية.

- «يجب أن تصبح الحكومة أكثر قسوة في تنفيذ الأحكام»^(١٨)
قالتها امرأة تضع عوينات كبيرة، تشبه في حجمها عجلات الدراجات،
التي أحضرها معهم المستعمرون الفرنسيون الأوائل إلى بلادنا.

- «يجب... يجب... دراسة... دراسة... السلوك الاجتماعي
للمؤمن عليهم... والضغط... الضغط... عليهم لتغيير عاداتهم...
الاستهلاكية... الدوائية... يجب كذلك... تنظيم حملة... ضد عمليات
النصب» قالها شخص يتهته، كان ينهي جملة بصعوبة.

في النهاية جاءت موسيقى ختام البرنامج، وكان المتجادلون
يبتسمون لآلات التصوير، ويهتئ بعضهم بعضاً على نجاحهم في
المهمة الموكلة إليهم. كنت أعرف أن جاري اللدود يشاهد هو الآخر
هذا البرنامج؛ لأن صوت جهازه التلفزيوني كان يصل إليّ في شقتي.
ما لم أكن أعرفه بعد هو أنه سيكسر لي عظام قلمي بسبب هذه القصة.

* * *

صباح اليوم التالي، وكانت عيناى لا تزالان حمراوين بسبب
السهر أمام التلفزيون، تقاطع طريقي مع طريق جاري اللدود، كالمعتاد
في موقع إلقاء القمامة، حيث بدأ هو الكلام معى بنفس نبرة الصوت
المعتادة المشحونة بالسخرية.

هو: أنا لا أعلمك شيئاً لست أنت على علم به، فالموقف خطير، بل
هو خطير جداً؛ إذ يبدو أن ثقب التأمينات الاجتماعية يزداد اتساعاً بسبب

بعض السوق والغوغاء، الذين ليس لديهم أي إحساس بقيم ومبادئ الجمهورية الفرنسية، بل إنهم يهدّدون ديموقراطيتنا العريقة، وأنا لن أذكر هنا أي شخص منهم بالاسم، لكن يجب ألا نكتفي بالصمت، بل علينا أن نصنع شيئاً.

تساءلت بيني وبين نفسي لماذا يتوجّه إليّ أنا بالذات بهذا الحديث، فنحن لم نكن أبداً متفاهمين، فتيار التفاهم لم يمرّ بيننا أبداً منذ الأيام الأولى التي وضعت فيها قدمي في هذه البناية بحقائب ملابسي؛ لأنضمّ إلى تلك التي ستصبح فيما بعد أمّا لابنتي. تمهّلت قليلاً قبل أن أردّ عليه؛ إذ لم أكن أريد أن أحتدّ عليه.

قلت له إنني أفهم عمّا يتحدّث، وإنني أنا أيضاً قد تابعت حلقة البرنامج، وإن ثقب التأمينات في الحقيقة يبدو عميقاً جداً، وإن هناك ضحايا كثيرين قد سقطوا داخله، وإنه لديّ بخصوص هذا الموضوع ألف سؤال، وإنني أودّ لو تمكّنت من رؤية هذه المسألة بقدر أكبر من الوضوح.

هو: نعم لكن من المفروض أن نفعل أي شيء الآن، لقد سئمت من الأشخاص من أمثالك، الذين يريدون دائماً الانتظار، حتى يتمكّنوا من رؤية هذه المسألة بقدر أكبر من الوضوح، في حين أن حجم الثقب يستمر في التفاقم.

لم أرد.

هو: قل لي بالمناسبة، بينما نحن نتحدّث في هذا الموضوع، هل مهنتك الجديدة هي البقاء في المنزل، والدقّ كلّ الأيام بالأصابع على

مفاتيح آلة كاتبة رديئة، ضجيجها يجعل البناية كلّها ترتجف؟ هل ما تفعله هذا يؤمن لك رزقًا كافيًا؟ أم أنك تستمرّ في الدقّ هكذا حتى لا يعرف الناس أنك في الحقيقة متعطّل عن العمل؟

كان في نيّتي عدم التذمّر، لكنني قبل أن أخرج من مقلب القمامة، تساءلت إن كان جاري اللدود قد لاحظ البذلة الأنيقة التي أرتديها، وهي من طراز كوستار شيروتي *Cerruti*؟ أعتقد أن نظراته لي لا تلاحظ دائمًا إلا ما يبدو نقصًا في ملابسني، مثل بقعة وسخ ما على ملابسني. همهم ببعض الكلمات وهو مغتاظ.

قال: عندما نذهب إلى مقلب القمامة، هل علينا أن نرتدي الملابس كما لو كنّا ذاهبين إلى حفل زفاف؟ ثم إن هذه الملابس التي ترتديها تبدو غالية الثمن!

خطر في بالي أنه يربط بين ملابسني غالية الثمن، وبين ثقب التأمينات الاجتماعية في فرنسا، كأنني أشتري ملابسني هذه من نقود التأمينات التي يدفعها هو! في حين أنني أرى أنه هو الذي يتلعب نقود التأمينات الصحية، بالنظر إلى حجم الأدوية التي نراه يتلعبها كلّ يوم، ويبدّل بينها، وفقًا لحالته المزاجية، وأرى أنه هو الذي يجعل أطباء التأمين يتوافدون على شقّته.

في الحقيقة إن تصرّفاته أصبحت غير محتملة، منذ الحادثة التي وقعت له في الطابق الخامس، فهو لو كان يكتفي بزراعة حديقته في الطابق الأرضي، وبرعاية شؤونه الخاصة دون التدخل في شؤون الآخرين، ما كان قد أصابه أي شيء.

مشكلته الحقيقية هي أنه ينشغل طوال النهار، بصعود وهبوط الأدوار السبعة للبنية على السلالم، لمراقبة تصرفات السكان، ومتابعة حركاتهم في ممرات البنية، ومحاولة أن يعرف ماذا يفعلون داخل شققهم. إذن فقد أصاب نفسه بكسر في جمجمته منذ شهرين.

في ذلك اليوم ما زلت أتذكر، كيف أن كل سكان البنية كانوا يشعرون بالخوف، بسبب ما قاله لهم أحد سكان الطابق الثاني، بخصوص أن أحد مفتشي الشرطة، سيقوم بإجراء تحقيق طويل مع كل السكان، وأنا سنظهر في نشرات الأخبار المسائية في التلفزيونات، وأنا سنرى أنفسنا بلحمنا ودمنا على الشاشات في كل أنحاء فرنسا، بما في ذلك إمارة موناكو وجزيرة كورسيكا. ملحوظة مهمة هي أن ساكن الطابق الثاني، كان مغرمًا بمشاهدة الأفلام البوليسية.

حينما انزلق الجار أبقرات على السلالم، كنت جالسًا أكتب، ثم توقفت عن الكتابة، وفتحت باب شقتي، بسبب شدة انزعاجي من صوت الجار، الذي كان أشبه بعويل خنزير مذبح بمشار كهربائي، مثل ذلك الذي شاهدناه في فيلم (الوجه ذو الندبة) *scar face*. عويله مستمر مع كل خطوة يخطوها من الطابق الخامس إلى الطابق الأرضي، حيث تقع شقتنا، أنا وهو. ما حدث هو أنه فقد وعيه أمام باب شقتي، وقد تمدد على الأرض بذراعيه مفرودين على جانبي الجسد.

نزل كل سكان العمارة مسرعين، وكان بعضهم بأقدام حافية، وبعضهم الآخر بمناشف كبيرة تلف الجسد، وقد أجمع الكل على أنه فارق الحياة، ثم قال البعض إننا على كل الأحوال يجب أن نتصل

بالمسعفين. ثم تدخّل أحد سكّان الطابق السادس، الذي بدا لنا على معرفة بالإجراءات المتّبعة في مثل تلك الحالات، وقد أفتى بأنه بدلاً من الاتصال بالمسعفين، ينبغي الاتصال بالحنوتية، وكذلك بأحد الأطباء الشرعيين، وذلك حسب قوله؛ لأن المسعفين لا يتعاملون مع حالات الوفاة، إلا إذا كانت بسبب الحرائق، أو في حالات الغرق في مياه البحار والأنهار.

ثم حذّرنا من الاتصال بالمسعفين؛ لأنهم لم يعودوا في الأوقات الأخيرة يقبلون أن يتصل بهم الناس في باريس، لأسباب تافهة كل نصف دقيقة، علاوة على أن نقابة المسعفين تتدخّل الآن، لتجعل الناس يدفعون ثمن تكاليف تدخّل المسعفين، لو كانت الحالة التي استدعوا لها هي حالة تافهة.

قال: «الشخص الذي سيتصل بالمسعفين، سيدفع هو نفسه من جيبه ثمن مصاريف انتقالاتهم». ثم أضاف: «ولست أنا من سيدفع ذلك الثمن». كانت هذه العبارات قد قيلت بصيغة التهديد. لذلك تراجعنا جميعاً عن فكرة الاتصال بالمسعفين، مع أن الجثة كانت لا تزال على الأرض أماناً.

أما جار الطابق الثاني الذي يشاهد كثيراً الأفلام البوليسية، فقد صرّح لنا بأننا سنستقبل قريباً رجلاً شريراً فاسداً، هو ابن عم المفتش التلفزيوني الشهير كولومبو، الذي سيحضر مرتدياً معطفه الواقى من المطر، وسيصل إلى البناية وهو يقود سيّارته القديمة، التي ستركها واقفة أمام البناية. وأنه يدخّن سيجاراً له رائحة عفنة. ثم سيحاول أن

يصرف أنظارنا عن الجريمة، بحديثه إلينا عن زوجته وعن كلبه، بحيث يجعلنا نعتقد أنه يجهل كل شيء عن الجريمة، لكن الحقيقة هي أنه سيحاول أن يوقعنا في الفخّ.

سيحاول أن يرهقنا عصبياً بأسئلة من هنا وهناك، لا معنى لها، أثناء بحثه عن قرائن إدانة، تحت كعوب أحذيتنا، وتحت مساحات الأحذية المتربة عند مداخل شققنا، وفوق أعقاب سجائرننا، وأكواب الجعة التي نحسبها، وفوق الأوقية الذكرية المصنوعة في إنجلترا، المتروكة في جيوب معاطفنا، وفوق الصبغة الحمراء على شفاه النساء، وفوق أربطة أعناق الرجال المعقودة بإهمال، وفوق مقابض أبوابنا المتسخة، وفي أماكن تجميع القمامة في الطابق تحت الأرضي، التي كان المجني عليه يكثر من التردد عليها.

وإنه سيتناقش مع عربي الناحية^(١٩)، ثم مع كل أصحاب محلات الناحية، من الصينيين والباكستانيين والهنود، ثم مع الأوروبيين من اليونانيين والبولنديين^(٢٠) الذين يعملون في مهن يدوية مثل السباكة، وإنه سيرفع جميع البصمات، من فوق كل أبواب الشقق، وإنه حتماً يريد أن يعرف أين كان كل منّا وقت وقوع مأساة جريمة قتل الجار أبقرط؟ وماذا أكل كل منّا قبلها بيومين؟ وماذا شرب كل منّا قبلها بشهرين؟

سيقرأ تقارير السكّان كلهم، وسيقضي وقتاً طويلاً في كهف الطابق تحت الأرضي، حيث مكان تجميع القمامة، وسيفحص كل أرقام التليفونات التي اتصلنا بها، وسيتوقف طويلاً عند كل أرقام المكالمات التليفونية التي استقبلناها، دون أن يعير أي اهتمام لمسألة الداعي إلى

المكالمة، أي إذا كانت المكالمات دعائية في محاولة من شركة أن تبيع لنا مكانس كهربائية مخفضة السعر، أو في محاولة من شركة اتصالات بمحاولة إغرائنا على تغيير الشركة المتعاقدين معها. وفوق هذا وذاك فإن ابن عمّ كولومبو هذا، سيستدعي الأشخاص الذين جاؤوا لزيارتنا خلال العشرين عامًا الماضية.

بعد كل هذا العناء سيذهب بعضنا، وهم المشكوك فيهم، لقضاء ساعات طويلة في الحجز بقسم الشرطة، وسيتردّد عليهم محامٍ لجلاج، سيتمّ تعيينه من قبل الشرطة، وسيعامل رجال الشرطة أولئك المحجوزين لديهم، المشتبه فيهم، كما لو كانوا خنازير هندية، أي حيوانات تجارب معملية، لتجربة الطرق الجديدة في التعذيب، المستوردة من الولايات المتحدة الأمريكية، وهي الطرق التي تنفع أثناء التحقيقات، ليس فقط في إخراج الاعترافات من أفواههم، بل حتى في إخراج الديدان من أنوف المتلاعبين في أقوالهم بمكر ودهاء. وأنهى هذه الخطبة الطويلة بالقول: «هذه نصيحتي لكم، أعدّوا أدلة براءتكم، وسجلوها دليلًا فوق قطعة من الورق».

في تلك اللحظة جاء جار يقيم في الطابق السابع، وقال إنه لا يخاف شيئًا، وإنه لا صلة له بموضوع مقتل أبّقرط، وإن لديه دليل براءة قويًا في قوّة الأسمت المسلّح، فهو لم يكن يقيم في البناية خلال الشهر الماضي بأكمله؛ لأنه كان يقيم لدى والدته التي تعيش في إقليم الدوردوني في مدينة (شامبانياك دو بل إير)؛ لأنها تعاني من مرض السرطان منذ سنوات.

قال: «ذلك بالإضافة إلى أنني أقيم في قطاع السلم (ألف)، في حين أن الحادثة قد وقعت في قطاع السلم (باء). إذن فهذه المسألة لا تعينني، لكن إذا وضع ابن عم المفتش كولومبو قدمه في بنائنا ليقلقني، فأقسم لكم أنني سأ تقدّم بشكوى رسمية، وسأخذ لي محامياً (الأستاذ فارجاس)، وسأرسل هذه الأخبار إلى المسؤولين عن جمعيات حقوق الإنسان في هذا البلد.

أما الرجل الذي يشاهد الأفلام البوليسية، فقد ردّ عليه قائلاً إن ابن عم كولومبو، سيذهب حتماً بسيارته القديمة، حتى مدينة (شامبانياك دو بل إير)، وإنه سيستدعي الوالدة المريضة بالسرطان أو غيره؛ لأن قانون العقوبات لا يعترف بأن مرض الوالدة يمكن أن يمنع الشخص من ارتكاب جريمة قتل الآخرين، وأنه لن يهتم بكونك من سكان السلم (ألف) وليس السلم (باء). وانتهى إلى نتيجة هي أنه لا يحق لكل سكان البناية، في الوقت الحالي، تغيير أماكن سكنهم، ولا ينبغي نقل الجثة أو حتى مجرد لمسها، وأن التحقيقات ستستمر ما بين عامين وثلاثة أعوام ونصف العام؛ لمعرفة أسباب سقوط أبقرات، ولتحديد مسألة ضلوع بعض السكان في هذه الجريمة.

رغم كل ما قيل فقد ظللنا جميعاً واقفين في أماكننا حول الجثة نراقبها؛ لأنه ليست لدينا كل يوم فرصة مشاهدة جثة طازجة، في نفس المكان الذي فقدت فيه الحياة. وليس كما يحدث في الأفلام التي يكذب علينا فيها الممثلون، وهم يمثلون أنهم يموتون، ويعاملونا كما لو كنا

أطفالاً، كأننا لا نرى أنفاسهم وهي تصعد وتهبط بصدورهم، وكأننا لن ندرك أن الدماء على أجسادهم ليست إلا صلصة طماطم من نوع الكاتشاب، الذي يباع في سوق (لاشابل).

قال أحدهم: إنه لم يعد يتنفس.

قال آخر: يجب تغطيته بملاءة بيضاء.

قال ثالث: لقد تبوّل على نفسه، وسال لعابه خارج فمه.

قالت امرأة: ألا تلاحظون أن إحدى عينيه أكبر من الأخرى؟

قال آخر: لا تلمسوا الجثة.

ثم حدث فجأة أن حرّك أبّقراط رأسه قائلاً: أنا لم أمت.

فابتعدنا جميعاً عنه في نفس اللحظة، فقد بدا لي كما لو كان أحد أشباح الفيلم المرعب (ليلة الموتى الأحياء).

قال أبّقراط: إذن فإن تلك المرأة المبتذلة من الطابق الرابع تقول إن إحدى عيني أكبر من الأخرى؟... لا تلمسوني يا عصابة أوساخ، إن أحدكم حتماً هو من دفعني لأسقط على السلم، وأنتم جميعاً متآمرون معه ضدي.

كان هناك دمّ على وجهه، وورم أو انبعاج في منطقة أضلاع صدره، كما أن علامات الألم كانت واضحة في تغصّن وجهه. حاولنا أن نقرب منه لنساعده على الوقوف.

قال: لا تلمسوني أيها القتلة، فأحدكم قد ترك قشرة موز على درجات السلم، وأنا أعرف من هو، وسأجعله يندم على فعلته.

نظرنا جميعاً بعضنا إلى بعض. وأراد كلُّ منا على الفور، أن يخلي مسؤوليته تمامًا من الاتهام الموجه إلينا جميعاً، بخصوص موضوع قشرة الموز تلك، ثم قام أبقرات ودخل شقته، وبدأ في إجراء سلسلة من الاتصالات التليفونية بأطباء المدينة، الذين كنا نسمعه وهو يوجه السباب إليهم واحداً واحداً؛ لأنهم لم يفهموا كيف أن شخصاً طبيعياً يمكن أن يسقط وحده، سقوطاً مستمراً على السلالم دون توقّف، من الطابق الخامس إلى الطابق الأرضي.

كان يكرّر عليهم: باسم الربّ أؤكد لكم، أن أحد الأفارقة قد نصب لي فخاً في شكل قشرة موز، وهي ليست قشرة موز من تلك التي نعرفها، بل هي قشرة موز قادمة للتوّ من أفريقيا.

أما أنا فتساءلت، ما الذي جعله يصعد إلى الطابق الخامس؟

هو الآن يضع ضمادات حول جمجمته، ويستنشق على مدار اليوم دواء ما من زجاجة صغيرة.

* * *

من سوء الطالع أن تكون شقتي ملتصقة بشقّة أبقرات، وأن أكون مضطراً إلى الإنصات إلى ضحكته الهازئة طول اليوم، وهو قابع أمام جهاز التليفزيون. صوته يشبه صوت حيوانات الضباع، وأحياناً يشبه صوت زئير الأسد، عندما يهدّد -في التليفون- الطبيب الذي يرفض أن يحضر إلى شقته لمتابعة حالته. أسمع الجار وهو يهدّد الطبيب

بأنه سيسعى إلى شطب اسمه من سجل نقابة الأطباء بالمدينة، ويذكر الطبيب بقسم أبقرات مرارًا وتكرارًا.

فيما بعد كان هذا هو السبب الذي دعانا إلى أن نطلق عليه اسم شهرته الحالي وهو أبقرات.

يقول للطبيب: لا تخنُ القسم الذي يحتم عليك أن تقدّم خدماتك ورعايتك للمعوز والفقير، وإلى أي كائن طالما كان هو في احتياج إليك.

ونظرًا إلى أنه لا يستطيع إهانة جميع أهل الأرض قاطبة، ونظرًا إلى تلاصق شقتيننا؛ فقد قرّر تركيز كل مجهوده العدائي في شخصي أنا، وأطلق نحوي أنا كل ما هو مكبوت بداخله نحو البشر أجمعين. كان من بين ما قاله لي في تلك الفترة، هو أنه يعرف عددًا كبيرًا من سود البشرة، ولذلك فهو يؤكّد أنني أفعل مثلهم، وأضع المحراث أمام البقرة، أي أنني أقلب الأوضاع، وأسيء الحكم على المسائل.

كذلك أكّد لي مرارًا أن قيمتي الإنسانية لا تتعدّى قيمة حبة فول سوداني، أو ثمرة فيجل أو ثلاث حبات من البطاطس، وأن رأسي تشبه شكل ثمرة الكرنب، وأن هذا هو الدليل الأكيد على شدة غبائي، وأحيانًا يقول إن رأسي مليء بحبات الحمص، وإنني من البقوليات مثل الفول واللوبيا، وإن قلبي يشبه ثمرة الخرشوف، وإن هذا هو الدليل على شدة جفافه، وإنني أكل الهندباء البرية بجذورها، وهذا هو الدليل على أنني ميت. لذلك حصلت منه على لقب (سَلَطَة). أحيانًا يدفعه غضبه إلى مرحلة تشبه الجنون؛ هنا يترك جسده يرتطم بالجدران.

ثم بدأ يشتكي من أن الناس يحضرون بأعداد كبيرة لزيارتي في شقتي، ولذلك من المؤكد أن شقتي هي مركز قيادة عمليات اللصوصية الأفريقية، حيث نقوم بتزييف أوراق العملة النقدية، ولا أحد يعرف ما هي مخططات هؤلاء اللصوص الأفارقة.

ثم أضاف أنه من المحتمل أن اجتماعاتنا تلك في شقتي، ليست إلا حفلات جنس جماعي بين الرجال، وبين بعض الحيوانات، حيث تمارس طقوس العردة والتهتك، وتدخين الحشائش الجافة، وأنا بالتالي نسعى إلى ترويج نوع جديد من المخدرات غير المعروف كنهها بالضبط^(٢١).

وتوالت الاتهامات بأننا نحول بنايته هو إلى فوضى تامة، بل إلى بيت دعارة، في حين أنها كانت بناية هادئة، مقبول العيش فيها، قبل الوصول الكثيف للقنّاصة السنغاليين، والمواطنين المحليين لجمهورية الكونغو الكبير إليها.

ثم قال إن المستعمرين الفرنسيين لم يتموا عملهم على الوجه الأكمل، وإنه لهذا السبب يكرههم كراهية الموت؛ إذ كان ينبغي عليهم أن يستمرّوا في جلد الأفارقة بالسياط، حتى يتمّ تعليمهم مبادئ السلوك القويم. ثم قال إن مشكلة المستعمرين الفرنسيين هي أنهم لم يذهبوا أبداً إلى نهايات ما بدأوه.

* * *

الأستاذ أبقرط ليس إلا أحد المستأجرين. ومع ذلك فهو يتصرّف كما لو كان مالكاً للعقار. إلا أن الناس في الشارع، وبعض المتردّدين على البناية، يعتقدون أنه البوّاب، لسبب بسيط وهو أن شقّته تقع في الطابق الأرضي^(٢٢). لذلك فساعي البريد يترك الخطابات والطرود أمام بابه. إلى أن اكتشف السكّان أنه - انتقاماً من ساعي البريد - كان يقوم بإلقاء هذه الخطابات والطرود في مقلب القمامة. قد يكون هذا هو السبب في أن وصل إلى علمه، أنني لم أسدّد إيجار الشهر الأخير، وأنني لم أوّمن على الشقّة ضدّ الأخطار، لدى مكتب التأمينات الذي اختاره هو للتأمين على شقّته، والذي يقع في نهاية شارعنا.

ثم أشاع عني أن شقّتي تصدر منها روائح كريهة، في كل مرّة يجتمع فيها عدد من أصدقائي، ونبدأ في إعداد طعامنا، وننصت إلى موسيقانا القادمة من بلادنا، حتى ننسى -ولو لبعض الوقت- هموم الحياة اليومية، وننعم معاً بالحنين إلى الوطن، وهو مفهوم غريب عنه لا يفهمه؛ لأن بلده هي فرنسا.

ثم يأتي إليّ ليصرخ في وجهي قائلاً إنه فخور بكونه فرنسيّاً أصيلاً، من أصول فرنسية أباً عن جد لأجيال متتالية. استمعت إليه ذات مرّة وهو يتذمّر قائلاً إن فرنسا لم تعد تستطيع استضافة كل بائسي العالم، خاصة من مواطني الكونغو الذين لا يتوقّفون عن الظهور على الحدود الفرنسية، في حين أن لديهم البترول والخشب بكمّيات كبيرة. ثم إن هناك بلاداً أخرى في أوروبا يمكنهم أن يذهبوا إليها، أو عليهم أن يعودوا إلى أكوأخهم المبنية بالطين في بلادهم.

كان عند استدعائه لكل هذه الحماقات، ينظر إليّ نظرة متحدية، وكنا في موقع القمامة، وقلت في نفسي إنه ينوي أن يذبحني هنا لأنه كان مخموراً. لكن على ما يبدو فإنه كان في حاجة إلى احتساء كمية كبيرة من الخمر، حتى يستطيع أن يجد الشجاعة ليخرج كلّ ما في جوفه من قذارات تتراكم داخله منذ مدة طويلة. أحياناً تكون لديّ الرغبة في أن أحطّم رأسه، لكنني بعد الحادثة أدركت أنه لم يكن هناك داعٍ للانتقام منه، فقد قامت السلالم بالواجب، وحطّمت له رأسه.

هناك أناسٌ هكذا، عندما تراهم تظن أنهم في صحّة جيدة، لكن بمجرد أن يهتزّ اتزانهم قليلاً، يذهبون ليخبطوا رؤوسهم في الجدران، ثم يبدؤون في مضايقتك، ويدّعون أنهم تعرّضوا إلى العنف أو إلى الضرب بطريقة متعمّدة، مما قد يعرضهم للوفاة.

وسائل الإثارة تلك التي حاول استعمالها معي، اكتشف هو أنها لم تكن مجدّية في حالتي. لكنه ما زال مستمراً في البحث عن وسائل أخرى لمضايقتي، هو يريد أن يصل الأمر بيننا إلى المواجهة، ولو بواسطة أشياء تافهة، مثل سرقة مماسح الأحذية التي أضعها على عتبة باب الشقّة، أو بإلقاء ثمار فاكهة تالفة أمام باب الشقّة.

وحيث إنني لا مشاكل لديّ على الإطلاق مع أيّ من السكّان الآخرين، فأنا أعرف أنه الفاعل، فليس هناك بين سكّان البناية عداه، من يستطيع الإنيان بمثل هذه الأفعال الخسيسة. ثم إن إصرار الأستاذ أبّقراط على هذا العداء العنيف نحوي، بدأ منذ أيّامي الأولى في البناية. فعندما طلبت رفيقتي السابقة منّي، أن أذهب بقمامة شقّتنا إلى الطابق تحت

الأرضي، حيث موضع تجمع قمامة سكان البناية، نزلت إلى هناك، وفي يدي مصباح صغير، ثم شعرت فجأة بأن هناك من يتنفس في قفائي، وأنه مستمر في المشي خلفي بخطى صامتة، وبمجرد أن استدرت في مكاني، وقعت عيناى على الأستاذ أبقراط.

قال: إذن فإن بلدك هو الكونغو، أليس كذلك؟

هكذا سألني دون أن يوضح لي كيف عرف. أجبت: نعم.

قال: هل شاهدت التلفزيون ليلة أمس؟

قلت: لا لم أفعل لأنني كنت مشغولاً.

قال: آه... يا لأهل الكونغو الفقراء! يجب فعل أي شيء من أجلهم، فهناك الأمراض المستوطنة، وهناك المجاعة، ولكل رجل عدّة نساء يتعاركن فيما بينهنّ طول الوقت. يا للتعساء! ورئيسهم ما اسمه؟

قلت: دنيس ساسو نجيسو.

قال: لا، ليس هذا هو الاسم الذي ذكره في برنامج الأمم، فالاسم الآخر أكثر طولاً، وأكثر إفريقية... أودّ أن أقول إن اسمه يدلّ على الهمجية.

قلت: موبوتو سيسى سيكو لكونكو ويندو وازا بانجا.

قال فرحاً: نعم نعم... هذا هو الاسم، يجب فعل أي شيء لأهل الكونغو التعساء، فإنهم سيموتون جميعاً إما بسبب المجاعات وإما بسبب الإيدز أو بسبب الحروب القبلية.

قلت: الرئيس موبوتو توفّي منذ فترة، ولا بد أنك تعرف أو أنك

شاهدت التقرير، عن جمهورية الكونغو زائير، وعن النظام السياسي السابق للرئيس موبوتو.

قال: لا موبوتو لم يمت، لقد شاهدته في التلفزيون مساء أمس، وهو رئيسكم الحالي، وهو لا يزال في صحّة جيّدة، وكان يلقي خطبة أمام جمهور كبير في أحد ملاعب كرة القدم الممتلئ عن آخره بالناس. بدا لي هذا الملعب كما لو كان هو نفسه الملعب الذي تمّ فيه اغتيال باتريس لومومبا^(٢٣).

قلت: موبوتو هذا هو شرّير ومستبدّ بالرأي، لم يكن يقبل أيّ معارضة، بالإضافة إلى أنه كان يعدّب الشعب الكونغولي في السجون. قال: يجب أن يرسلوا إلى الكونغو بعض الأمريكيين المتخصّصين في التنظيف على الناشف^(٢٤).

(صمت)

قال: إن هذا الرجل موبوتو هو مصدر عار لجنسكم، وأنا لو كنت كونغوليًّا، لأصبحت أنا نفسي ثائرًا متمردًا، ولكنك قد ذهبت لقتال ذلك المستبدّ. هل يعرف رئيسكم موبوتو هذا أي شيء عن الديمقراطية؟ إنه يبيع ألماظ الكونغو في أوروبا ويشترى بثمنه القصور! هل هذا شيء طبيعي؟

وحيث إنني لم أعترض، فقد استأنف الأستاذ أبقرات كلامه.

قال: وأنت بصفتك كونغوليًّا، قبلت بنذالة أن تستقر في أوروبا، ماذا تفعل أنت هنا بالتحديد من أجل أهل بلدك الفقير البائس؟ بلدك حيث

توجد الأمراض والمجاعات، والرجال المتزوّجون من نساء عديدات،
اللائي يتقاتلن فيما بينهنّ طول الوقت، ماذا فعلت أنت؟

قلت: أنا لست من الكونغو الجنوبي البلجيكي ليوبولد فيل الكبير
المساحة، بل أنا من الكونغو الشمالي الفرنسي برازافيل الصغير
المساحة^(٢٥).

قال: لا إن برنامج الأمس لم يذكر هذا. أنا متأكد أن البرنامج كان
عن الكونغو الذي أتيت أنت منه، ورئيسه الحالي هو صاحب ذلك
الاسم الطويل الذي ذكرته أنت لي للتو، وهو الشخص الذي يضع
نظّارات على عينيه، وقبّعة من جلد الفهد فوق رأسه، ثم هو يمشي وفي
يده عصا يتعكّز عليها. هل تريد أن تقول لي إنك لا تعرف رئيسك؟ إنها
فضيحة بكل المقاييس، لقد قلت لك إنني شاهدته بعيني هاتين أمس في
التلفزيون.

* * *

منذ الزمن الذي كنّا نعيش فيه معاً، أنا ورفيقتي السابقة وابنتنا، فإن
الأستاذ أبّقرات يراقبنا، من خلال العين السحرية لباب شقّته، بمجرد
حدوث أي حركة، أو صدور أي صوت، في الممر الواصل بين عتبتينا.
كنت أعرف هذا لأنني كنت أسمع وقع خطواته خلف بابه. بالإضافة
إلى محاولاته الفاشلة في إخفاء صوت تنفّسه، الذي يشبه صوت تنفّس
فصيلة الضفدعيّات، من طائفة الحيوانات البرمائية. وعندما وُلدت
ابنتنا، أراد أن يعرف إن كان المولود طفلاً واحداً أو طفلين توأم؛ بحجّة

أن الضوضاء الناتجة عن طفل واحد أقل إزعاجًا من الضوضاء الناتجة عن طفلين.

ثم ذهب إلى مالك العقار يدّعي البكاء، زاعمًا أن هناك زمرة من الأفريقيين ينشرون الفوضى في البناية، وأنهم حوّلوا المكان إلى عاصمة استوائية، وأنهم يذبّحون الديوك، ويجمعون دماءها في الساعة الخامسة صباحًا، وأنهم يدقّون على آلات الطمطم الإيقاعيّة طوال الليل، ويرسلون بتلك الإيقاعات رسائل مشفّرة مبهمّة، إلى الجنّ والعفاريت الذين يسكنون أحراش غاباتهم، طالبين منهم الأعمال السحرية، التي يمكنها أن توقع فرنسا في مصير مظلم.

وخلّص إلى أنه يجب على السلطات الفرنسية، إعادة هؤلاء السحرة إلى بلادهم؛ وإلا فإنه لن يدفع الضرائب، ولن يدفع إيجار الشقّة، وإنه سيذهب إلى قسم شرطة الحيّ لعمل بلاغ بذلك. وإن هؤلاء الأفارقة لن يكون لهم الحقّ إلا في تذاكر ذهاب فقط بالطائرات إلى بلادهم الأصلية، وبلا تذاكر عودة، على خطوط الرحلات (الشارتر) غير المنتظمة، حتى لو كان ثمن تشغيل هذه الطائرات هو على حساب دافعي الضرائب الفرنسيين.

تقبّلت منه كل هذا الهذيان، ولم أعلّق عليه بأي شيء، لأنهم علّمونا في بلادنا أن نحترم كبار السنّ، خاصة عندما تصبح شعور رؤوسهم رمادية اللون، كما هي حالة الأستاذ أبّقراط. كانت تعليقاتي على ما يقوله هي فقط من نوع ”إنني أتفق معه“، أو ”إذا كان الأنف الأفريقي أفتس، فإن ذلك يسهّل وضع العوينات عليه“، أو ”ليس بالخبز وحده

يعيش الإنسان الأسود، بل كذلك بالبطاطا والموز“. وحيث إنني لست من النوع الذي يهوى الخصام مع البشر، قلت في نفسي إنني يجب أن أنتقل من هذا السكن إلى سكن آخر.

وبعكس رفيقتي السابقة التي كانت تكره الضواحي، أنا كنت أحبها، وكنت مستعداً للانتقال إليها والإقامة فيها. ولكنني لم أرغب في العودة إلى منطقة (شاتو دو) التي كنت أقيم فيها، مع عدد من مواطني الكونغو، قبل أن أنتقل منها إلى مشاركة رفيقتي السكن في شقتها. ففي الحياة يجب احترام مبدأ عدم العودة إلى الخلف. لذلك زرت عدداً من الشقق الصغيرة المناسبة، لكنني لم أجد تلك التي تستهويني من النظرة الأولى. بالإضافة إلى صعوبة وضعي المالي؛ فحتى يوافق صاحب الشقة الجديدة على تأجيرها لي، يجب أن تكون معي إيصالات قبض شهرية بمرتب مرتفع، أو أن أعثر على ضامن^(٢٦)، وأنا لا أعمل إلا نصف الوقت وبنصف مرتب، لا يكفي لدفع إيجار شقة.

لكل ذلك، لم أعرف كيف سأتمكن من مغادرة الشقة للهروب من أبقرات، لكنني قرّرت مبدئياً ألا أتكلّم معه أبداً بعد ذلك. ربّبت نفسي بحيث أن أعود ليلاً إلى الشقة، بعد أن يكون هو قد نام. فإذا حدث بالصدفة، أن تقابلنا على السلم، أو في موضع تجمع القمامة، فإننا نتبادل نظرات عدائية متحدّية. ثم يبصق هو على الأرض ويصرخ:

- أيها الصنف الكونغولي، زوجتك هجرتك، عُد إلى بلدك.

فإذا كنت شريراً مثله، لأمكنني منذ مدة طويلة أن أردّ عليه قائلاً:

- أيها الصنف المارتينيكي^(٢٧)، عُد إلى بلدك.

(٢)

عندما أفحص خطوط وجهي في المرأة، أقول لنفسي إنني لست قبيحًا كرجل. لكني لا أعرف كيف أقارن نفسي بالمغني الجوال، الذي أخذ مني رفيقتي السابقة وابنتي. فما بيني وبينه هو ما بين النهار والليل. فأنا رجل ضخم الجثة، متناسق الأطراف، في حين أنه قزم، يمكن أن يمر أمامك دون أن تراه، وإذا لم تكن حريصًا أثناء المشي، يمكنك أن تطأه قدمك، وتدوس عليه، معتقدًا أنه حيوان من ذوات الأربع، لا ذيل له. أنا جميل، وفي وجهي شاربان صغيران، أما هو فيمكن الاعتقاد في أنه أحد الحيوانات البدائية، التي فاتتها فرصة التحوّل إلى الجنس البشري. وهكذا فإن لقب المهجّن الذي أعطيته له يليق به جدًّا، كما لو كان اللقب قفازًا يدخل فيه يديه.

أما فيما يتعلق بطريقته في ارتداء ملابسه، فهي الكارثة. هل هو يعتقد أن كونه فنانًا يبيح له ارتداء الملابس بهذه الطريقة؟ إنه مثل خيال المآة. أنا أعرف فنانين كثيرين، يكونون دائمًا في كامل أناقتهم، ويضعون عوينات سوداء؛ حتى لا تستطيع أن ترى أين ينظرون. ولمزيد من الأبهة، يحملون في أيديهم مراوح ورقية، يروّحون بها عن أنفسهم.

موضوع أسلوب ارتداء الثياب هو أحد الموضوعات التي لا أقبل فيها أي مزاح، حتى إن أصدقائي في حانة جيبس يعرفون عني هذا، بمن فيهم روجيه الفرنسي الساحل عاجي. وأنا لا أقول هذا لأمدح نفسي، بل هي الحقيقة التي لا افتراء فيها.

كل ملابسني تُخاط على مقاسي في إيطاليا، وبالتحديد في مدينة بولونيا، حيث أذهب لأشاهد أفضل إنتاج أكبر محلات الأزياء، وأقف أمام قطع الملابس واحدة واحدة، خاصة في المحلات التي توجد أسفل بوائك المدينة القديمة، وعندما انتقلت للإقامة في شقة رفيقتي الضيقة، لم أعرف أين أضع كل هذه المعاطف والسراويل والأحذية، التي لا أزال أحتفظ بها في ست حقائب كبيرة.

أغلب أحذيتي مثلاً هي من طراز *Weston*، وهي من جلد التماسيح أو ثعبان الأناكوندا، وبقية أحذيتي هي من طرز إنجليزية مشهورة، مثل تشيرش أو باون.

أما إذا كنت دائماً أصبر على ارتداء البذلة وربطة العنق؛ فذلك لأنني مقتنع بضرورة استمرار الإحساس بالأناقة، كما ينبغي أن يفعل كل المنتمين إلى جمعية الرجال المتأنقين التي تأسست في برازافيل، في حيّ باكونجو، في ميدان محطة بنزين (توتال)^(٢٨)، وأنا أنجّب كل جدل كلامي يمكن أن يثيره هذا الموضوع، عندما أقول إننا نحن الذين صَدّرنا الملابس الأنيقة إلى باريس. هذا إقرار مني بذلك، ولا أقبل أن يقول لي أي شخص إن ما حدث هو العكس، فالأناقة لم تذهب من باريس إلى برازافيل.

أقول قولي هذا وقد لاحظت، أن الأنبياء الكذبة يتكاثرون بمعدلات مرتفعة في الآونة الأخيرة؛ ففي شوارع مدينة النور، أصبح من الصعب جداً، التمييز بين البذرة الصالحة والبذرة الطالحة. لا شك أنني سأجد أناساً يقولون لي إنه ليس فقط رجال الكونغو الذين يحسنون ارتداء ثيابهم، بل هناك كذلك رجال ساحل العاج والكاميرون. ومع ذلك فهم لم يبدأوا في الاهتمام بمسألة الثياب إلا في وقت متأخر بالمقارنة بنا، نحن رجال الكونغو؛ خاصة بعد أن ضجّوا بالشكوى من ظاهرة أن نساءهم تتركهم وتجري خلفنا.

هم اعتقدوا وأشاعوا، أن السبب في تلك الظاهرة، هو استعمالنا للأحذية الويستون والمعاطف الفرساتشي *Versace*، وأنا أقول لكم إن رجال الكاميرون وساحل العاج البائسين اليائسين، عندما يرتدون ملابس مثل ملابسنا، نحن رجال الكونغو العظماء، يظلّ الفرق بيننا وبينهم مثل الفرق بين الليل والنهار؛ وذلك لأن الرجل الكونغولي الأنيق، يتفوق على كل من عداه؛ بفضل لمساته الخاصة التي لا يمكن لأحد غيره تقليدها. هذا ليس تعصباً وطنياً لأهل بلدي، وإنما هذه هي الحقيقة الناصعة البياض، الصعبة التصديق. وأنا لا أستطيع أن أفيد رجال ساحل العاج والكاميرون بأي شيء.

عليهم أن يستمرّوا في محاولة تجريب ماركات أخرى للملابس، مثل سترات الكتّان من إنتاج إيمانويل أونجارو، التي تندعك بخفة وأناقة، أو سترات قماش الرجال من إنتاج فرانشسكو سمالتو، أو سترات من الصوف الخالص النقي مئة بالمئة من إنتاج شيروتي ١٨٨٤،

مع الأحذية الجاكار، وأربطة عنق من الحرير، عليها رسومات برج إيفل أو قوس النصر. هذه هي بعض الأشياء الموجودة في حقائبي، هذه هي بعض أسرارتي ولمساتي الخاصة.

ثم إنني معجب بشكل خاص بياقات القمصان الإيطالية، التي تحتوي غالبًا على أكثر من زرار، لأنني أحب أن أشعر بها وهي تحيط بعنقي، قائمة مزدوجة وغير قابلة للكرمشة. قل لي كيف تعقد ربطة عنقك أقل لك من أنت، بل أقل لك من تعاشر وتخالط، لأن الطيور على أشكالها تقع. إن الناس الذين يظهرون على شاشات التلفزيون لا يعرفون كل هذا. هم يشترون أربطة العنق من أول محلّ يقابلونه، ثم يجروون على الظهور بسحناتهم على الشاشات أمام فرنسا كلها، بما في ذلك جزيرة كورسيكا وإمارة موناكو.

هذا لم يعد من الممكن قبوله. أنا عندما أشاهد نقاشًا حادًا على الشاشة، أستطيع فقط بالنظر إلى ربطات أعناقهم، أن أفهم السلوك النفسي للأشخاص. يحدث هذا نفسه عندما أذهب إلى حانة جييس، فعندما يشتدّ الجدل بين بعض الأشخاص، أنفجر أحيانًا ضاحكًا بصوت مرتفع سخريّة منهم، لكنني أشعر أحيانًا بالتعاطف مع هؤلاء الأغبياء، وأمسك نفسي بصعوبة عندما أكون راغبًا في الذهاب إلى كلّ منهم، لأهزّ كتفيه بعنف، حتى يفيق من غيبوبته، ولا يتجاهل تفاصيل بسيطة جدًّا، ولكنها كذلك هامة جدًّا، مثل كيفية عمل ربطة العنق. خذ عندك هذه الأمثلة:

- بشكل عام لاحظت أن من يعاني من الخجل المرضي، يشدّ ربطة

عنقه إلى أقصى متنهاها، ونحن -فئة الرجال المتأنّقين- نطلق على هذا النوع من الناس لفظ (المنتحرين).

- أمّا البشر الذين هم على درجة من فظاظة الأخلاق، ونطلق عليهم لفظ (القوّادين)، فيرفعون الرّبطة حتى تصل إلى مستوى الحلق.

- هناك كذلك طائفة المدّعين، المغرمين بالتظاهر بما ليس فيهم، فيضخّمون أربطة أعناقهم، ونحن نطلق عليهم لقب (أغطية حلل الطبخ).

- أما أولئك الذين نصفهم بـ(الثيران)، فهم بلا مظهر مميّز، وتكون لديهم أربطة عنق تشبه عظمة ظهر الحمار، وهم لا يدركون مدى قبح منظرهم، حتى يحدث ذات يوم أن تقول حبيبة الواحد منهم له الحقيقة، بسبب إحساسها باليأس منه.

- والثرثارون ونسمّيهم (العصافير)، يتركون أربطة أعناقهم غير معقودة.

- تأتي بعد ذلك طائفة المتقشّفين المترمّتين أخلاقياً، ومعهم طائفة الموسوسين شديدي التدقيق، ونحن نطلق عليهم لقب (الآباء الكهنة)، فشغلهم الشاغل هو ألا تتحرك ربّطات أعناقهم، وهم يقضون النهار بأكمله، وهم يعيدون ضبط وضع أربطة أعناقهم، في أماكنها على صدورهم.

- أما الأزواج المخدوعون، فعقد أربطة أعناقهم تميل إلى ناحية من ناحيتي الصدر، وأحياناً تكون العقدة مقلوبة. هل ينبغي هنا أن أشير

إلى أنني لا أنتمي إلى طائفة الأزواج المخدوعين، وذلك لأنني لم أكن متزوَّجًا من رفيقتي السابقة.

- وأخيرًا هناك طائفة الأنانيين، الذين لا يحفظون الجميل، ولا يعرفون الامتنان، ونحن نسميهم (الديدان)، وهؤلاء لا يحلّون العقد عند خلع الملابس، بل يحتفظون بها معقودة كما هي دون تغيير، وغالبًا يكون من عقدها لهم -لأول ولآخر مرّة- هو البائع الذي باعها لهم؛ لأنهم غالبًا لا يعرفون كيف يربطونها، ثم إنهم لا يغيّرون عقد أربطة أعناقهم حتى تتلف تمامًا.

وهناك من الأرواح الماكرة تلك التي لا تصدّق أن الرداء هو الذي يصنع الراهب، هؤلاء هم الذين لم يفهموا شيئًا؛ فلو لم يكن الرداء هو الذي يصنع الراهب، فعلى الأقلّ يمكننا بالرداء الذي يرتديه الراهب أن نستدلّ عليه.

وفي بعض الأحيان يمكن للرداء أن يتسبّب لصاحبه في المشاكل، وقد جاءني الدليل على هذا في المرّات القليلة التي اعتبرني الناس فيها شخصًا آخر. وقد سبّب لي هذا قدرًا لا يستهان به من الإحساس بالمهانة والتحقير، وهو ما لم أنسه أبدًا.

كان هذا قد حدث لي ذات مرّة عندما كنت في محطة قطارات الشمال في باريس، لا جاري نور^(٢٩)، وكنت أريد الذهاب إلى منطقة لاكورناف (الفناء الجديد)، حيث يقيم ابن عمّ لي، كان قد دعاني لحضور حفل لديه، وكنت أعرف أنه قد وجّه الدعوة كذلك إلى عدد من رجالات المجتمع الباريسي الأسود. من واقع سابق خبراتي، يكون

هدف الجميع عند حضور مثل تلك الحفلات، هو استعراض أحدث الأزياء الباريسية التي تمكنوا من الحصول عليها، لذلك كان على الجميع الذهاب بأحسن ما لدى كل منهم من ثياب، بالإضافة طبعاً إلى حلاقة الشعر والذقن، ووضع العطور المناسبة.

وعندما يصل جميع المدعوين الرجال، ينظر كل منهم إلى الآخرين بغضب وبعداية؛ كأن كلاً منا يقيس الآخرين طولاً وعرضاً، بالنظر إلى التنافس الذي حتماً سيقع بين الجميع، على ما يعتبر الهدف غير المعلن لمثل هذه السهرات؛ إذ يبدأ جميع الرجال في تفحص الأركان الأربعة للمكان، حجرة حجرة، وقاعة قاعة، بحثاً عن الوجوه الجديدة، الفتيات الجديديات اللاتي وصلن للتو من البلاد، لمعرفة إن كانت واحدة منهن تستحق أن ينتظر الرجل -من أجلها- اللحظة المناسبة للانقضاض. فهؤلاء الفتيات عندما يهبطن لأول مرة في حياتهن أرض باريس، يكنّ في حالة من الفطرة الطبيعية؛ تجعلهن أقرب شبهاً بالغزالات المتوحّشات. في مثل هذه الحالات، يجب ألا يُترك للواحدة منهن الوقت الكافي، حتى تفهم طريقة استعمال مترو الأنفاق، وتفهم إلى أي منفذ خدمة اجتماعية عليها أن تذهب؛ حتى تحصل على إعانات مالية. فإذا ترك لهنّ الوقت الكافي، فإنهنّ يصبحن من بين الأسباب التي تؤدي لاحقاً إلى المزيد من الحفر في عمق ثقب التأمين الصحيّ.

يجب إذن أن توضع عليهنّ الأيدي سريعاً؛ قبل أن يستطعن البدء في إدراك هذه الأشياء، وقبل التخلّص من لهجتهنّ القروية الساذجة التي يأتين بها من البلاد، ويستعملن لهجة الازدراء الباريسية المتعالية. بعد

ذلك تأتي خطوة لا مفرّ منها، وهي رفضهن الخروج في مواعيد، إلا مع الرجال البيض، الذين يتعاملون مع الفتيات السود في البداية بأسلوب جذّاب، ثم على الفور بأسلوب بغيض، وهو الأسلوب الذي يجعل الرجل الأبيض يتخلّص من الفتاة السوداء بعد استعمالها، كما لو كانت منديلاً ورقياً يلقي به في القمامة، مثل تلك المناديل التي يبيعها عربي الناحية. أريد أن أقول إن هذا هو ما يحدث بشكل متكرّر. ولكن يبدو أن الفتيات يحبن هذا التكرار.

عندما يذهب الواحد منا إلى مثل تلك السهرات، فهو لا يعرف ما الذي سيخرج به منها. قد يكون الواحد منا سعيد الحظ، فيخرج ومعه غزالة مدهنة شهية طازجة، هبطت قبل فترة وجيزة أرض باريس. في مثل تلك السهرات، إذا كنت متزوّجاً، أو لديك رفيقة، فلا تصطحبها معك إلى هناك، فلا أحد يذهب إلى مطعم وفي يده ساندويتش. لذلك في كل مرة كان ينبغي عليّ اختراع المزيد من القصص، حتى أقنع رفيقتي السابقة أنه من الأفضل لها البقاء في المنزل.

كنت مثلاً أقول لها إنها ستملّ السهرة إلى حدّ الثأوب، وإنها لن تجد شخصاً واحداً تتحدّث إليه، أو تفهم ما يقوله لها؛ فبمجرّد أن نضع مجموعة من الكونغوليين معاً في أحد الأركان، يبدأون على الفور في الحديث بلهجاتهم المحليّة التي لا يفهمها غيرهم، والرّبّ وحده يعلم عدد اللهجات المحليّة التي لدينا في الكونغو، حتى إنني أتساءل كيف يتفاهم الناس الذين يعيشون معاً هناك، في برج بابل ذلك المعاصر الذي يسمّونه الكونغو.

هذا بالإضافة إلى أن رفيقتي السابقة لم تكن تشرب الخمر، لذلك كنت أضيف قائلاً إنهم لا يقدمون إلا الخمر، ولا يقدمون عصائر الفواكه، ولا حتى عصير البرتقال، وحتى الماء لا يقدمونه، فهم يعتبرون أن احتساء العصائر أو الماء أمامهم، هو نوع من الإهانة لهم. وبالتالي كانت تتراجع من نفسها عن مصاحبتني.

في ذلك اليوم كنت قد نجحت من جديد في إقناعها ببقائها في المنزل، بعد أن استغرقت مني مجادلتها في هذا الموضوع، طوال فترة ما بعد الظهيرة، مثل أي بائع متجول يحاول أن يبيع بضاعته، لكنني كنت أعيد بلا توقف النظر في ساعة يدي، وهو ما جعلها تشعر بالقلق.

قالت: لماذا أنت متعجل هكذا؟ رغم أنها - كما تقول - مجرد واحدة من تلك السهرات العادية التي يتحدث فيها الكونغوليون بلهجاتهم المحلية التي لا يفهمها غيرهم.

كنت أدور داخل شقّتنا الصغيرة، أبحث في حقائبي عن أفضل ما يمكن ارتداؤه لهذه السهرة. فتحت كلّ حقائبي، وفردت كل ما بها على الأرض، وفوق الفراش، حتى وقع اختياري على سُترَة من اللون الأخضر عليها توقيع إيف سان لوران. عند خروجي من البناية، خرج التاجر العربي من متجره، ليشاهد البذلة التي أرّديها، منجذباً إلى رائحة العطر الذي وضعته. حيّاني من بعيد، رافعاً إصبع إبهامه إلى أعلى. رددتُ عليه بابتسامة. مشيت في شارعنا باتجاه محلات الصينيين والباكستانيين، لأصل إلى محطة قطار الأنفاق (ماركس دورموي).

* * *

من الجائز أنه كان من الأفضل لي، أن آخذ في ذلك اليوم سيارة أجرة، لكنني فكّرت: لماذا أحرم نفسي، من نظرات الانبهار في أعين الآخرين من راكبي قطار مترو الأنفاق؟ عندما وصلت إلى محطة قطارات شمال باريس، بدت لي المحطة من الداخل، كما لو كانت موقعاً لصراع عنيف على البضائع، في سوق كبير، عشية الإعلان عن الحرب العالمية الثالثة. كان الناس يجرون في كلّ اتجاه، وكان آخرون يقفون وهم يثبتون أنظارهم، على اللوحة الكهربائية الضخمة التي تعلن عن مواعيد وصول ومغادرة القطارات للمحطة، وعلى أي أرصفة، وإلى أيّ المدن يتجه كل قطار منها. لقد وقعت في الفخّ دون أن أدري؛ فقد كان هناك في ذلك اليوم في باريس إضراب عام في جميع وسائل المواصلات.

تمكّنت من الوصول إلى رصيف القطار، باستعمال كوعي في توسيع الطريق أمامي، وكانت حشود البشر تكاد تخنق، إلا أن أحداً لم يرد ترك مكانه والخروج من المحطة. والسبب في ذلك هو أن الناس يعرفون أنه في أثناء مثل تلك الإضرابات يحدث، في اللحظة التي تقرّر فيها مغادرة مكانك على الرصيف وترك المحطة، أن يحضر القطار الأخير، الذي يمكنك أن تأخذه وتعود به إلى منزلك.

الكل يعرف أنه في مثل هذه الإضرابات، ليست هناك مواعيد محدّدة أو معلومات مؤكّدة، خاصة فيما يتعلّق بقطارات الضواحي^(٣٠)، بل تبدو المسألة كما لو أن رجال السكك الحديدية المضربين، يتلاعبون بأعصاب الركّاب؛ حتى يجعلوهم يشعرون بقيمة قطارات الضواحي،

وبقيمة رجال السكك الحديدية العاملين فيها، بل أستطيع أن أدّعي أن الرسائل المذاعة عبر السماعات الداخلية للمحطة، إما أنها غير مفهومة، وإما أنها تذيع معلومات مضلّة.

فواحدة من هذه الرسائل كانت تقول للركّاب، إنه ينبغي أن يخرجوا من محطة القطارات، وأن يعبروا ثلاثة شوارع رئيسية في باريس، هي شوارع ماجنتا ولافايت وستراسبورج، حتى يمكنهم العثور على محطة سيّارات النقل العام، على الخطّ الوحيد غير المضرب لهذا اليوم. هذه الرسالة هي نوع من التعذيب للركّاب والتنكيل بهم، فكيف يطلبون من هؤلاء المئات من الركّاب، أن يستعملوا خطأً واحدًا لسيّارات النقل العام، للذهاب به إلى كل مناطق شمال شرق باريس؟ يبدو أن موظفي النقل العام غاضبون جدًّا من سوء أوضاعهم الوظيفية.

لاحظت أن الناس داخل المحطة لا يتوقّفون عن متابعتي بأنظارهم، وقلت في نفسي إن هذا هو من دلائل إعجابهم بسترتي وبحذائي، وبفضل رائحة العطر التي تفوح من ملابسي. لهذا عدت إلى مراجعة وضع ربطة عنقي، وإلى ضبط السروال بحيث يسقط بشكل أنيق على الحذاءين. ثم فتحت ثلاثة من أزرار السترة، حتى يبدو بوضوح تام للأنظار حزام الوسط وعليه اسم كريستيان ديور.

ثم فجأة اندفع رجل خارجًا من كتلة الحشد المزدحمة، بنفس أسلوب الاندفاع الذي يستعمله لاعب في فريق راجبي rugby عندما ينفلت وحده بالكرة، رغم التضيق عليه من أفراد الفريق الخصم. لاحظت أن على جسده وملابسه قذارة، جعلتني أتخيّل أنه يهرب من

أحداث رواية (ثلاثية هافانا القذرة) للكاتب بدرو خوان جوتيريز Gutierrez، وهي الرواية التي استعرتها من صديقي الكاتب الهايتي لويس فيليب، وأقرأ فيها منذ بضعة أيام أثناء استعمالي وسائل المواصلات. اقترب الرجل منّي ثم باغتني:

قال: أيها السيّد لماذا أنت مضرب عن العمل؟ ألا تعتقد أنكم قد تجاوزتم الحدّ؟ أنتم لديكم كل المزايا الاجتماعية، ومع ذلك فأنتم تفسدون حياة الفقراء من مستعملي وسائل المواصلات، ثم نجد من يشتكي من أنه ليست هناك وظائف كافية في فرنسا، رغم أن الوظائف العامة في الجهاز الحكومي ممثلة عن آخرها بمن يجلسون في مكاتبهم، ولا يفعلون أيّ شيء. أنتم أشبه بالحشرات المفترسة التي تلتهم النباتات. هل يسعدك أن يؤخذ الناس الفقراء هكذا رهائن في وسائل المواصلات؟ أقول لك إنه ينبغي تنظيف كلّ الجهاز الحكومي، خاصة جهاز قطارات السكك الحديدية، بالمطهّرات والصابون السائل. يجب أن يُرَفَّت جميع المغفّلين من وظائفهم، هؤلاء الذين بدلاً من التواجد خلف نوافذ مكاتب حجز التذاكر، أو التواجد في مكاتب تنظيم التحكّم في القطارات، يدورون هكذا في الشوارع حول محطات القطارات بلافتات الاحتجاج؛ للمطالبة بالمزيد من المزايا الوظيفية التي لا يستحقّونها. الآن قل لنا ما هو موعد القطار التالي إلى الضواحي الشمالية؛ لأن شاشات الإعلان عن المواعيد لا تعمل، ويمكنك أن ترى هذا بنفسك.

في تلك اللحظات التي ألقى فيها عليّ هذه الخطبة العصماء، لم

أفهم لماذا يتوجّه لي أنا بها، ولم أفهم لماذا بدأ الناس المتجمّعون حولنا يصرخون في وجهي، قائلين إن من هاجمني للتوّ محقّ تمامًا، في كلّ ما تفوّه به. قالوا:

- إنكم في إضرابات مستمرة ٢٩ يومًا في الشهر.
- لقد اكتفينّا من مثل هذه السخافات.
- أنتم عصابات من الكسالى والتناولة.
- خذوا معاشات مبكّرة، واخرجوا من الخدمة.
- اتركوا أماكنكم لشباب يريد أن يعمل.
- ماذا تفعل أنت هنا على رصيف القطارات، إذا لم تكن تستطيع أن تحضر لنا قطارًا؟

وحيث إنني بقيت صامتًا، فقد اختفى وسط الزحام، ذلك الرجل العصبي الذي كان أوّل من هاجمني، بعد أن وجّه إليّ كلّ الإهانات الممكنة، التي كان من الممكن أن تثير أعصاب شخص آخر غيري، يكون لديه وقت فراغ، يسمح له بتعداد فضائل الجنس الزنجي. تطلّبت مني مسألة معرفة سبب هجومهم عليّ بعض الوقت، عندما رأيت أحد موظّفي قطارات الضواحي، وأدركت أنني أرثدي سترة لها نفس اللون.



(٣)

كانت رفيقتي السابقة هي إحدى فتيات وطني، لأب وأم من الكونغو، لكن لأنها ولدت في مدينة نانسي بفرنسا، فيمكن أن نقول إنها فرنسية إلى حدٍّ ما. هي لهذا السبب لم تكن تستطيع أن تفهم تمامًا، بعض سلوكيات الرجال القادمين من الوطن، عندما يبدأون في الصباح بأصوات مرتفعة، في كبائن تليفونات شوارع شاتودو^(٣١) أو شاتوروج، فهم يعتقدون أنهم لو لم يصيحوا بأعلى أصواتهم هكذا، فإن الأشخاص الذين يتحدثون إليهم على الطرف الآخر من الخط، لن يتمكنوا من سماعهم. كانت رفيقتي السابقة تجنّ من الغضب، وتقول إنها لم تعد تحتل تصرّفات هؤلاء الناس.

كانت فكرتها تلك عن التصرّفات الهمجية للأفارقة الكونغوليين، تتفق مع رغبتني في منعها من الذهاب معي إلى السهرات الخاصة بالمجتمع الزنجي في باريس؛ حيث كنت أصطاد بلا رحمة غزالة متوحّشة، من بين قطعان الغزالات المتوحّشة، التي كانت تهبط باريس في شكل مجموعات منهن. كنت أقول لها بصوت يتشاكى:

- هناك حفل كونغولي مساء الغد، في (جارج لا جونيس)، وهو ليس حفلًا جذابًا، لكنني مضطر للذهاب إليه، فقط لإثبات الحضور، حتى يتوقفوا عن إصاق تلك التهمة السيئة بي، إنني مواطن انغولي لا أتعاون مع أهل بلدي في الغربية، وهي لو تعلمين تهمة خطيرة، لأنني يوم وفاتي لن أجد أحدًا من الكونغوليين في جنازتي، ولن يجمعوا فيما بينهم النقود، لإرسال جثمانني إلى الوطن ليدفن فيه. كنت أودّ لو تمكّنت أنتِ أيضًا من الحضور، لكنك حتمًا ستصابين هناك بملل قاتل، فستكون هناك قبائل عديدة، مثل البمبيه واللاري، تتحدّث فيما بينها بلغات عديدة، وأفرادها همج، يأتون مباشرة من أعماق الغابات، حيث يعيشون دون كهرباء، وأؤكد لك أنهم سيتصايحون طوال الليل، حتى يشتكي الجيران ويأتي رجال الشرطة للتحقيق، وهؤلاء الهمج أثناء مغادرتهم المكان سيتبولون عند مدخل البناية. هذا بالإضافة إلى أن كلاً منهم سيدخّن عشر علب سجائر في الساعة الواحدة، وحيث إنك حامل فكّرت...

هنا تقاطعني بحدّة: اسمع، اذهب وحدك لرؤية إخوتك... ولا تعتمد عليّ في شيء من هذا، وإلا فإنني سأقول لهم كل ما أعتقد حقيقته فيهم، وفي سلوكياتهم الفظة... كيف يمكنهم التبول عند مدخل البناية؟ كانت لنا - أنا وهي - مناقشات جادة، فيما يتعلّق بالمسألة الزنجية؛ إذ كانت لديها ما تعتبره حقائق أخلاقية جامدة غير قابلة للنقاش، أما أنا، فكنت أتعمد الذهاب إلى الجانب الهزلي الساخر، حتى أصل إلى تحقيق هدفي، وهو الذهاب وحدي إلى تلك السهرات. إلا أنها كانت

أحياناً تعتنق بعض الأفكار التي تدلّ على نقص وعي حاد بالتاريخ، فهي مثلاً كانت تعتقد أن الشعوب الأفريقية الناطقة بالفرنسية، كانت هي الأخرى من أحفاد الجولوا الأوائل^(٣٢) من القرون الأولى للميلاد.

لذلك اضطررت أن أخبرها، أن ذلك الطرزان الأشقر الشعر، صاحب العضلات البارزة، الذي يقفز بسهولة بين أفرع الأشجار في صحبة الحيوانات المتوحّشة، الذي أحبّه منذ طفولتها، لم يكن في الحقيقة ملكاً على غاباتنا، حتى تان تان الشاب اللطيف الذكي الشجاع، بتصفيفة شعر رأسه البارزة إلى الأمام، لم يقصّ في مغامراته إلا الأكاذيب عن الكونغو، لأننا إذا أردنا أن نكون موضوعيين ومنصفين، هل أنا وأنتِ نشبه الزوج الذين نراهم في الروايات المصوّرة لمغامرات تان تان في الكونغو؟

هم في تلك الرسوم ألصقوا بالزنجوج الصورة التقليدية التي تبنّاها المستعمر لهم، بشفاه وردية اللون غليظة منقلبة إلى الخارج، حتى إن هناك في بعض كتب التاريخ، التي كان المستعمر يقوم بوضعها في مناهج أبنائه في مدارس فرنسا وغيرها من الدول الاستعمارية، نجد معلومات خاطئة مضلّلة -مقصود بها الإساءة إلى الإنسان الأسود- عن أن الشعوب الزنجوجية لم تستكمل تماماً تطوّرها الطبيعي، من مرحلة القرودة العليا مروراً بالطفرة إلى مرحلة الإنسان، مثلما فعلت بقية شعوب الأرض، وأن الزنجوج الأفريقيين لا يزالون يحكّون جلود ظهورهم بأظافر أقدامهم.

لكن رفيقتي السابقة لم تكن تقتنع بكلامي بسهولة، بل تظنّ

تعارضني وتجادلني لفترات طويلة. كانت فكرتها السيئة عن الأفريقيين الذين لم يغادروا أفريقيا، قد تكونت من قراءتها لكتب، وضعها مؤلفون بيض بين حملتين استعماريتين، فيها حكايات عن معارك خسرها البيض ضد زعيم أفريقي اسمه شاكا زولو، كان يتسلّى بإيقاع البيض في أفخاخه، مستعيناً بتقنية الأرض المحروقة.

كانت تحدّثني عن أكواخ من الطين المضروب، وأكواخ معلقة فوق أفرع الأشجار، وعن مناطق مستنقعات يمكنها أن تبتلع هذه الأشجار بمن عليها من السكان، وعن حيوانات متوحّشة طليقة تلتهم البشر، وعن التراب الأحمر الذي يدهنون به بطون الأطفال المتنفخة؛ بسبب إصابتهم بأمراض سوء التغذية الكواشي أوركور؛ لأنهم يعتقدون في قدرة هذا التراب على الشفاء، وعن أنواع السحر الأسود الذي يمارسه الأفريقيون، التي يمكنها أن تحوّل الجسد البشري إلى جسد غير مرئي.

كنت أجيها بأنني لم أعش أبداً وسط مثل تلك الظلمات، وأن بعض الأفريقيين لم يروا الغوريلا أو حتى الفيل طليقاً، ولو مرة واحدة في حياتهم، بل رأوا هذه الحيوانات فقط في حدائق حيوانات المدن الأوروبية التي يعيشون فيها، أو في الأفلام السينمائية مثل فيلم كينج كونج. لذلك لا يجب أن تتخيّل أننا كنا نذهب إلى المدرسة وفي أيدينا حبال نقود بها زمام حيوانات مفترسة، أو أننا كنا نلعب معها في الفسحة المدرسية.

* * *

ولأنها كانت ترغب بشغف شديد، أن أقصّ عليها حكايات من

طفولتي في البلاد، حكيت لها كيف أننا بقينا على قيد الحياة، رغم أن أحداً لم يكن يقدم لنا الهدايا في المناسبات الدينية المختلفة مثل أعياد الميلاد ورأس السنة، وأننا كنا نلعب كرة القدم باستعمال كرة لم تكن كروية مستديرة، ومع ذلك كان علينا أن نصوبها بشكل تقطع فيه الملعب في خطوط مستقيمة، وأن نسدد بها، ونصيب الأهداف، كما لو أن الكرة هي فعلاً مستديرة. كانت هذه الكرة تتكوّن من مزق أقمشة رتّة، مع قطع من الورق المقوّى.

وكنا نحلم مع كل ذلك بأننا سنصبح ذات يوم من بين أبطال اللعبة العالميين؛ ذلك لأن الكبار - في ذلك الوقت - أقتنعوا بأن بيليه ملك الكرة البرازيلية، قد بدأ حياته بكرة مثل كرتنا، وأنه أصبح وهو في سنّ السابعة عشرة، أصغر أبطال كرة القدم في العالم سنّاً، وأنه حقّق ستّة أهداف في بطولة العالم لكرة القدم، في السويد سنة ١٩٥٨. كان الكبار يقولون لنا هذا، كما لو أنهم شاهدوا فعلاً هذه المباريات بأنفسهم، وكانوا موجودين بأنفسهم في مدرّجات ملاعب كرة القدم في السويد، شهوداً بأنفسهم على هذا النجاح الفدّ لهذه الظاهرة البرازيلية، أو على الأقل هذا ما كنا مقتنعين به ونحن أطفال.

وهكذا أصبحنا كلّنا بيليه، نتسلل بخفّة بين اللاعبين، نحاور سيقاناً وهمية، ونخترق خطوط دفاع وهمية، دون وجود أي خطوط مرسومة على أرضية الملعب يمكن الاستدلال بها على موقعنا في الملعب، ثم نصوّب نحو المرمى، ونسدد الأهداف، متمنّين رغم ذلك أن يأتي الخصم، ويعترض طريقنا بشكل عنيف، بحيث يصفّر الحكم على الفور

ويعطينا ضربة جزاء *penalty*، رغم أنه قد تضيع منا الكرة، بسبب سوء نوايانا. لكنني في الحقيقة لا أعرف، لماذا كنا معتادين في ذلك الوقت، على أن نوقف الكرة على ظهورنا، وليس كما يفعل اللاعبون الآن على صدورهم.

أتذكر أنه لم تكن هناك في يد الحكم بطاقات حمراء، يطرد بها اللاعبين المشاغبين المسيئين إلى قانون الكرة، وذلك لأن اللون الأحمر كان اللون الرسمي لحزبنا السياسي الوحيد، لذلك كان ممنوعاً استعمال اللون الأحمر إلا لأغراض سياسية. لم تكن في يد الحكم في مثل تلك اللقاءات إلا البطاقات الصفراء، وأتذكر أنه ذات مرة في إحدى المباريات، حصل أحد اللاعبين على ثلاثين بطاقة صفراء اللون، بسبب اعتراض الحكم على تصرّفاته، وهكذا استفاد اللاعب من حقيقة عدم وجود بطاقات حمراء في يد الحكم.

كنت أشرح كذلك لرفيقتي السابقة، كيف أننا قبل المباريات الهامة، كنا معتادين على الذهاب إلى الساحر المتخصّص في الأحرار، الذي كان يصنع لنا تمائم تجلب الحظ الحسن، وأحجبة تمنع فعل الشياطين^(٣٣). أتذكر اعتقادنا في وجود نوع من الأحجبة يمكن أن يحجبنا تماماً، فنصبح غير مرئيين، على الأقل في أعين أفراد الفريق الخصم. اعتدنا كذلك في ليالي المباريات الهامة، على أن ينام كل أفراد فريقنا معاً، في منطقة مدافن حيّ مويودزي؛ حيث تمرح الشياطين طوال الليل، وعلينا أن نتحمّل مزاحها معنا؛ لأنها في صباح اليوم التالي، تصبح جادة جداً ولا تمزح، خاصة فيما يتعلّق بمسألة مكافأتنا على النوم إلى

جوارها في العراء، بجعلنا نفوز في مباراة كرة القدم. هكذا كنا متأكّدين واثقين من حضور الشياطين معنا في أرض الملعب، بحيث يقف كل شيطان منهم خلف لاعبه المفضّل، يسانده في تحرّكاته.

وهكذا كانت الأهداف تدخل وحدها، في شبّاك مرمى الفريق الخصم، حتى دون أن تلمس أقدامنا الكرة، لكنها في بعض الأحيان لم تكن تدخل الشباك، لكن هذا لم يكن يسمح لنا على أي حال من الأحوال، بلوم ساحر التمام والأحجية أو بتحميله الذنب؛ فالشياطين ليست الربّ، وقد فعلت كلّ ما في وسعها.

كنا نلوم أنفسنا، ونقول إن الغلطة غلطتنا؛ لأننا لم ننفّذ بدقّة ما نصّحنا به الساحر عشية المباراة، وهو أننا عند الاستيقاظ يوم المباراة، يجب أن نبدأ أولاً بفتح العين اليمنى، ثم بعد ذلك نفتح العين اليسرى، وعند مغادرة الفراش، يجب أن نبدأ أولاً بوضع القدم اليمنى على الأرض، ثم بعد ذلك نضع القدم اليسرى. وعلينا كذلك ألا نلمس أعضاءنا التناسلية لمدة أربع وعشرين ساعة قبل المباراة، وألا نحیی الفتيات والنساء حتى نهاية المباراة، حتى لو كنّ من بين أخواتنا أو أمهاتنا.

وعلينا ألا نستدير بأجسادنا إذا تحدّث أحد إلينا، بل يجب أن ننتظر حتى يصبح في مواجهتنا، حتى لو كان هذا الشخص هو أبانا، وعلينا ألا نجعل قطرة مطر واحدة تسقط على جسد الواحد منّا، رغم أن هذه المباريات كانت تُلعّب دائماً، في توقيت الموسم المطير. هكذا كنّا نفكّر، كلّنا دون أي استثناء، ودون أدنى شكّ.

كنا نقول في أنفسنا، إن الشباب الآخرين من الدول الأجنبية لا

يمكنهم أن يسعدوا بتسليّاتهم، مثلما نسعد نحن بتسليّاتنا في هذا العالم الذي يخصّنا، رغم أسمالنا المتهالكة البالية، وسراويلنا المثقوبة في مواضع عدّة عند الردفين، ونعالنا الخفيفة المستهلكة، التي كنّا نربطها في أقدامنا بأسلاك حديدية.

ورغم كلّ ذلك البازار الأسود، أي رغم كلّ تلك الأشياء السوداء المشعّعة المتراكمة داخل نفوسنا كنا سعداء.

رغم تلك الحياة اليومية، لكل أولئك الذين لم يخترعوا أبداً أيّ شيء: من مواد التفجير كالبارود، إلى آلات توجيه السفن كالبوصلة، كنا سعداء.

رغم كلّ أولئك السود الذين لم يعرفوا أبداً كيف يسيطرون على قوّة الضغط البخاري، ولا على قوّة المحرّكات الكهربائية، أولئك الذين لم يكتشفوا أي مكان، لا على الأرض ولا في البحار ولا في السماوات، كنّا سعداء.

ثم إن رفيقتي السابقة وقد تأثرت بما أقول، سألتني (أين تعلّمت كل هذا، عن البارود والبوصلة والبخار والكهرباء والبحار والسماوات؟) أجبته بأن هذه الأشياء تعلّمتها نحن السود في مدارسنا في البلاد، عرفناها من شاعر أسود، عاد ذات يوم بعد غيبة طويلة إلى مسقط رأسه، وكان غاضباً لأنه وجد شعبه جائعاً، وشوارع مدنه قذرة، ووجد أناساً لا يثيرون على أوضاعهم تلك، ويقبلون الأيدي غير المرئية التي تستعبدهم. هذا الرجل في ثورة غضبه، نطق بهذه العبارات الشجاعة، وكتب بوضوح شديد:

نحن نكرهكم أنتم وحكمتمكم/

نكره إدراككم وصوابكم/

نحن الذين تتهموننا/

بالعته السابق لأوانه/

بل بالجنون الملتهب/

تتهموننا بالإصرار/

على الاستمرار/

في أكل لحوم البشر/

عندما تلوت عليها هذه الأبيات، أصيبت فجأة بتعاسة لا حدود لها. وحيث إنني كنت أشعر مسبقاً بالذنب؛ لأنني سأتركها وحدها يائسة هكذا في المنزل، وأذهب وحدي إلى السهرة، قرّرت أن أخترع لها على الفور حكايات أخرى تتحدّث عن الحبّ حتى أُسرّي عنها، وحتى لا تذهب إلى النوم وفي رأسها هذه الأفكار السوداء: عن العته السابق لأوانه، وعن الجنون الملتهب، وعن الإصرار على أكل لحوم البشر، وعن كل ما أشار إليه شاعرنا الشجاع.

* * *

تمدّدنا على الفراش، وحدّثتها بصوت خفيض، حاكياً لها كيف كنا نتعلّم أن نخلب لبّ الفتيات، عند مقابلتهنّ لأول مرّة، وكيف كنّا نخشى لحظة المواجهة تلك، فكنا نذهب لاستشارة أخ أكبر، وهو واحد من

شباب الحيّ، يُدعى بوبي الكبير، كنا نراه دائماً وقد أحاطت به الفتيات، ولم يكن يجفّ حلقه أثناء حديثه معهنّ، كما كان يحدث للواحد منّا، فيجفّ حلقه لو واجه فتاة واحدة. وقد تمكّن بوبي الكبير هذا، من خلب ألباب كلّ أنواع الفتيات، الكبيرات والصغيرات، من ذوات وزن الديك ومن ذوات وزن الريشة، حتى الفتيات من ذوات الأوزان الثقيلة جدّاً.

كان يدّعي في ذلك الوقت أن لديه التصريح اللازم لقيادة السيّارات، والتصريح بالمرور عبر جميع أنواع الأراضي، ثمّ يضيف قائلاً: «والتصريح بالمرور عبر جميع أنواع الفتيات». كان مرور الفتيات أمام باب حجرته لا ينقطع، أشبه بالعرض السينمائي المستمرّ، وكانت حجرته تلك تطلّ على أحد الشوارع الرئيسية، وهو شارع الاستقلال، فكنا نقف هناك في الشارع -نحن الفتية الصغار- لإحصاء عدد الفتيات الصاعداً إلى حجرته، أي لإحصاء عدد انتصارات بوبي الكبير.

هو لم يكن يخشى لمس شعور الفتيات، أو الإمساك بأيديهنّ، ولا حتى كان يخشى قرصهنّ في أردافهنّ، تلك الأرداف التي كانت تشغل أحلام يقظتنا. كانت الفتيات يضحكن مرحات، عند قرص أردافهنّ، بدلاً من الذهاب شاقيات باقيات إلى آبائهنّ.

كان هذا من المؤكّد هو نوع من السحر؛ ففي ذلك الوقت لم نكن نجرؤ على مراقبة الفتيات، إلّا من على بعدٍ كبير، بضع عشرات من الأمتار على الأقلّ؛ لأننا كنّا نشعر أمامهنّ كما لو كانت أمعاؤنا معقودة، ومثاناتنا البولية محلولة مفكوكة، فكنا نحسّ بالرغبة في التبول، بمجرد أن ننظر الفتاة إلى عيني الولد منّا بشكل مباشر. كان هذا يشبه أن يهتزّ

جسدك كله بسبب زلزال أرضي. ثم كان يحدث أحياناً أن نبكي؛ لأن شدة التهاب مشاعرنا، تجعلنا نتجمّد في شكل تماثيل من الملح.

فإذا كنّا نكتفي بالنظر إلى الفتيات عن بعد، فإن ذلك كان في محاولة لتجنّب المشاكل، فقد حذرنا آباؤنا وحذرنا أمهاتنا، من أن الفتيات لديهنّ عقارب قارصة سامة داخل أعضائهنّ التناسلية، وأن هذه العقارب تلدغ الصبيان في أعزّ ما يملكون. لكل هذا، كانت آمالنا معقودة حول بوبي الكبير؛ فكنا ندفع له عشرة فرنكات كونغولية لكل استشارة على حدة، وهي التسعيرة التي وضعها لنفسه هو نفسه، وهي لا تقلّ في ذلك الوقت عن تسعيرة استشارة طبيب ممارس عام في أيّ شأن مرضي.

كانت الاستشارة غالباً هي أن يطلب الصبي من بوبي، الكلمات التي يمكن أن تخلص لبّ الفتاة التي يريد الصبي أن يوقعها في حبّه، وفقاً لعدد من المتغيّرات. وكان على الصبي أن يلاحق الفتاة، وهي ذاهبة في طريقها إلى السوق، ويذكر لها في أقصر وقت ممكن، تلك الكلمات التي ينبغي أن تخلص على الفور لبّها.

وفقاً لنصيحة بوبي لي، كان يجب عليّ أن أقف في طريق الفتاة منتصب القامة، مثل جندي في وضع الانتباه، وأن أرفع رأسي فوق مستوى كتفيّ، وأن أحبس أنفاسي لمدة لا تقلّ عن عشر ثوان، ثم أزفر بخفّة، على أن تسمع الفتاة زفرتي، ثم أسألها وأنا نافذ الصبر: ”إلى أين تظنين نفسك ذاهبة هكذا؟“. وفقاً لبوبي ففي هذه الحالة، لا يمكن للفتاة إلا أن تردّ قائلة: «أنا ذاهبة إلى السوق».

هكذا يتحقق نصف الانتصار، فقد ردت عليّ. هنا أستاذف رفع رأسي، واقفًا منتصبًا في مكاني مثل جندي في وضع الانتباه، وأحبس أنفاسي، وأجعلها تنتظر خمس عشرة ثانية، بدلًا من عشر ثوان، فهي تنتظر بلهفة ما سأقوله. هنا أقول بصوت آمر متحكّم مستبد، ولكن بنظرة مراوغة ”سأصطحبك إلى السوق، اعطني سلّتك لأحملها عنك“. كان بوبي الكبير محقًا، ففي كل الحالات كانت الفتيات تعطي الفتيان السلال، ويسير الاثنان جنبًا إلى جنب.

لكن... وآه من لكن هذه، فهناك الطريق إلى السوق، وهنا كانت تعاستنا تعود إلى الظهور، ففي اللحظات التالية، علينا أن نتبادل أطراف الحديث مع الفتاة، في الوقت الذي نكون قد نسينا فيه تمامًا، كل الأسئلة التي اقترح علينا بوبي الكبير، أن نحفظها عن ظهر قلب. كان من بين هذه الأسئلة التي أتذكر الآن كيف أنها كانت ساذجة هناك (ماذا أكلتم أمس في منزلكم؟) و(هل كنست فناء منزلكم قبل خروجك منه؟) و(هل أنت متفوّقة في المدرسة؟) و(إذن اذكري لي اسم عاصمة نيبال) و(ما هي مساحة الأرض التي تشغلها بلادنا؟) و(هل كان هتلر ألماني أو نمساوي؟) و(ما هو الاسم الأول للكاتب الفرنسي هوجو؟)، و(ما معنى عبارة دول عدم الانحياز؟).

إلى جوار الفتيات كانت تصيينا حالات من الذهول، بمجرّد المشي إلى جوار فتاة، حتى إن أمخاخنا كانت تفرغ من محتواها، هنا نبدأ في الإحساس بتقلّص في العضلات؛ إذ يبدو لنا الطريق إلى السوق طويلًا جدًّا لا نهاية له، والناس الذين سيرونك تسير خلف الفتاة متعرِّقًا، قد

يعتقدون أنك خادم الأسرة، تصطحب الفتاة إلى السوق، فقط لتحمل عنها سلّتها.

عند هذا الحدّ من الحكاية، انفجرت رفيقتي السابقة في الضحك. هنا قلت إن مسألة أن نعرف أن الأسئلة خالبة الألباب التي أراد منّا بوبي الكبير أن نحفظها عن ظهر قلب، وجعلنا ندفع ثمنها غالياً، لم تكن مجدية على الإطلاق، هذه المسألة استغرقت منّا بعض الوقت، وأضفت أننا في تلك الساعة، تحوّلت وجهتنا من بوبي الكبير، إلى أحد سحرة الأحرار من قاطني حيّ الثلاثمئة، الذي سبق لنا التعامل معه، عندما كنا نريد إحراز أهداف في كرة القدم.

كان ساحر الأحرار قد جعلنا نشعر بالعجز التام، عندما كان يصرّ على ضرورة حصوله على خصلات من شعر الفتيات، حتى يستطيع أن يتمّ أعماله السحرية. هنا بدأنا في الذهاب للتسكّع أمام محلات قصّ الشعر، حيث تقوم الفتيات المعشوقات ورفيقاتهنّ بقصّ شعورهنّ وعمل ضفائر.

كانت الفتيات معتادات على الذهاب إلى مثل تلك المحلات، في مجموعات من خمس أو ست فتيات. وقد عمل بعض الفتية متطوّعين في كنس هذه المحلات، من بقايا الشعر المقصوص، في نهاية نهار العمل فيها، ثم ينتهز الواحد منا فرصة تشتّت التركيز عليه، في وضع بعض الخصلات في جيوبه. المشكلة هي أننا لم نكن نعرف كيفية التمييز بين شعور الفتيات، فكل الشعور كانت تتشابه في اللون والخامة، فكلها كانت شعور سوداء جعداء.

هذه المسألة كانت ستكون بالتأكيد أكثر سهولة، لو أن البلد الذي نعيش فيه، كانت به فتيات مختلفات الشعر، بعضهنّ شقراوات الشعر، وبعضهنّ حمراواته أو سوداواته، وقد تكون هناك أنواع أخرى من الشعر لا أعرفها. كنا نريد أن نضع أيدينا على خصلات من شعر رؤوس فتياتنا، حتى لو كان هذا الشعر متساقطاً على الأرض، وحتى لو كانت هذه المسألة كيفما اتفق، بحيث يضع الواحد منا في جيبه شعر فتاة أخرى لا شعر فتاته.

ثم نجري إلى ساحر الأحراز بغنائمنا؛ حيث يقوم بخلط تلك العيّنات من الشعر، بمواد أخرى من حقيقته السحرية، أثناء قيامه بتلاوة عبارات سحرية لا نفهم لها معنى، رغم أننا كنا من نفس العرق القبائلي، ولنا نفس الموروث الثقافي، وتحدّث نفس اللغة. كانت أسحاره تصيب في بعض الأحيان، وتخيب في أحيان أخرى. هنا تدخلت رفيقتي السابقة مرّة أخرى في الحكاية، طالبة مني أن أذكر هذه المسألة بالتفصيل، وأذكر نموذجاً واحداً يبيّن كيف أن أسحاره كانت أحياناً صائبة.

لذلك وجدت نفسي مضطراً إلى أن أقصّ عليها حكاية شاهدت وقائعها بنفسي، عرفت من خلالها كيف أن حرزاً معيّناً نجح في أن يوقع بفتاة معيّنة، في هوى فتى معيّن. كان هذا الفتى هو أحد أصدقاء طفولتي واسمه (بلاسيد)، وكانت الفتاة معشوقته تسمّى (مارسلين). كان يهيم بها، رغم أنها هجرته دون كلمة وداع واحدة أثناء العام الدراسي، وذهبت إلى فتى آخر، كان من بين زملاء فصلنا الفاشلين في الدراسة، وكان يحصل دائماً على صفر من عشرين في مادة الإملاء، التي كانت

كل موضوعاتها مستقاة من كتاب الشاعر مريميه، ويحصل على اثنين من عشرين في مادة التاريخ والجغرافيا، لكنه كان يحصل على تسع عشرة درجة ونصف من عشرين، في مادة التربية البدنية، بفضل عضلاته التي نمت من عمله في الصيد، في بلده الأصلي بنين.

بلاسيد كان أفضل حظاً منّا، لأنه سمع عن ساحر أحراز حقيقي قادم من قرية نائية في شمال البلاد. لم يكن هذا الساحر يطلب أتعابه مقدّماً، لكنه كان يقول لزبائنه إنهم سيدفعون له أتعابه عن طيب خاطر، بعد أن يتأكّد الزبون من حصوله على النتيجة المرجوة. عندما ذهب بلاسيد إلى هذا الساحر، أعطاه بذرة صغيرة، وطلب منه أن يزرعها في إناء، أمام باب بيت والديه، وأن يسقيها كل يوم عند منتصف الليل، وهو يرّد اسم معشوقته (مارسلين).

قام بلاسيد بفعل كل ما طلبه منه الساحر بكلّ دقة، وكان عند منتصف الليل يظلّ يرّد اسم معشوقته طوال ساعة كاملة. وبعد أسبوع نمت البذرة، وأصبحت نباتاً صغيراً. ثمّ فوجئنا جميعاً بأن (مارسلين)، جاءت من بيت والديها إلى بيت والدي بلاسيد، وظلّت تدور حوله حتى رأت بلاسيد، وعلى الفور قالت له إنها لم تعد تستطيع النوم دون أن تراه، ودون أن تشمّ رائحته، وتلمس بشرته، ودون أن تضع فمها على فمه، مثلما يحدث في الأفلام السينمائية الفرنسية، التي تعرض في دار سينما ركس.

ونحن فتية الحيّ لم نعد نفهم ماذا حدث لصديقنا بلاسيد، وجعله ينجح في أن يدير رأس فتاة في جمال (مارسلين)، وهو الذي لا يختلف

عنا في أي شيء، وكلّما ازداد النبات نموًا، ازداد تعلّق الفتاة ببلاسيد. ثم ذهبت مجموعة منا إليه، حتى نعرف منه أين يقع منزل ساحر الأحراز القادم من الشمال، لأننا أردنا نحن أيضًا، أن تندفع فتياتنا نحو أذرعنا، وأن تلتصق أفواههنّ بأفواهنا، كما يحدث في السينما، وأن يقلن لنا إنهنّ لم يعدنّ يستطعن النوم دون رؤيتنا وشمّنا ولمسنا، كما فعلت (مارسليين).

إلا أن بلاسيد رفض أن يصرّح لنا بأي معلومات عن الساحر، وقال إن هذا سرّ سيحتفظ به لنفسه، فأجبناه كلنا إننا سنتقمّ منه، وسيرى ماذا سيحدث له. في الليل أثناء نوم بلاسيد، ذهبنا إلى أمام منزله، وأتلفنا له النبات، بأن تبوّلنا عليه أولاً، ثم سحقناه بأقدامنا، وكسرنا الإناء الذي يحتويه. في صباح اليوم التالي ساءت الأحوال بين بلاسيد وفتاته، وبدأ يتشاجران، كما لو كانا اثنين لا يعرفان بعضهما، وسمعناهما يتبادلان السباب والإهانات. عادت مارسليين من جديد إلى زميلنا القوي في التربية البدنية، الضعيف في الإملاء والجغرافيا. لم نقل لبلاسيد أبدًا إننا نحن من أتلفنا النبات، فقد كانت كلّ شكوكه موجّهة إلى فتى التربية البدنية، الكسول قوي العضلات.

* * *

عندما بلغنا السادسة عشرة من العمر، اعتقدنا لفترة وجيزة، أنه لخلب ألباب الفتيات، علينا أن نرسل إليهنّ خطابات غرامية، لذلك بحثنا عن الكتب، التي يمكن أن يوجد بها هذا النوع من الخطابات. ولكن أيّ كتب إذن؟ الروايات؟ لا لم نفكر في الروايات فهي طويلة

جداً، وتبدو كما لو كانت لا تنتهي أبداً؛ فالكتاب يثرثرون بطول مئات الصفحات. بالإضافة إلى أن أبطال تلك الروايات كانوا يثيرون أعصابنا؛ لأنهم يستغرقون وقتاً طويلاً جداً حتى يتمكنوا -قرب الصفحات الأخيرة- من تقبيل معشوقاتهم. نحن أردنا أن نذهب بسرعة إلى أهدافنا، وألا نبذد أوقاتنا في وصف السماء الزرقاء وأشجار البيتولا، والطيور المهاجرة التي لا تعرف كيف تختار الأشجار التي تستقر عليها، بعد رحلاتها الطويلة فوق الغابات الاستوائية.

لحسن الحظ، اكتشفنا كتاباً بعنوان (الكاتب المثالي كاتم الأسرار)، الذي أصبح بمثابة كتابنا المقدس أو توراتنا وإنجيلنا، وكنا نذهب لقراءته في مكتبة المركز الثقافي الفرنسي في بوانت نوار *Pointe Noire*^(٣٤)، بالقرب من منطقة ساحل المحيط الأطلنطي^(٣٥)، لذلك كان على الواحد منا الاستيقاظ مبكراً جداً؛ حتى يكون أوّل من يستعيره في المكتبة؛ لأنه لم يكن هناك إلا عدد قليل من النسخ لا يمكن أن تكفي الجميع، خاصة وقد لاحظنا أن حتى الرجال الكبار سنّاً كانوا يأتون لاستنساخ صفحات منه، قد يتمكنون بها من خلب الباب الجذات العجائز من أرامل الحيّ.

هنا رفعت رفيقتي السابقة رأسها عن الفراش لتسألني عن اسم مؤلف هذا الكتاب، فأجبته بأنني لم أعد أتذكره؛ لأننا لم نكن في ذلك الوقت نهتم بأسماء مؤلفي الكتب التي نقرأها، الذين حتماً كانوا قد ماتوا قبل زمن، فما الداعي إذن لقراءة أسمائهم. لكنني احتجت هنا إلى أن أوضح لرفيقتي السابقة، أن هذا الكتاب كان يشتمل على كل

أنواع الرسائل، لمساعدة الناس في تحقيق أغراضهم المختلفة، مثل طريقة كتابة السيرة الذاتية C.V، أو كتابة طلب التقدم إلى وظيفة، أو كتابة رسالة لصاحب عمل، يمكنك أن تقنعه بها أن لديك الحافز القوي للعمل في وظيفته. كما كانت هناك رسائل العزاء في وفاة شخص، بها عبارات الأسف على فقده، والحزن الشديد على رحيله، رغم أنه تعدى المئة عام.

في نهاية الكتاب كان هناك ما نبحت عنه، نماذج من الرسائل الغرامية، التي يمكن لفتيان أن يكتبوها لفتيات. المشكلة هي أن مؤلف الكتاب كان يتوجّه في رسائله الغرامية، إلى كل أنواع الفتيات الشقراوات والحمراوات والسمراوات والصهباوات، بأعين زرقاء وخضراء وعسلية، وبنمش في الوجه أو دون نمش، دون أن يخطر على باله احتياج الشباب السود، إلى كتابة رسائل غرامية إلى فتيات سوداوات البشرة بأعين سوداء. وهكذا كنا نكتب هذه الخطابات كما هي، دون أن ندخل عليها أي تعديلات، لإعادة صياغتها بما يتناسب مع الظروف الحالية، ومع أجوائنا الاستوائية، وكنا نقنع أنفسنا قائلين إن الحب لا توجد به ألوان، وإنه من السخف تلوين الكلمات، فالمشاعر الصادقة غير قابلة للتلوين.

هذا طبعًا بالإضافة إلى صور الطبيعة الأوروبية، التي تصف الشتاء البارد إلى جوار المدافئ، وتصف الثلوج التي تساقط طول الوقت، وتصف أشجار السرو التي لا توجد منها شجرة واحدة في أفريقيا. لكن من العجيب أن هذه المفردات كلّها كانت تثير إعجاب فتياننا، فأنت

تلهب خيال الفتاة الأفريقية السوداء إذا قلت لها: «حييتي الشقراء/
تذكّرني بشرتك/ بلون ثلوج الشتاء»، وقد احتفظت معشوقتي في ذلك
الوقت، لسنوات طويلة بعد انتهاء صداقتنا، ومن الجائز حتى الآن،
بلقب (شقراء الثلوج) الذي أطلقته عليها.

اقتربت برأسي من رأس رفيقتي السابقة وهي على الفراش،
فاكتشفت إنها ذهبت في نوم عميق، على ما يبدو قبل فترة ليست
بقصيرة. لهذا فإن حكايتي الأخيرة ضاعت في فضاء غرفة النوم.



(٤)

كنت قد أطلقت على رفيقتي السابقة لقب (اللون الأصلي)، بسبب لون بشرتها شديد السواد. في بلادنا هناك اعتقاد سائد بأن الكونغوليين الذين يولدون في فرنسا، يكون لون سواد بشرتهم أقل من لون سواد بشرة من وُلدوا في البلاد. إلا أنني والحق يقال، حتى لحظة لقائي بها، لم أكن قد التقيت بفتاة أشدّ سوادًا منها. كنت أعتقد أن سوادًا كهذا مثل قطران الشوارع، هو حتمًا بسبب احتراق البشرة، تحت الشمس الاستوائية.

إلا أنها دون أيّ تمهيد أخبرتني أنها مولودة في فرنسا. في مثل هذه الحالات كنت أصرّ على الاطلاع فورًا على بطاقة تحقيق الشخصية، فأكتشف لدهشتي الكبيرة، أنها حقًا مولودة في فرنسا، ليس هذا فقط، بل إنها مولودة في واحد من أبرد الشتاءات التي عرفتها فرنسا، وهو شتاء ١٩٥٤، حين بدأ الأب ييار^(٣٦) في جمع الملابس الثقيلة لفقراء الشوارع.

سألت نفسي: «هل نستطيع أن نعيش دون أحكام مسبقة؟»، وسؤال آخر: «لماذا يستمر الناس في الهجوم بعنف، ودون توقّف على أحكامنا

المسبّقة؟»، وسؤال ثالث: «لماذا لا يتركوننا ننعم بأحكامنا المسبّقة؟»، وسؤال رابع: «هل أنا على هذه الدرجة من السذاجة حتى تعتقد هي أنها أقنعتني بأنها مولودة في فرنسا؟»، و«كيف يمكن أن تكون مولودة في فرنسا، وهي على هذه الدرجة من سواد البشرة؟»، و«لماذا أصدّق هكذا بشكل اعتباطي مثل هذه الحكايات التي يبدو بوضوح أنها ملفّقة؟».

هذا هو ما لا يمكن قبوله، بل إن هذه هي فضيحة بكل المقاييس، تذهب في عكس كل قوانين الطبيعة، إذ ما فائدة الشتاء والثلوج إذن؛ إذا لم يكن هذا بغرض غسل بشرة السود القذرة، وإضفاء بعض اللون الأبيض الجميل النقي عليها؟ يبدو أنه أمر محتمّ، أن أصدّق أن رفيقتي السابقة، التي سأطلق عليها من الآن فصاعدًا، اسمها الجديد (اللون الأصلي)، قد وُلدت وهي على نفس هذه الدرجة من سواد البشرة.



لقد شاهدت (اللون الأصلي) لأول مرّة، أمام حانة جيبس، قبل ثلاثة أعوام ونصف. لم يخطر على بالي في تلك المرّة الأولى، أننا بعد مرور بضعة أشهر سنصبح رفيقين، وأنها بعد ذلك ستصبح أمّا لابنتي. في ذلك الوقت كانت تعمل بائعة في محل الملابس النسائية الداخلية الشهير *Vogue à l'âme* (فوج آلام)، الذي كان يقع في مواجهة الحانة، إلى الجهة الأخرى من نفس الشارع، وكان مشهورًا بأنه يضع في نوافذ عرضه، ملابس داخلية نسائية ذات ألوان مصنوعة من مادة الفلورسنت المضيئة، وهو ما جعل إخواننا من عرب الحيّ يصابون بصدمة مزدوجة.

من مواقعنا في الحانة، كان يمكننا أن نرى تقريباً، كل ما كان يدور داخل هذا المحلّ، وكان يمكننا أحياناً أن نرى الفتيات أثناء قيامهنّ بقياس مشدّات الصدر، فكنا نتفنّن في ابتكار التعليقات الهازئة المناسبة، حتى نسمعها الفتيات بعد خروجهنّ من المحلّ، وأثناء مرورهنّ أمام واجهة الحانة. ذلك المحلّ لم يعد موجوداً الآن، فبعد أن أغلق أبوابه لأسباب لم نعرفها، اشتراه الرجل الصيني صاحب المطعم الصيني في آخر الشارع، وحوّله إلى محلّ لتنظيف الملابس على الناشف *Dry Cleaning*.

كنت في يوم اللقاء الأول هذا قد ارتديت بالصدفة ملابس الفاخرة، الحذاء الويستون والسترة الفالنتينو أومو، وشاهدت الفتاة تذهب وتجيء أمام واجهة محلّ الملابس المغلق، ولفافة تبغ في فمها، وكنت أنا مع بعض أصدقائي من الحانة نقف في شرفة الحانة، وكان بعضهم الآخر داخل الحانة يضع مرفقيه على نضد تقديم المشروبات. كنا جميعاً نضع عيناً على الكأس الذي في يد كلّ منا، ونضع عيناً أخرى على الفتاة. من بين الأصدقاء الذين كانوا في الحانة في ذلك اليوم، كان هناك إلى جوارى:

- روجيه الفرنسي الساحل عاجي، وهو من أصول فرنسية ساحل عاجية، وهو ذلك الذي يدّعي أنه قرأ كل كتب العالم التي صدرت باللغة الفرنسية.

- إيف الساحل عاجي فقط لا غير، فهو فقط من أصول ساحل عاجية، ويدّعي أنه لم يأت إلى فرنسا، إلا ليجعل الفرنسيّات يدفعن ثمن

الاستعمار الفرنسي لساحل العاج، وأنه سيصل حتمًا إلى تحقيق هذا الهدف، بكل الطرق الممكنة.

- فلاديمير الكامبروني الذي يدّعي أنه يدخن أطول أنواع السيجار المتاحة في فرنسا.

- بول من الكونغو الكبير^(٢٥)، الذي كان جسده عادة ينضح بكل أنواع العطور التي اكتشفها هو، ولم تصل بعد إلى أسواق العطور في العالم، وهو من كنا نلقبه بـ(عاشق الأثداء)، لأنه يعاندي بصفتي متخصصا في الأرداف، ويقول إن هناك في الحياة أشياء أخرى غير الأرداف، وإن الأثداء أهم من الأرداف.

- أرى قادمًا من الداخل بيار لوبلان، وهو من الكونغو الصغير^(٢٥)، وهو يعتبر نفسه متخصصًا في مفردات اللغة الفرنسية، ويقول إن الكتاب المقدس خدعنا عندما قال (في البدء كانت الكلمة)^(٣٧)، دون أن يحدّد ما هو نوع هذه الكلمة، وهل هي اسم أم فعل أم حرف؟ وإذا كانت اسمًا فهل هي فاعل أم مفعول به؟ وإذا كانت مفعولًا به، فهل هي مفعول به مباشر أم مفعول به غير مباشر؟ كان بيار بعد هذا الكلام عادةً يضيف قائلاً: أنا أمل من هذا الإله الذي يعبدّه الناس دون أن يظهر لهم ذاته.

- أوليفيه من الكونغو الصغير، وهو صاحب عينين مسحوبتين ضيّقتين، ومع ذلك يمكنه أن يرى الأشياء عن بعد، خاصة أجسام الفتيات.

- مواطننا باتريك من الكونغو، وهو من نطلق عليه لقب (السكندينايفي)، لأنه تزوّج من فنلندية، وأنجبا طفلًا لم نره بعد.

- أخيراً هناك بوسكو، صاحب لقب (التشادي المتجول)، الذي يعتقد أنه صاحب أعلى معدل ذكاء في قارة أفريقيا، ويعامل الناس كلهم على أنهم جهلة؛ لأنهم لا يعرفون تصرفات الأفعال الفرنسية في زمن الماضي الناقص. لكنني أسأله كيف يمكن لرجل مثله يدّعي أنه مثقف متحضّر، أن يذهب للتبول هكذا إلى جوار جدران الحانة الخارجية، على الرصيف في الشارع، رغم وجود دورة مياه داخل الحانة، يمكن حتى للمارة العابرين أن يدخلوا للتبول فيها، دون دفع ثمن كأس واحد؟ بوسكو هذا يقول عن نفسه إنه شاعر غنائي، ثم يقرأ علينا بعض أبياته الرديئة الركيكة، التي يقول إنها أول مؤلفاته، وإنه ألفها عندما كان لا يزال تلميذاً صغيراً في الليسيه الفرنسي في تشاد، يتأفف من غباء التلاميذ الآخرين من زملائه في الفصل، في مدينة نجامينا عاصمة بلاده تشاد. لا أصدّقه عندما يدّعي أنه بفضل هذه الأشعار، حصل من سفارة فرنسا في تشاد على منحة دراسية في فرنسا، وأن الفرنسيين بذلك قدّروه حقّ قدره، عندما أدركوا أن مكانه هو في فرنسا وليس في تشاد، وفي باريس بفرنسا، وليس في أيّ مدينة فرنسية أخرى، وأنه لا كرامة لنبيّ في وطنه.

ثم يستأنف أكذوبته قائلاً إنه حصل من الفرنسيين على لقب (بول فاليري الأسود)، لأنه وفقاً لهم يمكن اعتباره المعادل الموضوعي لشاعر فرنسا الأشهر (بول فاليري). هو كذلك يحمل لقب (شاعر سفارة فرنسا في تشاد)، لأن الفرنسيين في تشاد أدركوا أنه يتحدث الفرنسية بلهجة باريسية، حتى من قبل أن يضع قدمه في باريس، ولذلك

هم اعتبروه زنجياً فقط على الورق، لأنه في الحقيقة فرنسي بالروح. قال إن آخر ألقابه هو لقب (التشادي الباحث عن الزمن الضائع). وأنا أقول إنه بالنسبة لبوسكو هذا، فإن زمن الاحتلال الفرنسي لشناد لم ينتهِ بعد، وإنه رغم بشرته السوداء، يضع على وجهه قناعاً أبيض اللون.

إذن كانوا كلهم يتبادلون التعليقات على فتاة (اللون الأصلي)، تحت سمع وبصر (جانو) صاحب الحانة، المتواطئ معنا في كل مغامراتنا، وكذلك (ويلي) نادل تقديم المشروبات. كانا يختاران لنا غالباً، أثناء وجودنا في الحانة، الاستماع إلى مقطوعات موسيقية يقولان إنها أفريقية، لكنها كانت تبدو لي شيطانية، لا أعرف من أي أحياء عفنة قد جاءت، في أي مدينة من مدننا، أبيدجان أو دكاك أو دوالا أو برازافيل.

إذن هم جميعاً قد رأوني، في اللحظة التي اندفعت فيها عابراً الشارع نحو واجهة المتجر المغلق للملابس النسائية؛ لأتحدث مع (اللون الأصلي). حاولت أن أقرأ اسمها، المكتوب على البطاقة التي تعلقها على صدرها، وهو اسم من عندنا في أفريقيا، أصبح (ويلي) فيما بعد يسخر منه، ويستهزئ به في كل مناسبة. قال ساخراً: «أنا أعرف هذه الفتاة التي تمّ توظيفها في المتجر قبل فترة وجيزة، واسمها معقد جداً، لدرجة أنه حتى نتمكن من نطقه، يلزم أن نضع في سقف الحلق شوكة من أشواك شجرة تيلابيا».

فيما عدا لون بشرتها الشبيه بلون القطران، وهو لون لا نجبه في بلادنا؛ وهو الذي جعل أصدقائي ينتقدونها وينتقدوني نقداً لا دعاً، لاحظت أن فيها ميزة تحسب لها، تتفوق على كل العيوب، وهي أن

مؤخّرتها تتحرّك عكس اتجاه حركة عقارب الساعة، وهي ميزة لا تتوفّر إلا في عدد قليل من المؤخّرات النادرة. أنا لا أفعل إلا هذا عندما أسير في الشوارع، ألاحظ بانتباه مؤخّرات الفتيات، على أمل أن أرى من صنع الربّ، مؤخّرات أخرى قريبة الشبه من مؤخّرة (اللون الأصلي)، في نفس القالب وبنفس الليونة.

لقد وصلت بهذا الخصوص إلى نتيجة مؤدّاها، أن الأعمال الفنّية الفريدة من نوعها، تكون غير قابلة للتقليد، حتى لو كان الفنّان المقصود هنا هو الله نفسه. فيما بعد عندما كنّا نسير معاً في الشوارع أنا و(اللون الأصلي)، كنت أمشي خلفها مثل ظلّها، مدّعياً التناقل، وأنا أجرجر قدمي، أو أترك مفاتيحي تسقط على الأرض فانحني لألتقطها، كل هذا وأنا لا أرفع عيني عن المنظر الفريد لهذه الارتعاشات والاهتزازات، لهذا الإطار المشحون بهذه البضاعة. عندها كانت (اللون الأصلي) تستدير مبتسمة، ثم تسرع الخطى في حين يقفز قلبي في صدري، مثلما يقفز قلب كانجارو صغير تمرّ إلى جواره سيّارة صحراوية مندفة.

كنت أقول في نفسي لقد حبتها الطبيعة بهذه المؤخّرة ذات السرعات المختلفة، تتنقل بينها بسلاسة، مثل ناقل السرعات الآلي في سيّارة ذاتية الحركة، دون حاجة إلى تدخل السائق. لقد ميّزت الطبيعة بعض النساء عن بعضهنّ الآخر. دون شكّ كانت (اللون الأصلي) هي السبب وراء ازدياد استحواذ وسواس المؤخّرات على عقلي، فمنذ ذلك اللقاء الأول معها، وهذه الفكرة هي المسيطرة على دماغي، وبالتالي فبدلاً من أن أمشي مرفوع الرأس مثل كل الناس، إذا بي أمشي وأنا أخفض بصري لأتابع

المؤخّرات النسائية، التي تمشي في الشارع أمامي، لأنكَبَ بعد ذلك على التحليل الدقيق للتائج التي أتوصّل إليها. تسلّط عليّ هذا الجنون.

أنا الآن مقتنع بأنه كما يحدث لي مع ربطات العنق، التي استدلّ بها على نفسيّات الرجال، يحدث لي الآن نفس الشيء، مع المؤخّرات النسائية، التي استدلّ بها على نفسيّات النساء. لهذا ليس هناك ما يدعو إلى الاندهاش، إذا كان أغلب أصحابي في حانة جيس قد أطلقوا عليّ لقب (أخصائي الأرداف).

كان بيار لوبلان هو الذي ابتكر هذه الكلمة الجديدة، التي لم تكن معروفة من قبل في اللغة الفرنسية. لكنني أرفض أن أعترف بوجود ما يسمّونه في فرنسا نيولوجيزم^(٣٨)؛ لأنه منذ زمن طويل لم يعد هناك أي جديد تحت الشمس. لذلك فأنا أقول إن علم المؤخّرات أو الأرداف، ليس علمًا جديدًا، بل هو معروف منذ بدء الخليقة، أي منذ اللحظة التي نظر فيها آدم إلى مؤخّرة حواء.

وهذه قصّة لانهائية لها، ففي كل مرّة كان لبيار لوبلان صديقة جديدة، أسرع بإحضارها إلى حانة جيس، حيث يقدّم لها مشروبًا، بينما يهمس لي في إذني، طالبًا منّي أن أنظر إلى منطقة حوض صديقتة الجديدة، لأقيس بنظري أبعادها، وأقدّر طبيعتها وطبيعتها أنسجتها العضلية والدهنية، وأحكم بنفسني إن كان قد وفّقه الله في الاختيار، أم جانبه الصواب وأخطأ التقدير. ثم بعد أن تغادر الفتاة الحانة، يعود فورًا إلى جواري؛ لينصت إلى تقريرني المفصّل عن الحالة، وغالبًا ما يضيف إنه يستثار جنسيًا أكثر وأكثر، كلّما أنصت إلى وصف مؤخّرة صديقتة الجديدة على لساني.

كنت والحالة كذلك، أعيد تذكيره بالفروق الجوهرية بين المؤخّرات النسائية، فأقول إن هناك مؤخّرات عندما تراها تتحرّك، تصاب بخيبة أمل وتتساءل، هل هذه هي فعلاً مؤخّرة تلك التي أراها تتحرّك أمامي؟ أنت تشكّ لأنك لم تستطع أن تحدّد في أيّ اتجاه تتحرّك تلك المؤخّرة؟ وأنت في الأصل لا تعرف إن كان من الأفضل أن تكون الحركة من اليسار إلى اليمين، أو من اليمين إلى اليسار؟ أم أنها من تلك المؤخّرات التي تتسطّح، وتفقد تكوّرها أثناء الحركة؟ أم أنها تظهر دائماً ثابتة في مكانها، دون أيّ ملامح للرشاقة؟

هذا يحدث للفتيات عندما تكون الواحدة منهنّ قلقة مكروبة. ثم إن الفتيات قبل أن يتخذن قرارات، يطلبن النصّح من بعضهنّ إلى بعض، إلا أنهنّ عندما ينصحن بعضهنّ بعضاً، لا تقدّم الواحدة منهنّ للأخرى نصائح صائبة، بل هي غالباً تحاول أن تضللّها.

بعض مؤخّرات الفتيات تهتزّ بسرعة من أعلى إلى أسفل، وهؤلاء الفتيات هنّ اللاتي يكتنّ مضطّرات إلى جذب سراويلهنّ إلى أعلى عند كلّ مفرق طرق؛ لأن هذا الاهتزاز السريع من أعلى إلى أسفل، يجعل السراويل سريعة الميل إلى السقوط.

أما إذا تحدّثت مع فتاة لها مؤخّرة مشحونة بأنسجة عضلية ودهون، ستعرف على الفور أنها تشعر نحوك بالعدائية، دون أي سبب واضح، فإذا اتفقت معها على موعد عند نافورة سان ميشيل، أو عند كنيسة سان برنار، فإنها لن تحضر فيه، وعندما تريد أن تهجرّك، ستكتفي بأن ترسل إليك خطاباً بعلم الوصول.

كنت أوضح لبيار لوبلان، أن هناك مؤخرات مضغوطة محصورة، مسطحة مثل الطرق السريعة التي انتهوا للتو من تسويتها، تهتز بطريقة غير منتظمة، كما لو أن صاحباتها قد أُصِبن بالصرع، وهي من أسوأ أنواع المؤخرات، ويمكن تشبيهها بالسيارات ذات النقل اليدوي للسرعات، التي تأتي اهتزازاتها بطريقة مفاجئة.

نحن غالبًا ما نجد هذا النوع من المؤخرات لدى السيّدات المثقّفات، اللاتي يراوغن كثيرًا حتى ينتهي بهنّ الأمر بالقول بأنه ينبغي لهنّ المزيد من الوقت للتفكير في الحسابات الختامية، أي فيما سيكون لهنّ وما سيكون عليهنّ؛ إذ إنهنّ ينبغي عليهنّ أولاً الانتهاء من قراءة النظريات الاستعلائية، الترانسندنتاليزم^(٣٩)، التي نجدها في كتاب (نقد العقل المطلق) للفيلسوف كانط.

لكل ذلك، كنت سعيدًا جدًّا لأنني وجدت في (اللون الأصلي) مؤخرة أحلامي. فإذا لم يكن هناك المزيد من التقريظ للواجهة الخلفية لـ(اللون الأصلي)، فمن ناحية الواجهة الأمامية، يمكن أن يقال إن وجهها الذي قدّ من حجر، كان يفقد الرجال رغبتهم في الحديث إليها. إذن بالتالي كانت هذه هي الأخرى، من بين مزاياها؛ إذ لم يكن هناك احتمال أن أخسرها. ولا يمكن على الإطلاق أن أشعر بالمزيد من الفخر، مما أنا عليه الآن. رغم ذلك فإن هذا الوجه الحجري، لم يكن قمة جبل إيفريست^(٤٠)، ولم يكن الاحتقار الذي تظهره على وجهها للرجال، إلا وسيلتها الطبيعية للدفاع عن نفسها، بنفس طريقة القنافذ التي تبرز أشواكها في مواجهة أعدائها.

عندما شاهدتها لأول مرة أمام واجهة المحلّ، استجمعت شجاعتي واقتربت منها، فوجدت على وجهها ابتسامة، لا شك أن الفضل فيها كان لأزيائي المضحكة، لأنها نظرت إليّ من أعلى رأسي إلى أخمص قدميّ، وهكذا بدأ حوارنا على الرصيف. سرعان ما أدركت أنه لا ينبغي لي هنا أن أوجّه اتهامات إلى أفريقيا؛ إذ اكتشفت أن (اللون الأصلي) تحلم بالذهاب يومًا إلى هناك؛ فهي لم تذهب أبدًا إليها، أما أنا فلم أكن أريد على الإطلاق أن أعود إلى هناك، خاصة عندما أتذكر عملي في ميناء بوانت نوار في الكونغو على ساحل الأطلنطي، والحالة التي كنت عليها عند وصولي إلى فرنسا لأول مرة.

لم أجعلها تشعر بمفاجأتي الكبيرة، عندما علمت أنها مولودة في فرنسا، رغم لونها الأسود شديد القتامة، وكنت على وشك أن أفعل مثلما اعتدت أن أفعل في مثل هذه الحالات، وأطلب منها أن تريني بطاقتها الشخصية الفرنسية، إلا أنني تراجعته عن ذلك؛ لأنني لم أرد أن تشعر بالإهانة. لكنني قلت في نفسي: «كيف استطاعت أن تحتفظ بهذه البشرة في فرنسا، رغم كل هذه الشتاءات الباردة المتتالية منذ مولدها؟».

هي لاحظت على الفور أنني أطيل التحديق في مؤخرتها، فأنا بصفتي متخصصًا في الأرذاف، كان هدفي هو أن أدرس نفسيته، لكن مشاعر الحب الوليد كبّلتني، مثلما يحدث مع الجراح الذي لا يستطيع أن يجري جراحة لزوجته، أو من الجائز أن عليّ أن أذكر مثلًا آخر وهو أن الإسكافي يضع في قدميه أردأ أنواع الأحذية.

في ذلك اليوم الأول أردت على الفور أن أترك علاماتي البارزة عليها، كأنني أقول للآخرين: «إنها ملكية خاصة؛ فابتعدوا عنها»، وأردت أن يكون الحوار بيننا متصلًا. عندما أعيد النظر إلى الموقف، أجد بشكل عام أن تصرّفاتني كانت مقبولة، حتى إن رفاقي في الحانة صفّقوا لي كلّهم عندما عدت إليهم، وهم يرون أنني أحمل في يدي رقم تليفونها، إلا شخصًا واحدًا هو إيف الساحل عاجي، الذي لم يكن مقتنعًا بجدوى هذه العلاقة، فقد قال لي: «إنه ليس مع فتاة من نوع (اللون الأصلي)، سنجعل فرنسا تدفع ثمن تاريخها الاستعماري».



كنا نتناقش بحدّة أنا و(اللون الأصلي) في مثل هذه المسائل مرّة كل يومين أو ثلاثة أيام. لم أكن أريدها أن تشعر أنها تحت ضغط، أو أنها مضطّرة إلى اتخاذ قرار سريع فيما يخصّ علاقتنا. اكتشفت أنها فتاة لطيفة ورقيقة ومتببهة. دعوتها إلى المقاهي والحانات في منطقة أسواق الهال. ذهبنا معًا إلى كلّ الأماكن المتاحة في محيط الحيّ الأوّل في باريس، ومنها (الأب الهادئ) و(القبلة المملّحة) و(كنيسة اللومبارد) و(مقهى أوز)، ولا أتذكّر الأسماء الأخرى.

في بعض الأحيان كانت (اللون الأصلي) تجعلني أضحك. كنت أضحك على طريقتها في الضحك، لأن ضحكها كان مثل صوت محرّك سيّارة قديمة، لا تستطيع أن تتحرّك من مكانها. إلا أن الذي كان يجعلنا نضحك معًا هو عربي الناحية، صاحب محلّ البقالة في الشارع حيث

تسكن. كان مغرمًا بالنكات المتعلقة بالأسرائيليين، وهو يريدنا أن نعتقد أن الأجواء تعبس في وجوههم. وحيث إنه جزائري مسلم يتحدث العربية، فإنه كان معتادًا أيضًا على السخرية من الجزائريين الذين لا يتحدثون العربية، ويسكنون في مناطق قبائل شمال الجزائر، ولهم لغة خاصة بهم ليست لها أدنى علاقة باللغة العربية، ويسمّونهم القبائليين.

لم أعد راغبًا في الذهاب معها إلى حانة جيس؛ فكلّما ذهبنا معًا إلى هناك صَفَّق الرفاق وضحكوا، وهو ما بدأ في مضايقتي، كأني كسبت جائزة عالمية، أو حققت رقمًا قياسيًا جديدًا في إحدى الرياضات. كانت تسألني: «لماذا يصفقون ويضحكون؟»، وهي تشير برأسها إلى روجيه الفرنسي الساحل عاجي، وإيف الساحل عاجي، وويلي النادل. كنت أقول لها: «إنهم مثل الأطفال الصغار». كان الشيء غير المحتمل ليس هو تصفيقهم وضحكهم، بل هو إصرارهم على متابعة مؤخرتها بأنظارهم.

ورغم هذه الممازحات والنزوات، كنت قد بدأت الدخول في منطقة إعداد الفتاة لعلاقة طويلة جادة بيننا. انقضضت عليها أعمق الحفر، وأنا مغمض العينين. وأنا أقول لنفسي: «إنني محقّ فيما أعتقد وليس أصدقائي»، فهم ليسوا إلا عميان دون حتى عصيّ يتعكّزون عليها. هل حقًا يعتقدان أنهما قادران على إعطائي دروسًا في مادة النساء؟ أقصد بوسكو الشاعر التشادي، وبيار لوبلان من الكونغو الفرنسي الصغير.

لم أكن أحبّ أساليب إيف الساحل عاجي، عندما يوبّخني علنًا، قائلاً: «استيقظ يا خبير الأرداف، فنحن هنا في فرنسا، يجب أن نسجّل

أهدافاً حقيقية، في مرمى الخصم الحقيقي. لأنه - كما تعرف - فإن الهدف المسجّل في شباك الخصم على أرضه هو، يساوي ضعف قيمة الهدف المسجّل في مرمى الخصم على أرضك أنت... أما أنت فقد اخترت الطريق السهل، عندما اخترت واحدة من مواطنات بلدك».

صمت

«هل بهذه الطريقة ستجعل فرنسا تعوّضنا عن كلّ ما تسبّبوا لنا فيه من معاناة خلال سنوات الاستعمار؟ لقد استولوا على مواد بلدنا الخام؛ لذلك ينبغي علينا أن نفعل نفس الشيء، ونستولي على ثروات بلادهم، أقصد طبعاً نساءهم، اترك إذن تلك الفتاة التي احترقت بشرتها، ذات المؤخّرة المربكة، واقتنص لنفسك فتاة شقراء جميلة، بعينين زرقاوين أو خضراوين، فهناك كمّيات كبيرة منهنّ في شوارع باريس، وكذلك في شوارع مدن الأقاليم الفرنسية».

صمت

«هذا علاوة على أنك لن تملّ من الشقراء لأنها عاقلة، في حين أن شقيقتنا السوداء متقلّبة المزاج. إنها فقط حكاية تلك المؤخّرة التي جعلتك تفقد عقلك، تعال نذهب معاً إلى ساحل العاج، لتشاهد بنفسك ماذا تعني مؤخّرة المرأة السوداء على حقيقتها، كيف تلفّ وتدور وتهتزّ بطريقة حلزونية، مثل مروحة الطائرة الحلزونية الهليكوبتر... إن تلك الفتاة التي شاهدتها تدخّن أمام متجر الملابس الداخلية هي سراب خادع، وأنا لن أصاب بأي خيبة أمل، في اليوم الذي تخلع فيه سروالها أمامي، فأجد أن ردفها يفقدان قوامهما، وقد سقطا عند كعبيها».

وعندما تنتهي محاضرة إيف الساحل عاجي، تبدأ ملاحظات
فلاديمير الكاميروني، ذي السيجار الأطول في فرنسا. هو جعل
الأصدقاء يعتقدون، أنني حتى أتمكن من إرضاء اللون الأصلي جنسيًا،
فإن شيئي الذي أحمله أسفل بطني، يجب أن يكون بطول اثنين من
سيجاره، أحدهما في طرف الآخر.

هو: أيها المتخصص في الأرداف، هل شاهدت كم يبلغ طول
سيجاري؟ ألا يقول لك هذا شيئًا؟

لم أعترض عليه أو أعلق بأي شيء.

هو: الآن سأخرج سيجارًا ثانيًا من جيبِي، وسأضيفه إلى السيجار
الأول. أنظر كم يبلغ طولهما معًا، وأحدهما في طرف الآخر.

صمت

هو: يجب أن تكون آلتك بهذا الطول، وإلا فإن الفتاة ستسخر منك.
واحمد ربّك أنني لا أدخن حاليًا، سيجار الكوبي جوزيه كاستيلار الذي
يصل طوله إلى بضعة أمتار.

صمت

هو: في حين أن كلّ ما يميّزك أنت في الحقيقة هي ملابسك الفاخرة،
التي تستعرض بها نفسك أمامنا، فأنت لست إلا أحد هواة الملابس
الإيطالية، والأحذية الويستون الفاخرة، التي تشتريها من محلات شارع
سانت أونوريه.

صمت

هو: نحن في الكامبيرون اعتدنا على أن نقول إن جيراننا في الكونغو لا يتميزون حقاً بأعضاء طويلة، لذلك فمن مصلحتك أن تمارس بعض التمارين.

كنت أُنقبِّل نصائح بول من الكونغو الكبير، الذي كان يلحّ عليّ دائماً بفكرة، أن أسحب عضوي وأهرب في أول فرصة.



(٥)

أخبرتني (اللون الأصلي) لاحقاً، أن والديها يعيشان في مدينة نانسي بشرق فرنسا؛ حيث كان الأب يعمل محامياً، وأنهما في المنزل لم يكونا يتحدثان مع أطفالهما إلا باللغة الفرنسية؛ ولذلك فهي لا تفهم أي لغة من لغات الكونغو. كان الأب معارضاً سياسياً للنظام القائم في البلاد، لذلك كان ممنوعاً من دخول الكونغو. قالت إنه كان يأمل في أنه يوماً ما، سيأتي دروه ليصبح رئيساً لجمهوريةنا؛ وهكذا يمكنه أن يتزع البترول من أيدي الفرنسيين، ويعطيه للأمريكيين.

أما حلمه الشخصي، فهو أن يدهس تحت قدميه كل الكونغوليين الشماليين، ويلقي بهم بنفسه في مياه نهر الكونغو؛ لأنه يعتقد أن أفراد قبيلته تحمّلوا الإبادة الجماعية على يد الشماليين طوال عشرات السنين، لأن الشماليين كانوا أكثر عدداً، ولم توجد أي قوة سياسية تساند الأقليات العرقية. وفقاً لوالدها محامي مدينة نانسي، فإن خلاص الكونغولن يكون إلا إما بتقسيم البلاد، أو القضاء التام على كل أفراد القبائل الشمالية؛ الذين استحوذوا على كل أدوات السلطة منذ الاستقلال، وسرقوا بترول الجنوب، وباعوه للفرنسيين.

احتفظ والدها بلحية رمادية طويلة، مثلما يفعل أغلب متمرّدي أفريقيا، الذين يستمرّون في استنساخ شكل المقاوم الأنجولي يونس سافيمبي *Savimbi*، الذي كانت له شخصية كارزمية، وكان له حضور قوي وتأثير في الجماهير، بحيث تمكّن حتى موته، من منع منافسه الرئيس إدواردو دوس سانتوس من الحصول على نوم عميق، ولا حتى الليلة واحدة.

إلا أنه اتضح لي بسرعة أن (اللون الأصلي) تكره والدها، فهي تحكي لي عن تاريخه النضالي، لكنها كما لو كانت تريد أن تتوقّف عن الكلام، أو كما لو أن هناك شحنة كراهية تتفاقم، كلما طلبت منها المزيد من الحكى. بدأت تتحدّث عنه بقدر من الغيظ، وظهرت في مفرداتها كلمات مثل (ذلك الاستعبادي الاستبدادي) أو (ذلك القبلي)، ثم قالت: (ذلك الرجل الذي يدّعي أنه والدي). وفقاً لها، كان والدها متطرّفًا سياسيًا جنوبيًا، يغذّي التعصب ضد الشماليين، عصبياً سهل الاستثارة.

كان معتادًا على أن يستقبل لديه كل شيوخ قبائل النظام القديم، الذي سقط وتهشّم بعد حربين أهليّتين، ومع هؤلاء الشيوخ خائبي الأمل، كان يريد تأسيس حزب جديد، يمكن به أن يستعيد السلطة، حتى ولو بقوة السلاح لو لزم الأمر. ومن أجل هذا، انتظر أن يحصل على الضوء الأخضر من الولايات المتحدة الأمريكية، لأنه يقول إنه لا يمكن في هذه الأيام، أن تحدث أي تغييرات سياسية، في أي بلد أفريقي، حتى ولو كان ناطقًا بالفرنسية، دون مساعدة القوّة العسكرية الأمريكية،

للتغلب على العوائق العسكرية التي وضعها الفرنسيون في مستعمراتهم السابقة قبل مغادرتهم لها.

* * *

بعد إلحاح طويل، عرفت السبب الذي أدى باللون الأصلي، إلى مغادرة بيت والديها في نانسي، والحضور للإقامة وحدها في باريس. فهي كانت قد تخاصمت أولاً مع والدها، ثم تخاصمت ثانياً مع والدتها، بسبب مسألة تتعلق برغبتها في تزويجها من عميد المحامين الكونغوليين في فرنسا، المدعو (ماتو سالم)، وهو وزير مالية سابق في البلاد، أو بكلمات مباشرة، إنه الرجل الذي سرق خزائن الدولة الكونغولية الناشئة، وهرب بها إلى أوروبا، عندما استطاع أن يلمح بشائر حرب أهلية جديدة.

ولأن النظام السياسي الذي كان ماتو سالم يشغل منصب وزير مالية فيه، كان يحظى بدعم من فرنسا، لذلك هرب هو والرئيس المخلوع عبر نهر الكونغو، ثم أخذاً طائرة إلى فرنسا، ومعهما حقائب النقود، حيث أصبحا تحت الحماية الفرنسية، غير قابلين للقبض عليهما، ومحاكمتهما.

بمجرد استقرار ماتو سالم في باريس، هو والرئيس المخلوع، واستتباب الأمور لهما، بدأ ماتو سالم يخطب في كل المحافل، ومن فوق كل المنصات، قائلاً إن لديه النقود الكافية، وهو قادر على إطعام كل المعارضين السياسيين الكونغوليين، المقيمين في المنفى في

فرنسا، ليس اليوم فقط وغداً، بل ولمدة مئة وخمسين عاماً، بما في ذلك من كان من الكونغوليين المنفيين، مقيماً في جزيرة كورسيكا، أو في إمارة موناكو.

وهكذا بدأ توافد كل كونغولي فرنسا إليه، في منزله الخاص الواقع في محيط دائرة الحيّ الباريسي الثاني، حيث كانوا يقابلون وزير المالية السابق، ثم يخرج كل منهم من المنزل وهو يحمل في يده مظروفاً ضخماً ممتلئاً عن آخره بأوراق النقد الفرنسي من الفئات الأعلى قيمة. قدّر المتخصّصون العالميون في الاقتصاد الدولي، أن الثروة التي هرب بها وزير المالية السابق من البلاد، كانت مبلغاً يساوي تماماً قيمة الدين الخارجي للبلاد. كان يكفي إذن جداً، لو أن هذا الشخص كان وطنياً حقيقياً كما يدّعي، أن يذهب إلى المحافل الدولية التي يعرفها جيداً، ويسدّد دين البلاد عنها، حتى تتوقّف أمة بأكملها عن الذهاب إلى المؤتمرات الاقتصادية الدولية، للتباكي أمام الدول الغنيّة، طالبة إلغاء الديون.

إلا إن ماتو سالم، وكما هو متوقّع، لم يفكر في تحسين أحوال الشعب الفقير في البلاد، بل عاش في باريس حياة الأثرياء شديدي الثراء، ينظّم سهرات خاصة يقيمها في قصور كبيرة، يستأجرها أو حتى يشتريها لهذا الغرض، حيث كان معتاداً عند منتصف الليل، على اختيار عدد من فتيات الحفل الأجمل والأصغر سنّاً، ثم الذهاب مع هؤلاء الفتيات إلى فراشه. هنا تضيف (اللون الأصلي)، إن والدها كان في تلك الفترة، من أقرب أصدقاء ماتو سالم إلى قلبه. وفي الماضي كان والدها

قد دافع عن ماتو سالم، في قضية إخفاء أموال عامة في البلاد، وصل صداها إلى فرنسا.

ثم وقع اختيار ماتو سالم على ابنة صديقه، وأراد أن يتزوَّجها، رغم فارق السنّ بينهما البالغ ثمانية وثلاثين عامًا. كان هذا الزواج سيحسّن الأوضاع المالية لوالدها، الذي تعشّم أن يستفيد من الدعم المالي لزوج ابنته، في تقوية دعائم حزبه السياسي الجديد، أثناء انتظار الضوء الأخضر من الأمريكيين. كانت حكاية عرض الزواج هذا، هي صفحة من صفحات الماضي الأليم، الذي تريد (اللون الأصلي) أن ت قلبها ولا تعود أبدًا إليها، لذلك كان عليّ أنا أيضًا ألا أعود إليها.

فضّلت أن تحدّثني عن أهم صديقات طفولتها، واسمها راشيل كواميه، وكانتا تعيشان في نانسي، ولم تنفصلا خلال المرحلتين الدراسيتين الابتدائية والثانوية. وذات يوم قرّرت راشيل الانتقال إلى باريس، ثم حدث بعد فترة وجيزة أن تبعثها (اللون الأصلي) إليها. ففي عشية اليوم الذي كان من المفروض فيه، وفقًا لرغبة والدها، أن تتزوَّج ماتو سالم، جمعت ما استطاعت من أغراضها، وجاءت إلى باريس تطرق باب صديقة طفولتها.

* * *

مع استمرارها في الحكى عن صديقتها راشيل، تولّد لديّ الإحساس بأن هذه الصديقة هي السبب في إفساده بالتدليل. راشيل كانت من ساحل العاج، وأكبر في السنّ بفارق بسيط، وتستأجر شقة

في شارع ديجان، في قلب منطقة سوق شاتو روج، حيث كانت راشيل قد بدأت العمل في بيع السمك المملّح، بعد أن انقطعت عن دراستها غير النظامية للمحاسبة المالية. بالتالي وقفت (اللون الأصلي) إلى جوار صديقتها في السوق.

كانتا تشتريان الأسماك المملّحة من تاجر جملة صيني، في شارع بنما، ثم تبيعانه بالتجزئة على قطعة ورق مقوّى، مفروشة على الأرض على حافة السوق، بحيث يسهل جمعها والهروب بها، في حالة ظهور شرطة الأسواق؛ فهما لم تكن لديهما رخصة بيع. هذه التجارة التي تتطلب الكثير من الصبر، لم تكن تجعلهما ترباحان إلا أقلّ القليل.

كانت (اللون الأصلي) تراقب مجتمع سوق شاتو روج، وطريقة أهله في الحياة، وبعد بضعة أشهر وصلت إلى نتيجة مؤدّاها، أننا السود ننفق أموالاً طائلة على محاولات تبييض بشرتنا، وأن الرجال السود يفضلون أن يموتوا جوعاً على أن يتحمّلوا البشرة الداكنة.

وفي إحدى الأمسيات، في وقت كانت تضيق فيه الأرزاق منذ فترة ليست بالقصيرة، اقترحت (اللون الأصلي) على راشيل، بدلاً من بيع الأسماك المملّحة، أن تبيعا مستحضرات تبييض البشرة، قائلة ”إنها تجارة رائجة، ولن نصبح معها أبداً في بطالة، مثل مهنة من يقوم بدفن الموتى، فتجارته ستظلّ رائجة، لأن الناس مكتوب عليهم الموت، ونحن السود لن نتراجع أبداً عن محاولاتنا المستمرة لتبييض بشرتنا، طالما كنّا مقتنعين بأن اللعنة التي تحلّ بنا منذ أجيال طويلة، ليست إلا بسبب لون البشرة“.

في الحقيقة كانت راشيل لا تصلح لمهنة التجارة؛ فهي تسيء معاملته الزبائن، في حين كانت (اللون الأصلي) أكثر قدرة على حسن التعامل مع الناس. هذا بالإضافة إلى أن كل ما كان يدور في ذهن راشيل، هو أن تشتري أولاً بأول، كل ما تستطيع شراءه من أحدث صيحات الأزياء الباريسية، التي تشتريها من أغلى محلات الأزياء، الموجودة في شارع الشانزيليزيه أو في شارع سانت أونوريه، حتى تتمكن من استعراضها على جسدها، في النوادي الليلية في أبيدجان، عندما تذهب إلى هناك كل صيف، لقضاء إجازاتها السنوية، ثم تبيعه هناك لصديقاتها القدامى اللاتي يعشن في أبيدجان، ويتحرّقن شوقاً إلى كل ما هو فرنسي باريس، قبل أن تعود راشيل إلى باريس، لتعيد الكرة من جديد في العام التالي.

لم يكن ينقصها إلا شراء المجوهرات من محل كارتييه في ميدان الفاندوم، واستعمال العطور التي تستعملها نجومات السينما، كاترين دونوف، وجوليت بينوش، وفانيسا بارادي. كانت مبدّرة جداً، مما جعلها تبدد كل مدّخراتها، بل إنها بدّدت قدرًا من المدّخرات المشتركة بينهما، في حين كانت (اللون الأصلي) مدبرة بل مقترّة، أي على عكسها تمامًا. أصبح الموردون التجاريون غير قادرين على الثقة في الفتاتين؛ بسبب تراكم الديون عليهما، ثم رفض الموردون توريد البضائع بالآجل، وبالتالي كان عليهما أن يدفعن نقدًا عند الاستلام، في حين كانت خزينتهما خالية.

ثم أصبحت النزاعات بينهما متكررة، حتى إنهما كانتا أحيانًا تبقيان أسبوعًا كاملًا، دون تبادل كلمة حوار واحدة. في هذه الحالة كانت

كُلُّ منهما تعدّ طعامها، وتجلس لتأكله وحدها، في أحد أركان الشقّة الاستوديو^(٤١) التي كانا يسكنانها معاً. كانت تلك العلاقة المتوتّرة قد ازدادت توتّراً، عندما أحضرت راشيل إلى هذه الشقّة الضيّقة رجلاً من ساحل العاج، فرضت وجوده على صديقتها. كان فظّ الأخلاق، وبعضلات بارزة، مثل كلّ صيّادي الأسماك، وهي مهنته الأصلية. ثم اكتشفت (اللون الأصلي) أنه كان داعراً، يبيع جسده لمن تدفع من النساء الأكبر سنّاً. بالإضافة إلى عيب آخر قاتل، وهو أنه عندما يشرب الخمر؛ يصبح عدوانيّاً جدّاً؛ فيحطّم الأطباق والأكواب، ويهدّد بإشعال النار في البناية كلّها.

عندما استقرّ هذا الرجل في الشقّة الضيّقة، اعتبر نفسه صاحب المكان، لذلك عندما كان يعود من جولاته اليومية، كان يتوقّع أن يكون طعامه جاهزاً، وأن تكون راشيل في المنزل مستعدّة لتدليك قدميه، ثم يسترخي على الأريكة التي يمكن تحويلها إلى فراش أمام جهاز التلفزيون، لمشاهدة مباريات كرة القدم، على قناة كانال بلوس (٤٢). لم تعد (اللون الأصلي) تحتمل وجوده، خاصة بسبب ضيق الشقّة البالغ، وقد نطقت أخيراً بهذا أمامه. فما كان منه إلا أن قال:

”منذ متى للمرأة الحقّ في الكلام أمام رجل؟ هل أنتِ تعتبرين نفسك رجلاً؟ هل المرأة تساوي الرجل؟ ماذا تعتقدين في نفسك؟ أنتِ لا تزيدين طولاً عن كعب قدمي. هل تعتقدين أن لغتك الفرنسية التي تتحدّثينها بشكل سيّئ هي التي ستحميك مني؟ هل شاهدتِ نفسك في المرأة؟ بهذه المؤخّرة الضخمة، التي تتحرّك فلقاتها في اضطراب

شديد، كما لو كانت ثعبان كاماراالاي قطعوه إلى نصفين. فلو لم يكن الوضع داخل منزلنا يناسبك يمكنك مغادرته، وسأبصق خلفك على جنسك كله. فأنت هنا لست في منزلك، بل أنت في ضيافتنا، ثم إنك لست إلا النوع الرديء من الكونغوليّات من باكونجو“.

راشيل لم تكن قد وضعت حدودًا واضحة لهذا الرجل الممسوس الأرعن، لذلك فقد تعدّى كلّ الحدود. وقد أدركت (اللون الأصلي) أن عليها أن تغادر المكان، خاصة بعد مناقشة حادة مع صديقة طفولتها، وجدت أنها كانت تدافع عن وجهة نظر الرجل. جمعت (اللون الأصلي) أشياءها، واستأجرت في نفس اليوم، حجرة مفروشة في فندق بشارع السويس، كانت أغلب حجراته مؤجرة لنيجيريين، يعملون تجارًا متنقلين في سوق ديجان. وحيث إنها كانت معروفة لديهم كتاجرة متنقلة هي الأخرى، ضمن النساء العاملات في استيراد مستحضرات تبييض البشرة، فقد أحسنوا استقبالها.

ثم أصبحت شخصية مرموقة بين الجميع، عندما أدركوا أنها تجيد الفرنسية كأهلها، وبالتالي يمكنهم الاستعانة بها في كل ما هو ورقي، مثل كتابة الاستثمارات الرسمية، أو قراءة الوثائق والخطابات القادمة من جهات حكومية والردّ عليها. بهذا أصبحت (اللون الأصلي) الكاتب العمومي للفندق.

إلا أن الإقامة إلى جوار النيجيريّات والتعايش معهنّ، لم تكن راحة كلّها؛ إذ إن الصراعات على أشياء تافهة لم تتأخر عن الظهور لمضايقة الجميع، وللإساءة إلى الفتيات. كانت هذه المسائل التافهة تتعلق غالبًا

إمّا بالعشّاق الشباب لبعض السيّدات، أو بقيام البعض بتحضير أعمال سحرية. فبمجرّد أن تنجح فتاة نيجيرية في إحضار شاب جديد إلى حجرتها، حتى ينتشر الخبر، وتقف بقيّة الفتيات الجارات أمام أبواب حجرتهنّ، في انتظار خروج الشاب الجديد، للتنافس بينهنّ على لفت انتباهه، فقد يحصلن هنّ أيضًا على نصيبهنّ فيه، أو على الأقلّ يمكن أن يحدث هذا لواحدة منهنّ. لذلك كانت هناك شجارات ليلية، تُستدعى لها أحيانًا سيّارات الشرطة، لتوقظ الجميع بأبواقها التي تصمّ الآذان، فيتجمّع الناس خارج الفندق، لمعرفة أي نوع من المصائب قد حلّت بأهل الفندق.

إن السبب في مثل هذه التطوّرات الخطيرة، هو أن النيجيريات أثناء صراعاتهنّ المصيريّة تلك، كنّ يستعملنّ أحيانًا أدوات المطبخ في الصراعات الدائرة، مثل يد الهون المستعملة في دقّ اللحوم، ومثل الشوك والسكاكين، بل وحتى أحيانًا الصفائح الممثلة عن آخرها بالصودا الكاوية، فتنتهي هذه الشجارات بأوجه مشوّهة، وبندبات عميقة على الوجه. ووسط كل هذا أين مكان (اللون الأصلي)؟ أدركت أن عليها من جديد أن تتحرّر من هذا المكان.

ذات مرّة قابلت على سلّم الفندق، رجلًا كان عميلًا منتظمًا لدى النيجيريات، ادّعى أنه صاحب محلّ للملابس الداخلية النسائية، في منطقة الهال التجارية. لم أعرف أبدًا المدى الذي وصلت إليه العلاقة بينه وبين (اللون الأصلي)، قبل أن يعرض عليها العمل كبائعة في محلاته. عندما سألتها لاحقًا، حاولت أن تتجنّب الإجابة على مثل هذا

النوع من الأسئلة. سؤالي كان مصاغاً بهذا الشكل ”هو أعطائي وظيفة بين يوم وليلة هكذا دون مقابل؟“.

بعد حصولها على وظيفة، بدأت في البحث عن شقّة مستقلّة، تقيم فيها وحدها، بعد المعاناة التي اختبرتها في تجربتين مختلفتين، وقد عثرت على هذه الشقّة في دائرة الحيّ الثامن عشر، وبالتالي قطعت تمامًا، وبشكل نهائي، جسور العلاقة التي كانت بينها وبين النيجيريّات، اللاتي كنّ قد اتهمنها، بأنها قد سرقت منهنّ زبوناً منتظماً، كان يدفع جيّداً كل ما يُطلب منه، دون أن يُفصل.



(٦)

في المرّة الأولى التي ظهرت فيها (اللون الأصلي)، على الرصيف أمام واجهة محل الملابس الداخلية للنساء، وكنا نجلس في شرفة الحانة على رصيفها، قطعت حوارى مع أصدقائي، وتركت كوب الجعة البيلفورث، واتجهت عابراً الشارع نحوها. كنت دائماً جاهزاً لمثل تلك اللقاءات المفاجئة، بأن أكون مرتدياً دائماً الملابس والأحذية الفاخرة، بما يسهّل كثيراً عمليّات الإغواء. وقد أعجبها منظري وسلوكي هذا؛ لأنها كانت على معرفة جيّدة بعالم الأزياء الباريسية. كانت تقول إنني كونغولي حقيقي، من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، وهي تشير إلى ستراتي، وأربطة عنقي وأحذيتي.

حاولت إخفاء بعض الحقائق عنها، فهي كانت تحبّ أن تسمعني وأنا أتحدّث إليها بفخر شديد عمّا أسميته مشروعاتي. ثم بعد فترة من الحديث قاطعتني سائلة: «ماذا أنت تفعل إذن في الحانة؟». كنت قد ذكرت لها أنني أعمل وأدرس في نفس الوقت، وأنني قد وصلت إلى السنة النهائية في المدرسة الثانوية، سنة الحصول على البكالوريا

الفرنسية. أما بخصوص الحانة فقد قلت إنني أفضل المجيء هنا على الذهاب إلى الليسيه؛ فأنا لا أريد تضييع وقتي مع صبيّة في قاعة درس، بل أريد أن أعيش حياتي، وأن أتحمل مسؤولياتها، وأن أحول أجواءها إلى مرح وسعادة.

كنت قد عودتها على المرور عليها، كل يوم في محلّ الملابس، ثم حدث ذات مرّة أن غبت ثلاثة أيام متتالية، فذهبت تسأل عني بول من الكونغو الكبير في حانة جيس، فهو في نظرها أقلّ أصدقائي ميلاً إلى السخرية من الآخرين والاستهزاء بهم. أنا في أعماقي كنت أودّ لو أنها اتصلت بي تليفونياً، وهذا هو ما فعلته ليلاً، في وقت متأخر. تحدّثنا في تلك المكالمات لمدة طويلة، ويبدو أنني كنت أنجح دائماً في أن أجعلها تضحك كثيراً؛ وهو ما جعلني أروق لها وجعلها ترقّ لي، وهو مؤشّر إيجابي تماماً.

ويبدو كذلك أن لغتي الفرنسية كانت تعجبها، رغم لكتني الكونغولية الواضحة، التي كان يستعملها الكونغوليون من جيل سابق، جيل أبي وأبيها، وهو نفس جيل المدرّسين في مدرستي الأولى. لم تصرّح لي بهذا على الفور، بل أدركته وحدي عندما ردّدت مرّة، على مكالمات تليفونية من والدها، فوجدت أن لنا نفس اللكنة. لكنني في الحقيقة تعودت أن أبالغ في تحريك وتدوير حرف الراء، كما يفعل فرنسيّ فرنسا، فقط في محاولة لإرضائها. كنت قادراً على التلاعب باللكنات وباللهجات، كما هو جدير بأيّ زنجي أن يفعل، فليس من الصعب على الزنجي، أن يتلاعب بالكلمات مع زنجي آخر. هذا هو

شيء طبيعي، يحدث وحده دون مجهود.

من بين كل المطاعم الفرنسية، التي تناولنا فيها وجباتنا معًا، خلال أسابيعنا الأولى، كانت تفضّل مطعم (قَدَم الخنزير)؛ لأن لحم الخنزير هو في نظرها أفضل أنواع اللحوم. أما أنا فكانت أأسف أن هذا المطعم الجيد لا يقدّم أطباق المانيوك *Manioc*^(٤٣) الكونغولية الأصيلة؛ لأن طبق لحم الخنزير مع فطيرة المانيوك هو طبق مقدّس في المطعم الكونغولي الكلاسيكي لا يمكن أبدًا تجاهله، خاصة في القبيلة التي أنتمي إليها عرقياً، حيث يعتبر تناول لحم الخنزير دون مانيوك، أو تناول مانيوك دون لحم خنزير، هو نوع من انتهاك الحرمات المقدّسة، أو نوع من التطاول على معتقدات الأجداد. كنا إذن خلال أسابيعنا الأولى، نتناول الطعام في هذا المطعم، ثلاث مرّات على الأقل في الأسبوع، وبالتالي أصبح كل القائمين على الخدمة هناك يعرفوننا، وأصبحوا يضعوننا في أفضل الموائد، أي موائد الطابق العلوي إلى جوار النوافذ المطلّة على الشارع.

في نهايات وجباتنا، كنا نسلك دائماً نفس الطريق، ففسير في الشارع المؤدّي إلى ضفاف نهار السين^(٤٤)، حيث نجلس على الرصيف الحجري ونثرثر. كنت أطلب منها أن تفتح عينيها جيّداً لتتمتّع بالمنظر، الذي حاول شاعر^(٤٥) من فوق جسر ميرابو، أن يذكرّ الناس الذين يمرّون فوق الجسر، أن النهر الذي يمرّ تحت هذا الجسر هو نهر السين. إلا أن الناس في مشاغل حياتهم اليومية لم يأبهوا به، بل لم يلتفتوا إليه، بسبب شدّة انشغالهم طول الوقت، بين قطارات الأنفاق، ومكاتب العمل،

وأسرة النوم، لاستئناف الدوام، يومًا بعد يوم، حتى نهاية الحياة.

في طريق العودة من رصيف النهر الحجري، كنا نتوقف في حانة سارة برنار؛ لنحتسي الكأس الأخير، ثم نمشي حتى محطة مترو (إتيان مارسيل)، ونأخذ قطار الأنفاق معًا، إلا أنني أتركه في محطة شاتودو، في حين تستمر هي فيه حتى محطة ماركاديه بواسونيار، ثم تغير الخط لتأخذ قطارات خط آخر إلى محطة ماركس دورموي^(٤٦).



في أحد الأيام وكانت (اللون الأصلي) قد أبدت رغبة شديدة في زيارة المكان الذي أسكن فيه، خاصة أنني لم أتحدث معها أبدًا عنه، وأني كنت قد زرتها مرّات في شقّتها، ومن المفروض أن تكون المعاملة بالمثل. اعترفت لها بأن السبب في أنني لم أدعها إلى شقّتي، هو أنها شقّة صغيرة ستوديو، وأني لا أقيم فيها وحدي، بل يشاركني فيها عدد من الأصدقاء، وأنها تقع في حيّ شاتودو.

وجدت أنه من الصعب عليّ أن أعترف بأننا نعيش خمسة أشخاص، في مثل هذه الشقّة الصغيرة، كما لو كنا فئرانًا. صحيح أنه كان لكلّ منا ركنه الذي يضع فيه أشياءه، وأننا كنا متفقين على نظام غذائي محدّد، بحث يتكفّل كل واحد منا في دوره، بإعداد وجبة الغداء أو العشاء للخمسة أشخاص، لكن رغم ذلك كانت المساحة المتاحة لنا ضيقة جدًا.

كنا معتادين كذلك على الذهاب إلى المطاعم الكونغولية في باريس وضواحيها، حين نشاق إلى أطباق معيّنة، ثم نحتسي الجعة البيلفورت بكميّات كبيرة حتى نفقد الوعي، ولا نعود نعرف طريق العودة إلى شقّتنا. حكيت لها أنه حدث ذات مرّة أن عدنا سيرًا على الأقدام، من مدينة سارسيل *Sarcelles*^(٤٧) في حدود باريس الكبرى، إلى شقّتنا في قلب باريس، في برد ليل الشتاء، لأننا لم نلحق بآخر قطار كهربائي للضواحي.

وعندما حاولنا الاتصال تليفونيًّا بإحدى شركات السيّارات الأجرة، لم تردّ علينا أيّ منهم؛ إذ بمجرد علمهم أننا في سارسيل ينقطع خطّ الاتصال، فكل سكّان سارسيل من العرب أو من الأفارقة، لا يمكن الوثوق فيهم؛ لأن عددًا كبيرًا منهم هم من متشرّدي الشوارع الذين لهم سوابق كثيرة في الاعتداء على سائقي سيّارات الأجرة، فبدلًا من دفع أجرة السيّارة عند نقطة الوصول، يقومون بضرب رؤوس السائقين بالهراوات، وقد لا يكتفون بذلك بل يسرقون كذلك حصىلة عملهم.

عند وصولنا إلى شقّتنا، كانت أقدامنا ثقيلة جدًّا، وكنا نحركها رغم أننا لم نعد نشعر بها، كما لو كنا من جنود مشاة حرب ١٩١٤ / ١٩١٨، عائدين مشيًا على الأقدام، مئات الكيلومترات، من ميادين المعارك. نمنا يومًا ونصف يوم.

قالت: منذ متى أنت تعيش هناك؟

قلت: أنا أعيش في هذا الاستوديو، منذ خمسة عشر عامًا، أي منذ لحظة وصولي إلى باريس قادمًا من الكونغو، كنت أنا من عثر عليه

واستأجره وحده في البداية، ثم لحق بي الآخرون واحدًا بعد الآخر، حتى أصبحنا خمسة. وكان السبب الذي جعلني أقبل هذه المشاركة في السكن، رغبتني في تقليل مصاريف المعيشة.

قالت: إن الحياة لمدة خمسة عشر عامًا في مكان بهذا الضيق، هو شيء لا يمكن لي أن أتحمّله. هل هناك فتاة من بين الأربعة المستأجرين من الباطن؟

أدركت على الفور أنها تغار عليّ، ثم ضحكت بصوت مرتفع، لأن سؤالها هذا ذكّرني بمغامرة انتهت بنهاية سيّئة. فقد حدث فعلاً - ذات يوم - أن استضفنا في الاستوديو فتاة كانت قد وصلت للتوّ من البلاد، وكانت في وضع سيّء جدًّا، لأن أولئك الذين كان من المفروض أن يستقبلوها في المطار، وكنا نعرف عنهم أنهم مخادعون واستغلاليّون من الطراز الأول، عندما رأوها ولم يكونوا يعرفونها مسبقًا، أدركوا أن بها عرج خفيف، بسبب عدم توازن في الحوض، قد يكون بسبب كسر قديم، إلا أنها لم تكن سيّئة المنظر، ورغم ذلك هربوا منها واحدًا بعد الآخر وهي لا تزال في مطار رواسي.

فقرّرت أنا أن أبسط قواعد الإنسانية، هي عدم تركها هكذا وحيدة في مطار كبير، في مدينة مجهولة تمامًا بالنسبة إليها، في عزّ برد الشتاء الباريسي، وقرّرت أن نستضيفها ولو لبضعة أيام، حتى تعثر على مكان آخر للإقامة مع فتيات، واضعًا في الاعتبار كذلك أنها إحدى مواطنات بلادي. أتساءل ماذا كان يمكن أن يحلّ بها لو لم نكن استضفناها لدينا؟ كان لديها من الذكاء ما جعلها تحتفظ ببعض أرقام هواتف بعض

مواطنيها في باريس، وكنت أنا أحد الموجودين في هذه القائمة، أما أغلب أفراد القائمة فهم إمّا أنكروا أنفسهم، أو اكتفى بعضهم بعدم الردّ على رقم لا يعرفه. تلفتني في الساعة السادسة صباحاً، فذهبت على الفور لآخذها من المطار.

بعض هؤلاء الرجال الذين وعدوا باستضافتها، كانوا قد حكوا لها عن شققهم الواسعة، المطلّة على شان دو مارس^(٤٨)، وأنهم بالتالي أثناء تصفيف شعورهم أو حلاقة ذقونهم، يستمتعون بمشاهدة برج إيفل والحدائق. تسببت هذه الخيالات في إصابة (لوزولو) وهذا هو اسمها، بخيبة أمل شديدة، عندما شاهدت الشقة الصغيرة الضيقة التي أقيم فيها، رغم أنني أقيم في باريس منذ عشر سنوات. أي كيف بعد كل هذه المدة لا أزال أعيش في مثل هذه الشقة الضيقة؟ اعتذرت لها عن خيبة أملها، إلا أنني ذكرت لها أن الحكمة التي أسير بها في الحياة، هي أنه مهما كان كوبي صغيراً، فأنا أفضله على كلّ الأكواب الكبيرة التي لدى الآخرين.

كان وجود لوزولو في شقتنا، هو السبب في تغيير بعض عاداتنا؛ إذ لم يعد نومنا عميقاً، بسبب كثرة التفكير في وجودها بيننا، خاصة عند خروجها من الحمام، أو عند نومها بصدر شبه عار لا يخفيه إلا مشدّ صدر قليل المساحة، ثم تنفرج ساقاها، ولو قليلاً، دون أن تكون تحت أي غطاء.

وكان من بيننا من وصل في هوسه بها، إلى درجة الوله التام باستنشاق رائحة ملابسها الداخلية، وهو لو كاسا Lokassa الذي كان يطلق على نفسه لقب (المهاجم الأفضل في نوعه)، ويتفاخر فيما بيننا بأن شيئه أكبر

حجمًا من أشياءنا جميعًا، وكان كثيرًا ما يقول إن شيء سريـع الانتصاب، بأسرع مما كان لو كي لوك^(٤٩) يسحب مسدّسه للتصويب على أعدائه.

أرهقنا جدًّا كلام لوكاسا عن شيء، وكيف أنه عندما ينتصب يزداد طوله بضعة مرّات، عن أطوال أشياءنا متواضعة الأحجام. هذا رغم يقيني أن من يتحدّث عن مواهب من هذا النوع، هو رجل يفتقر في الحقيقة إليها، وهناك المثل الذي يقول إن النمر لا يتفاخر أمام الآخرين بوحشيته، بل هو يكتفي بمهاجمة الفرائس غدرا. أعتقد أن لوكاسا لم يكن يفهم هذا، وكنت أنا دائم الشكّ في معدّل ذكائه. كانت لديه بعض الحيل الساذجة والألعاب الصغيرة، التي كنّا نستطيع أن نتوقّع حدوثها قبيل إقدامه عليها.

مثلاً هو كان قد ابتدأ في العودة إلى الشقّة، قبل الموعد المعتاد لعودة الباقيـن إليها، حتى يستطيع الاختلاء بلوزولو، ولو لوقت قصير، على أمل أن تنهار مقاومتها بين يديه. كان في غيابها يقول لنا: «من المؤكّد أنني سأحصل عليها لنفسـي، أنا أشعر بذلك قادماً، لأنني كلما نظرت إلى الفتاة انتصب عضوي وحده، دون أي تدخل مني من أي نوع، أنا أعرف نفسي وهذا المؤشّر لم يخدعني أبداً من قبل، فأنا عندما أنتصب لرؤية فتاة، فهذا معناه أنها حتماً ستنتهي بين ذراعيّ».

ثم قال: «فيما بيننا أيها الرجال، إنها هنا منذ عشرة أيام، ألم تشعر هي في لحظة ما أنها مشتاقة، أم إنها تنوي أن تترك جزءها السفلي يتجمّد في برد الشتاء؟ صحيح أن جهاز التدفئة الكهربائية المنزلية لدينا يعمل بكفاءة، لكن الأفضل بالطبع هي التدفئة الطبيعية، بالالتحام بين جسدين مشتاقين».

ظلّ المهاجم الأفضل ينتظر تلك اللحظة، التي ترمي فيها الفتاة بين ذراعيه، لكن هذه اللحظة لم تحن أبداً، مما جعله يتحوّل بالتدريج إلى العدوانية، وكان يظلّ طوال المساء بملامح الغضب ظاهرة على وجهه، معتقداً أننا السبب في إفشال خطّته، ثم هدّدنا بأنه لن يشارك في دفع مصاريف الكهرباء والماء، طالما بقيت هي معنا، ثم تحوّل إلى اتهامني بأنني لا أهتم باحتياجاته الجنسية، لأنني حسب قوله ”ألتقي بالنساء خارج الشقّة، في فنادق اللقاءات السريعة“.

ثم حدث في النهاية أن نجح رجل آخر في الفوز بالفتاة، التقى بها صدفة في سوق ديجان، وهو من جمهورية أفريقيا الوسطى، إذ عادت لوزولو ذات مساء وأبلغتنا بهذا الخبر، ثم ودّعتنا، وذهبت بأغراضها لتقيم مع صديقها الجديد. هنا شعر لو كاسا باليأس التام، لكنه ظلّ لفترة طويلة محتفظاً بقطعة من ملابسها الداخلية.



ذكرت للون الأصلي قائمة بأسماء واهتمامات من شاركونني السكن في تلك الشقّة الضيقة لسنوات طويلة:

- لو كاسا المهاجم الأفضل من نوعه، كان يعمل في قطاع البناء، ولم تكن لديه أوراق رسمية تسمح له بالإقامة في فرنسا، لذلك كان يتعامل مع مقاولي البناء، بشخصية رجل يدعى سيلفيو، وهو مواطن فرنسي من جزر الأنتيل^(٥٠). كان مرّتب لو كاسا كعامل بناء، يودع في حساب بنكي باسم هذا المواطن سيلفيو، وهكذا كان الرجلان يلتقيان في نهاية كل شهر، في محطة قطارات الأنفاق في شاتو دو، ويذهبان معاً

إلى البنك، حيث يقوم سيلفيو بسحب المرتّب، ويعطيه للوكاسا بعد أن يخصم منه عمولته وهي ١٠٪.

- سيرج *Serge* وكان يعمل في أحد أفرع محلات سوبر ماركت لوكير، في إحدى الضواحي الباريسية، وبفضله كنا نأكل أفضل أنواع اللحوم، كما أنه كان يحصل لنا مجاناً على أوراق التواليت والمصابيح الكهربائية، ولم يكن حراس البوابات يفتشونه، رغم أنهم يرون أنه يخفي الأشياء تحت ملابسه. هذا هو نوع من التواطؤ المشروع بين الفقراء.

- أولوج *Euloge* وكان يعمل موظف أمن في أحد المركز التجارية في حيّ بيرسي، وكان في أوقات فراغه يعزف على آلة الجيتار، مع فرقة موسيقية كل أفرادها من مواطني الكونغو. عيبه الأساسي هو تدخين السجائر المحشوة بالمواد المخدرة، في شقّتنا الصغيرة، مما كان يجعل رائحتها تفوح في المكان.

- مونجالي *Moungali* وكان يعمل في مخازن محلات تباع الأحذية، وكنت أرفض استعمال هداياه من أحذية المخازن؛ لأنها لم تكن على نفس جودة نوع ويستون الذي أستعمله، لكننا كنا نرسلها كهدايا إلى ذويننا في البلاد.

كل هؤلاء كانوا يعتقدون، أن عملي في المطابع في إيّسي لي مولينيه، ليس عملاً حقيقياً، بل هو مجرد قضاء لبعض الوقت، في مكان أتظاهر فيه بالعمل، ويتناسب مع رغبتني في الكسل والنوم، ولم يكن هذا بعيداً عن الحقيقة، لأن عملي في المطابع كان بسيطاً جداً، إذ كان يقتصر على مجرد فكّ الأغلفة الكرتونية، أو الأغلفة من الورق المقوّى، التي

تُلَفّ فيها الكتب والمجلات، تمهيدًا لنقلها إلى السيّارات التي ستقوم بتوزيعها على مكتبات باريس.

عندما ألحّت (اللون الأصلي) عليّ في زيارة الشقّة، لمعرفة حقيقة أحوالي المعيشيّة، رفضت رفضًا قاطعًا؛ موضّحًا لها أن هذه الشقّة بالنسبة لي، ليست إلا مكانًا للنوم. لم أوافق أبدًا على أن تحضر لتشاهد بنفسها ما تسمّيه هي أحوالي المعيشيّة؛ إذ إنها كانت حتمًا ستصاب بالدوار وتفقد وعيها، لو جاءت ورأت المكان الذي يشبه حظيرة الخنازير، رغم أنني كنت دائم الظهور أمامها نظيفًا أنيقًا مرتّبًا، أرتمي أغلى الملابس التي تُباع في فرنسا.

لم تكن لدينا مقاعد، ولم تكن لدينا مائدة، لم تكن هناك إلا مراتب نفرشها ليلاً على الأرض، ونجمعها في الصباح، ونضعها في أحد الأركان، حتى نجد متّسعًا لحركتنا أثناء النهار. وحتى أمنعها من الحضور لمشاهدة هذه الفضيحة، كنت أذهب إليها أنا في شقّتها كلّ يوم، وهي الشقّة التي عشت فيها معها بعد ذلك، وأنجبت فيها ابنتنا، ثم تركتني فيها، وهربت بابتنتنا، مع الهجين العازف على آلة إيقاع الطمطم، مع فرقة موسيقية لا يعرفها أحد في فرنسا، بما في ذلك إمارة موناكو وجزيرة كورسيكا، وهي الشقّة التي لا أزال أشغلها حتى الآن.

عندما كنت أصل إلى ممّر مدخل تلك الشقّة، التي كانت اللون الأصلي تقيم فيها وحدها، كان يحيرني صوت تنفّس أسمع خلف باب الشقّة المجاورة. وذات مرّة دار بيننا هذا الحوار:

أنا: هناك شخص ما يراقبنا من خلف باب الشقّة المجاورة، وهذا يقلقني.

هي: انسَ هذه المسألة؛ إذ إن هذا الجار لا يحبّ السود، أعتقد أن لديه مشكلة.

أنا: لكنه أسود هو الآخر مثلنا.

هي: هناك سود كثيرون لا يعرفون أنهم سود. اسمع تعال واسكن معي؛ وبذلك يمكننا أن نضايقه معًا هذا الأحمق. وهكذا سيكون لديه في البناية من بين جيرانه اثنان من زنوج الكونغو.

اعتقدت أنها تمزح، ومع ذلك حدث في اليوم التالي أنني لم أذهب إلى العمل، بل أحضرت حقائبي الممتلئة بملابسي وأخذيتي إلى شقتها. أدركت أن ذلك الجار الذي سنطلق عليه لاحقًا لقب أبقرط، كان يتابع في صمت خطوات انتقالي إلى البناية، رغم أن الصوت المرتفع لتنفسه كان مسموعًا في الممر الخارجي بين الشقق، حتمًا بسبب مشكلة لديه في جهازه التنفسي. كان على ما يبدو قلقًا، بسبب أنه كان يعتبر حضوري للإقامة في هذه الشقة، هو نوع من الهجوم الزنجي على بنايته.

منذ ذلك اليوم الأول لي في تلك البناية، كنت كلما خرجت إلى الممر بين الشقق وجدته واقفًا أمامي. هل هو يقف خلف بابه طول النهار ينتظر لحظة خروجي؟ في البداية كنت أقول له: «صباح الخير»، لكنه كان يتجاهلني ولا يردّ عليّ. ثم عندما وجّه إليّ الحديث لأول مرة، كان ليطلب منّي أنا واللون الأصلي، أن نكون أكثر حرصًا أثناء ممارستنا لعلاقتنا الحميمة ليلاً في الفراش؛ إذ إن صوتنا يكون مسموعًا. ثم قال: «وعلى أي الأحوال ماذا تفعل أنت هنا؟ فما هذا المكان إلا استوديو مصمّم لإقامة شخص واحد، وليس لإقامة شخصين».

اعتدت على أن أمشي على أطراف أصابع قدمي، عند دخولي وخروجي، حتى لا يصدر عني أي صوت، وكان هذا مجهودًا ضائعًا، لأن هذا المجهود لم يمنعه أبدًا، من أن يكون واقفًا هناك في الممر في انتظاري، يتصنّع السعال كأنه يقول لي: ”أنا هنا، ولقد رأيتك“. ثم قرّرت ألا أقيم له أي حساب، وألا أعطيه أكبر من حجمه؛ فبدأت أمشي مشيًا عاديًا، بل حتى تعمّدت أن أدق الأرض بكعبي حذائي، وأنا أصفر بغمي لحناً من ألحان بلادنا، وأفتح باب الشقة بأكبر قدر ممكن من الضوضاء، حتى صرخ ذات مرة قائلاً: ”عد إلى غاباتك أيها الكونغولي“.



(٧)

بعد مرور حوالي سبعة أشهر من بدء علاقتنا، دعيتني اللون الأصلي ذات ليلة للعشاء في مطعم (إكواتور)، وهو مطعم كامبروني يقع في الحي الحادي عشر^(٦)، حيث كانت إحدى صديقاتها تعمل هناك نادلة. كانت تلك هي المرة الأولى التي تدعوني فيها للعشاء على حسابها. استقبلتنا صديقتها وأعطتنا مائدة في مواجهة كاونتر/ نضد البار^(٥١)، فمن ذلك الموقع كان يمكنها أن تضع عينيها علينا. اخترت من قائمة الطعام، أول طبق وقع عليه بصري، وهو طبق ندولي *Ndole*، وهو عصيدة السبانخ بالثوم مع لحم البقر، ولم يكن قد سبق لي أن أكلته، لكنه يشبه طبقاً نسميه الساكاساكا في الكونغو. أما هي، فطلبت طبقاً من سلطة الخضراوات مع أجنحة الفراخ.

على جدران هذا المطعم، هناك الكثير من الصور الفوتوغرافية لشخصيات عامة تناولت الطعام هنا، استطعت أن أتعرف على نامو ديبانجو، وعلى جدائل شعر يانيك نوا. كنا نأكل في صمت بدأت أشعر بثقله على كلينا. كنت أحاول أن أقرأ الأفكار التي تدور في ذهنها، فهي لم تكن معتادة على التردد على المطاعم الأفريقية. هناك شيء ما

يضايقها كنت أشعر به، كما أنني لاحظت أنها تهرب بعينيها مني. هنا
جازفت بالتخمين:

- أنت حامل؟

نظرت إلى صديقتها الواقفة عند النضد، وكانت هي تنظر إلينا،
وعلى وجهها ابتسامة تشجيع.

- هل صديقتك تعلم؟

لم تجبني حتى الآن بأي شيء.

- إذا كنت أدعي أنني أفهمك جيدًا، أعتقد أنك تريد أن نبحث
عن شقة أوسع.

قالت: ليس هناك مجال لهذا على الإطلاق؛ فالإيجارات مرتفعة
جداً في باريس. عندما سنصبح ثلاثة سنتزاحم قليلاً، وهذا هو كل ما
في الموضوع.

قلت: يمكننا أن نذهب إلى الضواحي.

قالت (بصوت ارتفع فجأة): لا تحدّثني أبداً عن الضواحي،
فالأوضاع هناك سيئة جداً.

لم أكن أعرف السبب الذي يجعلها ساخطة هكذا، على مجرد طرح
فكرة السكن في الضواحي. كان شاغلو بعض الموائد المجاورة، قد
أداروا رؤوسهم نحونا، بسبب الارتفاع المفاجئ في صوتها. اعتقدت
لوهلة أن هذا الاحتداد، قد يكون بسبب أن السيدة الحامل، تفقد
أعصابها بسهولة.

تدخّل رجل بشكل سافر، قاذفًا إيّانا بهذه العبارة: ”أنا من ساكني الضواحي، وأتساءل هل أستطيع تناول طعامي في هدوء في هذا المطعم؟“.

لم يكن مرتبّي كبيرًا من عملي في المطابع. فإذا كنت سأبحث عن شقّة أكبر، كان عليّ أن أجد مصدرًا آخر للدخل. لذلك بدأت في إجازات نهايات الأسبوع، في السفر بالقطار إلى إيطاليا لشراء ملابس من هناك، والعودة بها لبيعها في أسواق الملابس، في شوارع منطقة شاتو روج. كنت أشتري المعاطف، وأربطة العنق.

وحيث إنني كنت قد اشتهرت في هذه المنطقة بذوقي الممتاز في اختيار الملابس التي أرتديها، كان الناس سرعان ما يتجمّعون حولي، في المنطقة التي أقف لأبيع فيها، أينما كانت هذه المنطقة، حتى إنهم كانوا يتبعونني حتى باب البناية التي أسكن فيها؛ إذا عرفوا أنه لا تزال معي ملابس لم أبيعها، أو ينتظرون نزولي واقفين أمام باب متجر عربي الناحية.

كان شركائي السابقون في الشقّة القديمة، يأتون لزيارتي في سكني الجديد مع (اللون الأصلي)، فكنت أقدم لهم زجاجات الجعة البيلفورث. هذا هو ما أعاد إحساس جاري أبقرط بالغضب مني. فخرج ذات مرّة من البناية، قبل خروج أصدقائي من شقّتي، ووقف على باب البناية مثل الشرطي، ليطلب منهم إبراز أوراق إثبات الشخصية. مما جعلني أنفعل بشدّة عليه:

أنا: أنت لست رجل شرطة.

هو: وأنت تجلب إلى بنايتنا كل الخارجين على القوانين، المختبئين من الشرطة في فرنسا، وفي الدول الأوروبية المجاورة.

ثم سكت قليلاً وأردف: انتظر، وسترى ما سأفعله بكم.

هنا أعود إلى موضوع الطفلة التي جاءت إلى الدنيا؛ لتصبح ابنتنا أنا واللون الأصلي. أريد أن أذكر أنني منذ لحظة معرفتي بحمل رفيقتي، بدأت في شراء ملابس أطفال، وكل الاحتياجات الأخرى التي تلزم الطفل الرضيع، إذ أردت لرفيقتي أن تفهم أنني سأتحمل معها مسؤولية تربية الطفل الوليد، لأن الرجل في بلادنا هو الذي يتحمل مثل هذه المصروفات. فإذا لم أكن قد تصرفت بهذه الطريقة، لكنت قد شعرت في داخل نفسي بالحقارة، كنت سأصبح حتى غير قادر على النظر إلى صورتني في المرأة.

هذا علاوة على أنني أقرّ بأن شراء ملابس الأطفال الرضع، ليست في مقدور كل حافظة نقود، فأني رفاهية مهما كانت بسيطة تكلفك الكثير، مثلاً عربة الأطفال ذات العجلتين، تكلفك ثمن الإيجار الشهري لشقة في البلاد. يمكن لأي شخص أن ينتقطني بسهولة، فأنا بي عيوب كثيرة، لكنني فخور بأنني أنقذت شرفي كأب.

عند مولد ابنتنا، كنت أسعد أبّ في العالم، وأردت أن يعرف كلّ البشر هذا عني. لذلك دفعت ثمن طبع إعلان عن مولد ابنتنا في جريدتي ليبراسيون والباريزيان، في حين أن مولد طفل في أوساطنا الاجتماعية في أفريقيا يتمّ وسط التجاهل التام، كما لو أن الوالدين يشعران بالخزي والعار من مولد أطفالهما. كانوا يرونني في الحيّ ومع عربة الأطفال،

أو حفّاضات الأطفال التي أخرج بها من متجر عربي الناحية، الذي كان قد بدأ يتحدّث إلى ابنتي باللغة العربية، قائلاً باقتناع تام ودون أي قدر من الشكّ، إنّ الأطفال في هذا السنّ المبكّر يفهمون كلّ لغات العالم.



(٨)

في عمر ثلاثة أشهر ذهبت بابتتي إلى حانة جيس، وأريتها لأصدقائي، حتى يتأكدوا أنني فعلاً قد أصبحت أبا. كانوا قد أصروا على رؤية الطفلة، ثم اتهموني بأنني أخفي ابنتي عنهم، قائلين إن هذا هو ما يفعله أفراد قبيلتي، عند مولد طفل لأحدهم، حتى يتجنبوا الأعين الشريرة التي قد ينظر بها بعض الناس إلى الطفل، فيصيبونه باللعنات، وكنت أردّ عليهم بأنه، لو أن هذا فعلاً هو موقعي النفسي، ما كنت قد أعلنت عن مولدها في أوسع الجرائد الباريسية انتشاراً.

كان بوسكو شاعر السفارة الفرنسية، هو أول من رأى طفلي؛ إذ كان واقفاً في مدخل الحانة، وفي إحدى يديه كأس النبيذ الأحمر، وفي اليد الأخرى كتاب عن الشاعر رامبو *Rimbaud*. كانت هناك أولاً لحظة صمت، ثم ثانياً بدأ في الابتعاد عن الباب، وهو يتابع النظر إلينا، وقد تغصّن وجهه. بحركة من رأسي أشرت إليه أن يقترب، ورفعت طفلي من عربتها، وتقدّمت بها نحوه، حتى يأخذها بين يديه، بعد تركه الكأس والكتاب على إحدى الموائد. قال: (هذا لا يجوز)، ثم شرح لي أنه في بلده تشاد، لا يستطيع الرجال لمس الأطفال الرضع، حتى بلوغهم نهاية عامهم الأول.

ثم قال: لا تغضب يا صديقي، فسوف أكتب لابتك قصيدة، على نمط قصيدة (عندما يظهر الطفل) ليفكتور هوجو، التي أضمن لك أنها ستكون مسجوعة سجعاً ثرياً، من بدايتها إلى نهايتها؛ إذ إن مشكلة شعراء اليوم، هي أنهم قد تخلّوا عن كتابة القصيدة العمودية في شكل أبيات، وهكذا أصبح من السهل جداً، أن تدّعي أنك شاعر، ولم تعد هناك وسيلة للتمييز بين الجيد والردّيء.

(صمت)

قال: أين ذهبت رشاقة قصائد بول فاليري؟ ماذا حدث للعبقريات من نوع هوجو؟ ماذا فعلنا بصراحة بودلير؟ هل تستطيع أن تردّ عليّ؟ فإذا لم يعد يوجد في فرنسا إلا شاعر واحد فهو أنا. من أجل طفلتك سأبدأ على الفور في الكتابة. سأخذ قلمي بيك Bic الجاف، وأخذ قطعة ورق، ثم أبدأ في التسجيل. هل تريدها بنظام الشطرات الثمانية، أم بنظام الشطرات الستّة؟ أقول لك سأكتب قصيدتين بهذين النظامين المختلفين، اترك لي فقط بعض الوقت؛ حتى ينضج الإلهام.

لم أحصل على أي من هاتين القصيدتين حتى يومنا هذا. أما فيما يتعلّق بالكاميرون في فلاديمير، صاحب أطول سيجار في فرنسا، فقد داعب ابنتي قائلاً إنها أقلّ طولاً من سيجاريه المتّصلين بطرفيهما.

قال: لماذا أسميتها هنرييت *Henriette*؟

قلت: كان هذا هو اسم جدّتي، وهي سيدة كانت لها أهمية كبيرة في طفولتي وأفتقدها بشدّة. وكنت أذهب مع أُمّي إلى قرية لوبولو في جنوب البلاد لزيارتها، ثم ماتت عندما كنت بالكاد في السادسة من

العمر. أحتفظ لها في ذاكرتي، بصورة امرأة عجوز، جالسة على الأرض أمام باب كوخها، بعينين مرفوعتين نحو السماء، كأنها تفوّض أمرها إلى الله، فيما كان متبقيًا لها من أيام على الأرض. كانت نعجاتها، في ذلك الوقت، هنّ كاتمات أسرارها الوحيدات؛ إذ كانت ذاكرتها قد تآكلت بسبب الشيخوخة، بحيث إنها في زيارتنا الأخيرة لها، لم تعد تتذكر ابن من أنا.

حدث أن جئت نحوها قادمًا من جهة مطبخ الكوخ، فصرخت: «إنه اللصّ سارق النعاج»، وكان القرويون الجالسون حولها يقولون لها: «هو حفيدك، إنه ابن بولين كينجو، وليس سارق النعاج»، فتقول بشكّ: «ومن هي بولين كينجو؟»، وهو اسم ابنتها.

أما فلاديمير فلم يفهم حجّتي، في إطلاق اسم جدّتي على ابنتي. قال: كيف تجرّو أن تحكم هكذا بالموت على طفلك الصغيرة، بإطلاق هذا الاسم عليها؟ فمع كل تلك الأسماء الثلاثمائة والخمسة والستين^(٥٢) التي نجدها في روزنامة البيض، ألم تجد اسمًا أفضل من هذا؟ إن هنرييت هذا يليق باسم امرأة عجوز، وكان الأجدر بك أن تختار أسماء مثل جان أو شارلوت أو أوديت أو ماري، فهي أسماء أكثر شبابًا وأكثر جاذبية؛ وكان سيسمح لطفلك بمستقبل أفضل. فأنت لو كنت سألتني رأيي في هذه المسألة، لكنت قد أفدتك، لكنك أنجبت طفلك من وراء ظهورنا، ثم فوق البيعة قدّمت لها اسمًا من العصر الحجري.

ثم إذا به يخرج لي بهذه الفكرة الشاذة الغريبة:

قال: لديّ انطباع بأن طفلك هذه، ستكون أكثر سوادًا من أمها،

التي هي في حد ذاتها في قمة السواد، حتى إنه يمكننا أن نتخيل، أنكما قد تركتما هذه الطفلة في أحد الأفران حتى تفتحمت تمامًا. أعترف لك أنني مذهول، فأنا لم أر على الإطلاق طفلًا متفتحًا هكذا، ولا حتى من بين المولودين في أفريقيا، وأنت تعرف أن الأطفال السود، يولدون بلون بشرة أقل سوادًا من والديهم، ثم يزدادون قتامة مع مرور السنوات، فإذا كان لون هنرييت على هذه الدرجة من السواد الآن، وهي فقط في سنّ بضعة أشهر، فكيف سيكون لونها في مستقبل أيامها؟

أما إيف الساحل عاجي، فقد ألقى على المائدة أمامي، كتابًا بعنوان (ديون الاستعمار).

قال: كان يجب عليك أن تنجب طفلًا خلاصًا مخلطًا^(٥٣)، لذلك أقول إنك لم تفهم أي شيء عن فرنسا، ذلك البلد الذي تعيش فيه منذ سنوات طويلة، بينما أنا أكرّر أمامك، دون كلل أو ملل، وحتى آخر نفس في حياتي، أن أكثر المشاكل الملحة بالنسبة إلينا، نحن الشعوب السوداء، عدا مشكلتنا الأزلية في أننا زنوج سود، هي مشكلة كيف ننتزع من الأوروبيين التعويضات المناسبة، عن العذاب الذي جعلونا نتحمّله خلال سنوات الاستعمار. يجب أن تتعلّم كيف تغني مع المغني تون تون دافيد، أغنية (العذاب) التي تقول كلماتها

إننا في الأصل شعوب تعذّبت كثيرًا/

ولا تريد المزيد من العذاب/

إننا لم نعد نحتمل فكرة/

العمل في فرنسا كنّاسين شوارع/
في حين أننا لم نشاهد أبدًا في ساحل العاج/
فرنسيين يكنسون الشوارع/
وحيث إنهم لا يريدون/
أن يعترفوا بأننا موجودون/
معهم في نفس هذا البلد/
لذلك فهم لا يوظفوننا إلا/
في كنس الشوارع/

ثم قال: المسألة بسيطة يا صديقي، لا يجب أن نبحث عن الأماكن التي توجد فيها مصاعب، بل يجب أن نتجه فقط إلى الأماكن التي لا توجد فيها مصاعب، فكلما زاد عدد الأفارقة الذين يصاحبون فرنسيّات، ساهمنا في ترك المزيد من الأثر الأفريقي في هذا البلد، بهدف أن يفهم مستعمرونا السابقون، أنهم مضطّرون إلى الاعتراف بوجودنا، وإلى التحالف معنا؛ لأن عالم الغد سيكون ممتلئًا عن آخره بالزواج عند كل مفارق الطرق. الزوج سيصيرون فرنسيين مثلهم، سواء أرادوا هذا أو لم يريده، فإذا لم يدفعوا لنا التعويضات التي نطالب بها، عن التلفيّات التي أحدثوها في بلادنا، والفوائد التي جنوها من ثرواتنا، إذن سنسعى جاهدين بكل الوسائل الممكنة، إلى تحويل كل أطفال فرنسا إلى أولاد حرام غير شرعيين، وبالتالي فأنت لم تفهم أي شيء، أنت حتى لا تنصت الآن إلى ما أقوله لك، أنت تثبت لي الآن أن الكونغوليين هم أكثر أهل

قارتنا بلاهة، وأنهم يصرخون كثيرًا، ولا يفعلون شيئًا.

(أنا لا أزال صامتًا منصتًا إليه).

قل لي هل بإنتاج أطفال مثل طفلك يتحسن وضع قضيتنا، هذه الرضيعة لا معنى لها في نظري، بل إنها تجعلنا نعود مئة عام إلى الوراء، ماذا سيكون مصيرها في هذا البلد الذي سيعاملها طوال حياتها كمهاجرة لاجئة؟ أنا عندما أتكلّم أقول ما أريد قوله بشكل مباشر، فإذا كنت لا تتفق معي في الرأي، فلتفعل ما تشاء، أما بالنسبة لي، فإن هذه الطفلة هي لا شيء، ولن يكون لها في اعتقادي أي وجود حقيقي، ستكون مجرد صفر.

أما روجيه الفرنسي الساحل عاجي، فإنه دار دورة كاملة حول عربة الرضيعة، واقترب بأنفه من رأسها، كما لو أنه يبحث عن شيء لا أعرف ما هو، وقد رآه الجميع وهو يقوم بما يشبه عملية التفتيش تلك، ثم جذب العربة نحو الباب، على ما يبدو للحصول على إضاءة أفضل. تساءل بول من الكونغو: «ماذا يفعل هذا الروجيه؟»، ثم رفع روجيه قبعة طفلي عن وجهها، ليتمكن من تأمل رأسها، ثم قال: «انتظر يا خبير الأرداف، هل أنت متأكد أن هذه الطفلة، التي نحن بصدددها هنا، هي طفلك؟».

هنا أطلق إيف الساحل عاجي هذه الصيحة، نحو مواطنه النصف ساحل عاجي، قائلاً: «برأيك أنت أيها الألمعي، من بين كل هؤلاء المتواجدين هنا في هذا المكان، من يستطيع أن ينجب طفلة في سواد مثل هذه الطفلة؟».

كان هناك على الدوام، نوع من الصراع أو التخاصم، بين هذين الاثنين، حتى إنهما كانا أحياناً يخرجان من الحانة، ويذهبان مشياً على الأقدام إلى منطقة النافورة في حيّ الهال التجاري؛ حيث توجد مساحة كافية من الأرض الفضاء للشبابك بالأيدي. بعد أن كان روجيه الفرنسي الساحل عاجي، منحنيًا على عربة طفليتي، استردّ وضعيّة الوقوف منتصبًا، ثم وجّه نظره عدائية نحو خصمه الأبدي.

قال: أنت أيّها الإيف الساحل عاجي هل أنا الآن هنا أتحدّث إليك أنت؟ هل سبق لك أنت أن عرضت علينا هنا طفلة من ذرّيتك؟ أنا الآن هنا أوجّه هذا الحديث إلى خبير الأرداف، لا إليك أنت، فأنت في نظري غير موجود، فاذهب إلى منزلك، واجلس فيه منتظرًا أن تدفع لك فرنسا التعويضات عن سنوات الاستعمار، فأنت تتكلّم أمامهم كما لو أن والديك لم يكونا من بين المتعاونين مع المستعمرين الفرنسيين، ومن بين أكثر المستفيدين منهم، فإذا كان الآخرون لا يعرفون هذا، فأنا أعرفه. أنا لو كنت وزير الهجرة والأحوال الشخصية الفرنسي، لسحبت منك على الفور أوراق إقامتك في فرنسا، وأعدتك إلى ساحل العاج؛ لعلّك تكون سعيدًا هناك.

خرج إيف الساحل عاجي من حانة جيس، وهو يسبّ مواطنه النصف ساحل عاجي النصف فرنسي، وقد وقف في وسط المكان قبل أن يخرج، وقال هذا الكلام بصوت مرتفع سمعه الجميع، كأنه يلقي بخطبة أمام حشد من الناس.

قال: هذا الزنجي الأبيض يثير أعصابي، لذلك أغادر هذا المكان

الآن، لأنني إذا لم أفعل؛ فستنتهي الأمور نهاية سيئة. ونحن لن نكسب قضيتنا الوطنية بهذا النوع من الرجال المخلّطين، غير المخلصين للقضية، فبينما نحن نطالب بحقوقنا، فإن هؤلاء الرجال الهجين يبيعوننا في المزاد، كما كان يحدث في زمن العبودية. هذا الشخص لن يفهم أبداً صراعنا؛ لأنه لا يزال عبداً يُباع ويُشترى، مثل غيره من الهجين. فعندما يكون النظام ضدّ السود، يقول في نفسه إنه أبيض، وعندما يُنكره البيض، ويدّكرونه أن الهجين هو في الحقيقة زنجي، مثل أي زنجي آخر، يعود إلى مكانه وسط الزوج. إن روجيه هذا الذي ترونه الآن هنا في هذه الحانة، هو فرنسي نهاراً، وساحل عاجي ليلاً، ولا يحدث العكس أبداً. وأنا أريده أن يكون ساحل عاجي نهاراً وليلاً، أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، سبعة أيام في الأسبوع، وأن يتوقّف عن أن يلعب معنا لعبة النفاق هذه، فإنه ليس إلا عبداً يتواطأ مع تجّار العبيد. روجيه الفرنسي الساحل عاجي لم يردّ على هذه الهجوم، لأن هذا بالنسبة إليه هو الشيء المعتاد، لكنه استدار نحوي.

هو: أليست هناك دماء حارة تجري في شرايين جسدك أم ماذا؟

أنا: لماذا؟

هو: كيف تكون لك طفلة لا تشبهك؟

وبصوت هادئ طلبت منه أن ينظر إلى أصابع قدمي طفلي، ثم خلعت حذائي وجعلته ينظر إلى أصابع قدمي
أنا: انظر، إن لنا نفس أصابع الأقدام.

هو: إن الاستدلال بأصابع الأقدام هو فقط للمغفلين من أمثالك، أو إنه كان يحدث فقط عندما كانت الجدّات يردن التعلّق بالأشياء الواهية. أما في حالتك أنت، فينبغي الحصول على دليل محدّد، قرينة أصيلة لا يمكن إنكارها.

في هذه اللحظة استيقظت طفلي، وبدأت في البكاء، فأخذتها بين ذراعيّ لتهدئتها. ثم أخذني بول من الكونغو الكبير من ذراعي، إلى ركن في الحانة، وقدم لي زجاجة عطر للون الأصلي، هدية بمناسبة مولد الطفلة. وفي محاولة منه لتخفيف وقع كلمات الآخرين

قال: لا تنصت إلى ما يقوله لك هذا المعتوه الفرنسي الساحل عاجي، فالملك سليمان سبق له أن قال، إن الطفل هو في النهاية مجرد طفل، سواء أكان لونه أحمر أو أصفر أو أخضر أو كستنائي. ألم تسمع هذه الكلمات في أغنية فرنسيس بيباي *Bebey*، التي يقول فيها أيضًا، وهو محقّ تمامًا، إن المرأة هي المصدر الذي يأتي منه كل الأطفال، وبالتالي فنحن لا يمكننا أن نشير دائمًا الشكوك حول من هو الأب، فزوجيه نفسه ليس متأكّدًا من مسألة إن كان هو فعلاً الابن الشرعي لمن يعتقد هو أنه والده.

هنا لحق بنا بيار لوبلان في الركن حيث كنّا، ودعاني إلى أن أحتمي معه ثلاث زجاجات جعة بيلفورث، أحضرها إلى مائدة في نفس الركن. قال: اشرب من أجلي هذه الزجاجات الثلاث، الأولى باسم الأب، والثانية باسم الابن، والثالثة باسم الروح القدس، ثم ذكرني بأنه لا ينبغي أن ننسى، أن التوراة تقول إنه في البداية لم يكن هناك إلا الفعل *le*

verbe^(٣٧)، لكن الحقيقة هي أنه منذ البداية كان هناك إلى جوار الفعل، يمكننا أن نجد الفاعل والمفعول به المباشر، إلا أن الانسان - بسبب سوء نواياه - كان قد أدخل إلى اللغة الفرنسية، مفهومًا جديدًا هو المفعول به غير المباشر^(٥٤)، وسوء النوايا هو غالبًا ما يحرك عددًا من الأصدقاء في حانة جيبس.

لم أفهم بالضبط ماذا كان يريد أن يقول، لكنني مع ذلك اعتبرت أن هذه الكلمات، يقصد بها تخفيف ما قد يكون الآخرون قد تسببوا لي فيه من معاناة. لم أعد بهنرييت إلى حانة جيبس بعد ذلك أبدًا. وعندما كان أحدهم يطلب أن يراها، كنت أردّ بأن طفلي ليست عيّنة للعرض في معرض المتبجات الاستعمارية.



الفصل الثاني

(١)

لم أكن قد اعترفت بعد لعربي الناحية، أن رفيقتي (اللون الأصلي) قد عادت إلى البلاد قبل بضعة أشهر. يومًا ما ينبغي أن أعترف له بهذا؛ إذ لم تعد لديّ أي ذرائع أتحدّج بها، حتى أتمكن من تبرير اختفائها. لكنني كنت أوجلّ هذا الاعتراف، لأنني كنت واثقًا من أن هذا سيتسبّب له في أزمة قلبية. عندما أكون في متجره يكون هو المتحدّث وحده دائمًا، فهو لا يترك لأي شخص لحظة صمت واحدة، هو لا يصمت ثانية واحدة، حتى يستطيع أي شخص أن ينطق أمامه بكلمة واحدة. هو يحتكر الحديث بأكمله له وحده. ثم في نهاية هذا التحليق الخطابي، قد يحدث أحيانًا أن يسألني عرضًا عن صحّة المولودة، ثم عن صحّة الأم، فأجيب دائمًا بنفس الشيء «هما في إجازة في الكونغو».

كلّ مرّة كنت أذهب فيها إلى متجر عربي الناحية، كان يبدأ على الفور في الكلام، كأنه يستأنف الحديث الذي انقطع بالأمس، أو في اليوم السابق عليه، كأنه يتحدّث إلى نفسه، فهو لا ينتظر منك أي إجابات، حتى لو سألك أسئلة مباشرة، فهو لا ينتظر منك الإجابة، بل يقوم هو متطوعًا بالإجابة عنها بنفسه. ثم إنه يستعمل كثيرًا لغة الوجه،

مثل تحريك حاجبيه إلى أعلى وإلى أسفل، مع إضافة بعض الحركات يديه هنا وهناك. كنت بمجرد مروري أمام عتبة باب متجره، كان يجب عليّ أن أتوقع أن أبقى هنا لمدد غير محدّدة، قد تصل في كلّ مرة على الأقل إلى عشرين دقيقة، أنصت باهتمام إلى كل ما ينوي أن يقوله لي.

أعرف أنه ينبغي عليّ العثور في أقرب وقت ممكن، على مبرّر قوي لاختفاء ابنتي وأمّها، أو على دليل مادي قوي أثبت به كلامي. هذه هي كلمات جاري في الطابق السابع، وهو رجل شاب لديه أم تعيش في (شامبانياك دو بل إير)، التي يستعملها عندما يتحدّث عن أمه، وعن مرضها بالسرطان، ومعاناتها من سكرات الموت. (دليل مادي قوي) هي العبارة المتكرّرة على لسانه، بصرف النظر عن الموضوع الذي نتحدّث فيه.

كانت خطّتي هي أن أحلّ المشكلة فقط عند ظهورها، ولا أبالي بها طالما أنها لم تظهر بعد، أي أن أبحث عن تبرير لاختفاء ابنتي وأمّها فقط عندما يلحّ عليّ أحدهم بالسؤال، وهو ما لم يحدث بعد. أنا أجد أنه من غير المنطقي أن أقول له دون تمهيد: «كنت أكذب عليك حتى هذه اللحظة، عندما كنت تسألني عن أخبار طفلي ورفيقتي، ففي الحقيقة أنهما منذ زمن طويل، قد عادا إلى البلاد، مع ذلك الهجين الذي لا يساوي شيئاً». ليس من المجدي استباق الأحداث، ولن أعترف له بأي شيء؛ إذ إنها مسألة تتعلّق بالكرامة والشرف.

من مكانه في متجره - حيث يقف خلف صندوق الخزينة - يستطيع أن يرى كل من يخرج من البناية أو يدخلها، لأن متجره يقع في مواجهة

مدخل البناية، لذلك كان من الأصحّ تسميته عربي الواجهة، بدلاً من عربي الناحية، لكن الناس اعتادت أن تطلق هذه التسمية، على كلّ التجار من ذوي الأصول العربية، الموجودين في كل أحياء كل المدن الفرنسية، ولست أنا المسؤول عن القيام بثورة لغوية جذرية، لمحاولة إصلاح هذا الخطأ القديم الجذور، هكذا بسهولة كما لو كنت أطرّع إصبعي.

فلو بدأنا في محاسبة اللغة الفرنسية، على كل المظالم التي كانت هي سبباً فيها، ومن بينها الإساءات اللفظية في حقّ بعض الفئات الاجتماعية؛ فهي قصّة لا نهاية لها، وستقع بسببها حروب أهلية، في كل المناطق التي كانت ضمن حدود الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، بل حتى في بلاد الغال القديمة، حيث يمكن أن تتطايّر الإساءات اللفظية في شكل أشلاء، ثم تسقط بسهولة في قبضة الحكم الروماني، وستكون هناك ملفات قضايا لا حصر لها، يمكن جمعها بالمجارف، مثلما تجمع الأوراق الجافة الميّتة المتساقطة من الأشجار.

في تلك الحالة لن نعود نعرف من يطالب بماذا، ولا إلى أي مرحلة تاريخية في الأزمان الماضية، تعود هذه المظالم أو تلك. وهذا يعني أن أساتذة الدراسات العليا في الجامعات، سيجدون الكثير من الدراسات العبثية، التي يمكنهم أن يشغلوا بها كل أوقاتهم الوظيفية، بل حتى كل أوقات فراغهم من الأعمال الوظيفية. وأتخيّل أنه حتى المومسات، يمكنهنّ أن يرفعن قضايا ضدّ اللغة الفرنسية، التي أساءت إليهنّ في الماضي إساءة بالغة، فإنهنّ سيقبلن مثلاً:

- لماذا تكون عبارة (رجل شؤون عامة)، هي إشارة إلى شخصية هامة في الدولة، في حين أن عبارة (امرأة شؤون عامة)، لا تشير إلا إلى أن صاحبيتها تمارس الدعارة؟

- ولماذا تكون عبارة (رجل نساء) هي دلالة على أن الرجل هو خبير في المسائل النسائية، في حين أن عبارة (امرأة رجال)، هي دلالة على أن المرأة تمارس الدعارة؟

- ولماذا تكون عبارة (رجل بلاط ملكي)، دالة على رجل من أقرباء الملك، ويعمل مستشاراً له، في حين أن عبارة (امرأة بلاط ملكي)، دالة على امرأة تعيش في البلاط، بشرط أن تكون متاحة لكل رجال البلاط في كل وقت؟

لا، لن أكون أنا من يبدأ هذه المعركة. لذلك سأقول أنا أيضاً (عربي الناحية)، رغم أن متجره يقع في مواجهة مدخل بنايتنا، في حين أن من يشغل زاوية الشارع، هو محلّ يعمل صاحبه في إصلاح أقفال الأبواب، وهو فرنسي من الطبقة المتوسطة، التي لم يعد أصحابها يظهرون وفي أيديهم رغيف الخبز الفرنسي الطويل، وعلى رؤوسهم القبعة المقعّرة الخاصة برجال إقليم الباسك.

فإذا كنت تعتقد أنك تستطيع، أن تمرّ أمام باب متجر عربي الناحية، دون أن تلقي عليه التحية المعتادة للصباح أو للمساء، فأنت واهم. فهو سيخرج على الفور من متجره، وسيوبّخك بخشونة على سلوكك الفظّ المستهجن. حتى إذا قلت في نفسك إنه لن يراني فهو يعطي ظهره للطريق، وأستطيع أن أستغلّ هذا الوضع وأتسلّل من البناية دون أن

يراني، فأنت واهم لأنه سيستدير في اللحظة المناسبة، ويضع يده على ظهرك قبل أن تتسلل؛ إذ يبدو أن لديه عين ثالثة في قفاه. ومثل كل عرب النواحي، هو لا يغلق متجره قبل وقت متأخر من الليل، ليس قبل الواحدة صباحًا، فحياته هي متجره، ومتجره هو حياته.

أما الأطفال الذين يخطفون الموز من واجهة المتجر، فهو يراهم ولكنه لا يقول شيئًا، منتظرًا أن يأتي أحد الوالدين يومًا إلى متجره، فيعطيه درسًا في كيفية تربية الأولاد؛ لأنه إذا كان الأولاد يسرقون، فذلك لأن آباءهم وأمهاتهم فشلوا في تربيتهم، وهنا لا ينبغي إدانة الأولاد، بل إدانة الآباء والأمهات.

كان العربي يأكل في متجره، وهو واقف خلف صندوق الخزينة، ويصلي في متجره وهو راکع، وهنا كذلك كان يقرأ قرآن المسلمين الكريم. كنت أتساءل أين يذهب إلى دورة المياه لقضاء حاجاته الطبيعية، فإنه إذا كان كائنًا بشريًا مثلنا، فمن الطبيعي أن تكون له في بعض ساعات النهار، حاجاته التي ينبغي لقضاءها الذهاب إلى دورة المياه. لكنه أبدًا لا يترك مكانه، غير مستعد لفكّ حصره، وغير مستعدّ للشعور بالتعب، ممتلئًا بالنشاط والطاقة طول الوقت.

هو أصلع الرأس، وبذقن صغيرة رمادية اللون، وبطن ممتلئ قليلًا. لديه بضع شعيرات طويلة تخرج من أذنيه، وهو يشدّها بين وقت وآخر، عندما يكون في سبيله إلى التحدّث إليك.

بعض سكّان الحيّ يشترّون بالآجل لديه، وقد صنع لهم دفترًا كبيرًا يسجّل فيه أسماءهم وأثمان مشترياتهم، ولاحقًا أصبحت أسماء من

اعتادوا على تأجيل الدفع، تكتب باللون الأحمر. هو يطلق على الجميع لقب (الصحاب)، أما أنا فيطلق عليّ لقب (أخي الأفريقي).

وإليكم الآن هذه المحاضرة الطويلة، التي طالما أعادها على مسامعي، في الدفاع عن أفريقيا، وعن المواطن الأفريقي، حتى حفظتها عن ظهر قلب بكلّ تفاصيلها.

أولاً: فوفقاً لما يقوله، فإن أفريقيا هي أرض التعاون المتبادل بين البشر، هو يستعمل كلمة التعاضد، وهو يدرك أن الأفريقي كان أول إنسان على الأرض^(٥٥)، كان أباً لكل البشر، وكل الأجناس البشرية الأخرى أتت من ذريته، لذلك يقول عربي الناحية إن كل البشر في نظره هم مهاجرون من موطنهم الأصلي، باستثناء الأفريقي الذي لم يغادر موطنه الأصلي. يقول عربي الناحية إن الحضارة المصرية هي بفضل الجنس المصري الأسود^(٥٦)، الذي ركب مياه النيل صاعداً فيها، ونشر الحضارة معه إلى مناطق وسط أفريقيا.

ثم يهمس في أذني قائلاً: إن الدول الغربية يا أخي الأفريقي، لا تضع هذه المعلومات في مناهج مدارسها، لأنها ستجعل الجميع يعيدون النظر في الكثير من المسائل الأخرى، والأكاذيب ذات الروائح النتنة، التي قام الغربيون بحشو أدمغتنا بها.

ثم يسألني أتعرف من هو ذلك الأفريقي الأسود، الذي نطق بهذه الكلمات الشجاعة؟ إذ إن الحقيقة هي أنه ليس من السهل على أي أفريقي، أن يقول للأوروبيين إنهم ليسوا إلا حفنة من المهاجرين، وإن قارتهم التي يفتخرون بها وبحضارتها، هي في الحقيقة حضارة بفضل أفارقة جاؤوا إليها في أزمنة قديمة.

أعتقد أنه ذلك المؤرّخ والباحث الكبير من السنغال، الذي لا أتذكّر الآن اسمه، رغم أنه كان للتوّ على طرف لساني، ولكنه سيعود حتمًا وحده إلى الذاكرة، على أي حال، كل السنغاليين يسمّون (ضيوف) أو (ضيوب)، هذا هو اسم العائلة أو اللقب الذي يحملونه جميعًا، ويكفي فقط بعد ذلك أن تضيف إليه الاسم الأول، وهذا شيء بسيط جدًّا كما ترى، وهو معروف للكلّ.

ثانيًا: هذا السنغالي الذي نحن بصده، كان قويًّا جدًّا يا أخي الأفريقي، فعندما قدّم للبيض الأدلّة العلمية الدامغة، على أنه كان هناك الكثير جدًّا من السود في مصر القديمة، وأنهم كانوا من بين قادة المصريين ورؤسائهم في كل المجالات، رفضت أوروبا رفضًا قاطعًا الاقتناع بنظرياته، وادّعت أن السود لا يمكن أن يكونوا قادرين على بناء مثل هذه الأهرامات، وأن السود كانوا ملعونين في كل كتاب، منذ أقدم الأزمنة التوراتية، أي منذ أن ارتكب شام جرمه الأكبر، إذ شاهد والده نوح عاريًا ولم يدر رأسه، ومن المعروف أن شام هذا أحد أبناء نوح، كان أسود البشرة^(٥٧).

وهكذا سيعتاد التراث الشفهي في حضارات قديمة مختلفة، أن يقول إن الرجال السود في العالم كلّ من نسل شام ملعونون إلى أبد الدهر، وإن علامة هذه اللعنة هي أنه ستكون لهم أعضاء تناسلية طويلة جدًّا، لدرجة أنه لن يكون أي سروال قادرًا على تغطيتها بأكملها، مهما كان طويلًا، بل ستبدو دائمًا بعض أجزاء تلك الأعضاء، وإنهم -لهذا السبب- سيكونون دائمًا مفضوحين.

ثالثاً: كان المؤرّخ السنغالي يحارب مثل هذه الخرافات، التي صدرت أحكام مسبقة بها من أطراف عديدة؛ لذلك رفض الأساتذة البيض من القائمين على أمر جامعة السوربون، أن يعرض نظريّاته العلمية فيها. هنا دعني أسأل ضميرك، هل تجد أن هذا التصرف من قبل بعض البيض أمراً طبيعياً؟ ثم ما هو في اعتقادك السبب الذي يجعل الأوروبيين يتعاملون بهذه الطريقة مع الأفريقيين؟

إذن سأقول لك ما هو هذا السبب. فإذا اعترف الأوروبيون بوجود سود في حضارة مصر القديمة، يتميّزون بالذكاء وبالقدرات القيادية، فإن عليهم كذلك الاعتراف، بأن الفلاسفة الإغريق الذين ذهبوا للدراسة في جامعات مصر القديمة، نقلوا أفكار الأساتذة السود إلى بلاد الإغريق، وهي الأفكار نفسها التي بنى عليها الأوروبيون حضارتهم الحديثة في عصر النهضة. لهذا السبب تصرّ أوروبا على أن تقول أمام العالم أجمع، إن مصر القديمة لم تكن أفريقية، بل إن مصر القديمة لم تكن بينها وبين أفريقيا أي صلات. لكن العالم أجمع يعرف الآن أن أوروبا كانت تملأ أدمغة الكلّ، بالكاذيب وبالأفكار ذات الروائح النتنة.

انتهت المحاضرة.

أتذكّر أنه عند مولد طفلتنا، فإن عربي الناحية، قد جاء بنفسه إلى شقّتنا، ليحضر هداياه إلينا، من زجاجات المياه المعدنية، وعلب مسحوق اللبن، وحفّاضات الأطفال. لم أكن أصدّق أنه على هذه الدرجة من الكرم ومحبة الناس، لذلك اعتقدت أنه يتخلّص بهذه

الهدايا، من بعض بضاعته المعطوية، مثلما تفعل بعض الدول المتقدّمة، عندما ترسل أدويتها منتهية الصلاحية، إلى الدول الفقيرة. لكنني كنت مخطئاً في ظنوني، بل أكاد أقول إنني كنت مضطرب التفكير، عندما شككت في كرم وسخاء عربي ناحيتنا.

لقد طرق بابنا، وجلس معنا لبعض الوقت، نتبادل أطراف الحديث، ثم أنعم علينا ببعض دعاياته الساخرة، التي تدور غالباً حول علاقات العرب باليهود. لذلك كان ينبغي علينا حتى أن نفتعل الضحك مجاملة له؛ لأننا لم نفهم أغلب تلك الدعايات. لم يكن من الصعب على رفيقتي السابقة أن تضحك، إذ كانت تضحك بسهولة، أما أنا فكنت إذا ضحكت، فإني أضحك على طريقتهما في الضحك.

من بين ما قاله لنا إنه نصحننا بضرورة البحث عن شقّة أوسع، وبرّر كلامه هذا بأن طفلتنا، عندما تبدأ في الحركة على أطرافها الأربعة، ستحطّم في طريقها كلّ شيء؛ لأن الأطفال يحبّون القفز في كل مكان حولهم، لاكتشاف العالم المحيط بهم، وإن هنرييت في مثل هذه الشقّة الضيّقة، ستشعر سريعاً أنها محبوسة في قفص.

ثم وعد بمساعدتنا في العثور على شقّة أوسع، مستعيناً بأصدقائه العرب العاملين في قطاع البناء. إلا أنه أخطأ وذكر أن السكن الجديد غالباً سيكون في الضواحي، هنا انفجرت فيه اللون الأصلي، رافضة تماماً مجرد ورود هذه الفكرة على خاطره^(٥٨). كان يكفي لرفيقتي السابقة أن تسمع كلمة (الضواحي) منطوقة أمامها، حتى تصيبها الحمى؛ ويظهر الطفح الجلدي على بشرتها.

استمرّت هدايا عربي الناحية لنا بين وقت وآخر، وكان هذا قد بدأ بضايقتي، ولكنني لم أعرف كيف أعبر له عن هذا الضيق دون أن أغضبه. كنا نأخذ هداياه ونضعها على الأرفف. كانت اللون الأصلي مسرورة، أما أنا فلم يكن هذا هو شعوري. وحتى تريح ضميرها كانت تقول: لماذا تشغلك هذه المسألة؟ ثم إننا لم نطلب منه أي شيء، بل هو يفعل هذا من نفسه. هو يفعله من أجل طفلتنا، لأنه مكتوب في التوراة، أو قد يكون هذا في القرآن، إن الأطفال كائنات مقدّسة، وإن مملكة السماوات هي من أجلهم. هو يعرف أنه إذا أعطى للأطفال، فإن الرب سيردّ له هداياه مضاعفة. هذا إذا لم يكن يفكر في ضرورة الذهاب بعد الموت إلى الجنّة، حيث تستقبله العذراوات الجميلات، مكافأة له على الخير الذي يفعله في دنياه.

أنا (صائحا): لسنا وحدنا من لديهم أطفال في الحيّ، فلماذا لا يقدم هداياه إلى أطفال الآخرين كذلك؟

هي: لسبب بسيط، وهو إننا نسكن في مواجهة متجره، وفي الطابق الأرضي، ومع ذلك فقد سبق لي رؤيته، وهو يعطي الموز والحلوى إلى أطفال الآخرين.

* * *

ثم حدث تطوّر جديد. إذ كنت عندما أدخل متجره أجدّه مهتاجا. يمسك بعبوات زجاجات الجعة البيلفورث، لا يريد أن يعطيها لي قبل أن أتوقّف قليلا وأنصت لكلامه. يبدأ في الشكوى من أن النقود منذ

بداية عصر اليورو، لم تعد لها نفس القيمة التي كانت لها من قبل في عصر القرنك^(٥٩). ثم ينتقل إلى الشكوى من أن سلاسل المتاجر الكبيرة قتلت المتاجر الصغيرة. ثم ينتقل دائماً بنفس هذا الترتيب، إلى الحديث عن أفراد عائلته الكبيرة، الذين لا يزالون يعيشون في البلاد، وعن المنزل الكبير الذي يبنيه هناك الآن. ثم ينتهي بالحديث عن موضوعه المفضل، وهو التنافس غير المشروع بين متاجر الحي الصغيرة فيما بينها، خاصة بينه وبين التجار الباكستانيين والصينيين.

وإليك الآن هذه المحاضرة الجديدة.

أولاً: لم تعد التجارة كما كانت، عندما جئت إلى فرنسا لأول مرة. الآن أصبح عدد التجار أكبر من عدد الزبائن، فهذه هي العولمة، أن تجد باكستانيين وصينيين في كل شارع. ماذا تريدني أن أقول لك؟ أقسم لك يا أخي الأفريقي، أن هؤلاء الباكستانيين والصينيين يشترون كل شيء، فإن لديهم المال الكافي الذي يأتيهم من بلادهم، هل تدري أنهم قد بدأوا يستقروا حتى هناك في بلدك البعيد؟ في رأيك أنت ماذا يريدون أن يفعلوا هناك، في قلب تلك الظلمات؟ ألا يعلمون أن عصور الاستعباد هناك، قد انتهت دون رجعة؟ ألا يعلمون أن المستعمرين قد جمعوا أشياءهم ورحلوا؟

أو قد يكون المستعمرون الجدد هم أولئك الباكستانيين والصينيين، الذين تراهم هنا في قلب باريس يمشون في شوارعها. إنهم ماكرون حين يقولون إنهم مختلفون عن سادتنا القدامى، وإنهم مثلاً، أنا وأنت، يأتون من بلاد تقع في العالم الثالث. فالصينيون مثلاً في أفريقيا يتظاهرون

بأنهم يبنون لكم قصورًا، ذات أفنية واسعة بها نوافير، لتعقد في قاعاتها الفسيحة المكيفة الهواء، جلسات المجالس الشعبية، ويجد فيها نواب الشعب المقاعد الجلدية المريحة. فهل هذا هو ما سيوفر الطعام لكل جائع في البلاد؟ وسيوفر السكن للطبقات الشعبية الكادحة؟ قل لي يا أخي الأفريقي. أنا أقول لك إن المستعمر هو المستعمر، حتى لو بنى قصورًا شاسعة الأرجاء، لتكون مجالس شعبية.

الآن سأشرح لك كيف أتى الباكستانيون والصينيون إلى فرنسا، وكيف استقرّوا فيها مستعملين سياسة الطباء، وهي السياسة التي لم نكن نعرفها نحن العرب ولا أنتم الأفريقيون. هم في البداية يتناثرون في كل مكان، فلا تبدو لهم تجمّعات مكثّفة كما هي حالة العرب مثلاً، ثم هم يستقرّون في هدوء، دون أن يحدثوا أي ضوضاء، في حين أنكم أنتم الأفارقة، ونحن العرب، عندما نصل إلى مكان، فإن أول ما يشير إلى وجودنا، هو أننا نحدث أكبر قدر من الضوضاء الممكنة، التي نزعج بها جيراننا، بأبسط الوسائل المتاحة.

ثانيًا: هناك عنصر آخر هام جدًّا، فنحن لا نراهم أبدًا في نشرات الأخبار التليفزيونية الساعة الثامنة مساءً؛ فهم لا يحرقون السيّارات مع المتمرّدين، ولا يشتركون في الإضرابات مع غيرهم من المهاجرين، مثلما يفعل العرب والأفارقة، بل إنهم يتسمون دائمًا لكل الناس، وهذه الابتسامة هي مفتاح النجاح في مجال الأعمال الحرّة. أنا أعتقد أنه لو أن ذوي الأوضاع غير القانونية في هذا البلد، يجيدون الابتسام في وجه الموظفين العموميين، لما طلب أحد منهم

مغادرة فرنسا، والعودة إلى بلادهم في أول موعد لطائرات الرحلات الشارتر غير المنتظمة. أما الباكستانيون والصينيون، فهم إذا عادوا يومًا إلى بلادهم، فسيكون هذا فقط لقضاء إجازاتهم السنوية، فإنهم يأخذون أماكنهم في الدرجة الأولى الممتازة في الطائرات، درجة رجال الأعمال.

هنا ينقطع سيل الاسترسال في المحاضرة، فأفكر في أنني أنصت إليه، وأنا أكبر بصعوبة جماع نفسي، من فرط نفاذ الصبر، ولكنه لم ينتهِ بعد من إلقاء مهاراته، لا محاضراته.

هو يستأنف: ثالثًا استيقظنا ذات صباح، وذهبنا نفتح متاجرنا، في شوارعنا، ففوجئنا بأن الصينيين والباكستانيين، قد سبقونا إلى شوارعنا، بعد أن كانوا قد اشتروا كل ما كان متاحًا للشراء فيها، من متاجر وشقق، دون أن يأخذوا قرضًا واحدًا، من أي بنك فرنسي، لأن هؤلاء الناس لديهم بنوكهم الخاصة بهم في بلادهم، هي التي قَدِّمت لهم القروض التي يحتاجونها. أما وضع الجزائريين في فرنسا فهو مختلف، فأنا مثلاً عندما أطلب قرضًا من بنك فرنسي، فهذه هي بداية قصّة طويلة من المعاناة.

هم يسألونك عن كلّ شيء، حتى إنه لا يعود باقيًا أمامهم، إلا أن يسألوك، هل تأكل طعامك بأصابعك، أم أنك تعرف كيفية استعمال الشوكة والسكّينة. أو يطلبوا منك الاطلاع على رخصة قيادتك للدراجة الهوائية. لذلك فالنتيجة النهائية هي أنه لم يعد هناك تجّار من أصول عربية يفتحون متجرًا مثل ذلك الذي أقف أنا فيه. نحن نشبه آخر قبائل

الهنود الحمر، التي تكفل استعمار الأمريكيين لقارتهم، بالقضاء عليهم نهائياً. هذا يذكرني بفيلم (آخر قبائل الموهيكانز)، *The last of the Mohicans*.

أقول لك إنه حتى تجارتي أنا هذه، في هذا المتجر الصغير الذي تراه أمامك، ستنتهي حتماً يوماً ما بين أسنان الصينيين أو الباكستانيين. ومع ذلك فنحن نستمر في التضحية بأنفسنا من أجل الآخرين، نحن نستمر في الوجود فقط من أجل المصلحة العامة. فأنا عندما أبيع بضائعي، لا أنظر إلى لون بشرة من أبيع له. فأنا أبيع للعرب، وأبيع كذلك للسود. أبيع لكل الأجناس التي تعيش على الأرض؛ لأن الدماء التي تجري في عروق بشر كل الأجناس، هي نفس الدماء، وتتكوّن من نفس المكوّنات. أبيع للأغنياء، وكذلك للفقراء. وأبيع للمعاقين من ذوي العاهات.

هنا ظلّ عربي الناحية صامتاً لفترة، وقد احترمت صمته ولم أنطق بكلمة. رأيت دموعاً في عينيه. ثم أدار ظهره لي كما لو كان فقط يريد إخفاء دموعه عني. ثم استدار وثبت عينيه على عينيّ، واستأنف الحديث.

رابعاً: يا أخي الأفريقي إن الوضع جدّ خطير، ويجب أن يساعد كلّ منا الآخر؛ فإن هذا البلد لا يستمرّ في الوجود إلا بفضلنا نحن العرب والسود. هل أنت تفهم المنطق في قلبي هذا؟ نحن كنّا هنا كلّ مرة دخلت فيها فرنسا الحرب، منذ بداية القرن العشرين حتى الآن، كنا نأتي نحن العرب والسود إلى هنا، ويتكوّن منا الفيلق الأجنبي في الجيش، لنقف إلى جوار فرنسا، ونقاتل في صفوف

الفرنسيين ضدّ أعدائهم، وتسيل دماء أجدادنا من أجل فرنسا. فهل حارب الباكستانيون والصينيّون من أجل فرنسا؟ هل سالت دماء أجدادهم من أجل هذا البلد؟ إن اليوم الذي قد ير حل فيه كل العرب من فرنسا، عائدین إلى بلادهم بصفة نهائية، هو اليوم الذي ستفقد فيه فرنسا كلّ شيء. وأنتم أيضًا إختوتی السود احترسوا؛ لأنه بعد رحيل العرب سیأتي الدور علیکم.

لاحظ أنهم يقولون إن هناك الكثير من العمل في سوق العمل، لمن يعملون دون تصاريح عمل، وهم يسمّون سوق العمل هذا دون تصاريح بالسوق السوداء، أنت طبعًا سبق لك أن سمعت هذا الكلام، لكنكم إذا رحلتهم، أنتم أيضًا عائدون بصفة نهائية إلى بلادكم الأفريقية، فلن يعود هناك في سوق العمل، أي عمل دون تصاريح عمل، أي أنه لن يعود هناك سوق سوداء للعمل، أي أن فرنسا ستفقد الكثير من الوظائف والأعمال، التي يشغلها الآن السود^(٦٠)، فقل لي من هو الخاسر في هذه الحالة؟

ثم إنهم يوبّخوننا على شاشات التلفزيون، وفي محطات الإذاعة، وعلى صفحات الجرائد، نحن العرب وأنتم السود، على أننا المسؤولون عن الثقب الذي حدث في نظام التأمين الاجتماعي الفرنسي، فهل نحن حقًا السبب في هذا العجز في ميزانية التأمينات الاجتماعية؟ أقول لك إنه ذات يوم قادم لا محالة، لن يكون لدينا أي أمل، إلا فيما سبق وأن أسماه المرشد المستنير الزعيم القذافي، صاحب الفكرة العبقريّة في قيام اتحاد شعوب القارة الأفريقية.

كان عربي الناحية قد ألقى عليّ هذه المحاضرة الطويلة، وهو لا يزال ممسكًا في يديه، بصندوق علب الجعة البيلفورث الصفيحيّة، التي اعتدت على شرائها منه، فاضطرت إلى استعمال أسلوب الكحة المفتعلة، في إشارة مني إلى أنه ينبغي عليه، أن يعتقني لوجه الله حتى أعود إلى منزلي. إلا أنه استرسل من جديد:

انتظر قليلًا يا أخي الأفريقي، حتى أذكر لك شيئًا مهمًا كدت أن أنساه، وهو أن هذا العالم المائل أماننا الآن، سينهار تمامًا قريبًا جدًّا، ونحن لن نستطيع أن نفعل أي شيء. أنا لا أتحدّث هنا عن ثقب موازنة التأمينات، الذي لم يره أي شخص أعرفه، ولكني أتحدّث فقط عن أشياء أراها بعيني، بل وتحدث أمامي، هنا في هذا الشارع، وأمام هذه البناية التي تسكن أنت فيها. أنا أبلغ هذا العام الثالثة والستين من العمر، وقد نشأت وكبرت في احترام تام لأبي ولأمي، وكذلك حتى للشخص الغريب، وأنا فخور بتاريخي هذا؛ إذ إن الاحترام المتبادل بين الأشخاص، هو الأساس الذي تقوم عليه المجتمعات المستقرّة.

هل أنت لا تزال تتابعني يا أخي الأفريقي؟ ما هي في رأيك، أكبر مشكلة تعاني منها فرنسا الآن؟ سأذكرها أنا لك، وأنصحك بألا تستمع إلى ما يقولونه في التلفزيون، فهم لا يقصدون به إلا التشويش على الحقائق. إن مشكلة فرنسا الآن هي في الأخلاق. إنها ليست في البطالة، وليست في عجز ميزانية التأمينات، إن مشكلة فرنسا الآن هي

في نقص الاحترام. إنه إرث كبير وقديم. ماذا يفعل شباب فرنسا اليوم؟ الحقيقة هي أنهم في كل مناسبة متاحة، يحطّمون كل ما تطوله أيديهم. ثم يعتقدون أنهم أكثر ذكاء من والديهم، فالأبناء يقاطعون الآباء عندما يحاول الآباء أن يقولوا شيئاً لأبنائهم.

ثم إن الفتيان يصطحبون صديقاتهم، والفتيات يصطحبن أصدقائهنّ، إلى المنزل حيث الأسرة والأخوة الأصغر سنّاً، ثم يذهبون أمام الجميع إلى الغرفات، حيث يمارسون الشقيلة، في حين أننا منذ خمسين سنة، عندما كنا نفكر في مثل هذه الأشياء، كنا نبحث عن مكان نخبئ فيه، حتى ولو في فتحات المجاري، لممارسة هذه الشقيلة. ثم يستمرّ الفتيان في تمرّدهم، ولا يذهبون إلى المدارس. ثم إنهم حتى لا يعرفون قراءة القرآن. أقول لك إنه الاختلال العظيم.

انظر إلى الفتيات، وكيف أنهن يخرجن من المنازل، بموافقة الوالدين أو دون موافقتهم، وليس عليهنّ إلا الملابس القصيرة جداً، والسراويل الممزّقة عند الأرداف، والقمصان الخفيفة التي تفضح الأثداء، بل وتفضح الملابس الداخلية المثيرة للأعصاب، وتملاً جلودهنّ رسوم وشم التّين. قل لي بالذمّة، كيف يمتنع الصبيان عن اغتصابهنّ؟ ليس الخطأ هنا على الصبيان، بل إن الخطأ هو على الفتيات، اللاتي يستعرضن بضاعتهم في الشوارع^(٦١).

فأنت إذا كنت تتنزّه في الشوارع ممسكاً في يدك بعظمة، فإن كلاب الشوارع إذا رأت العظمة ستجري خلفك، أمّا إذا وضعت العظمة في قاع سلّتك، فإن كلاب الشوارع لن يدركوا أن هناك عظمة داخل السلّة.

هذا هو كل ما في الموضوع. لاحظ أن هذه الكلاب يمكنها أيضًا أن تشم رائحة العظمة، حتى لو كانت مخفية في قاع سلّتك؛ لأن الكلاب الفرنسية ليست غبية بالقدر الذي تبدو عليه، فإن لدى هذه الكلاب أنوف قويّة، مثل الكلاب الأفريقية.

أنا لم أشاهد أبدًا كلبًا من أيّ جنسيّة كان، يفتح حقيبة امرأة، ليدسّ فيها أنفه، ويحصل على العظمة المخفية جيّدًا داخلها. أنا عندما أشاهد هؤلاء الفتيات الغربيات، أثناء سيرهنّ أمام متجري، وبعضهنّ يدخلن إلى متجري خصيصًا لإغاظتي، أقول في نفسي إن العالم قد انتهى إلى الأبد. أقسم لك يا أخي الأفريقي. هنا سؤال أطرحه عليك، فأنا أريد أن أعرف من هو في رأيك، المسؤول عن وقوع مثل هذه الأخطاء الأخلاقية؟ أنا أرى أن الخطأ هنا يقع على الحضارة الغربية، فهل هذه الملابس هي الحضارة والتقدّم؟ هل هذه الملابس هي التنمية البشرية؟ إنني في الحقيقة أفصّل أن يظلّ بلدي الجزائر متخلّفًا حتى نهاية العالم، لو أن هذه الملابس هي التقدّم. أتمنى ألا يسير بلدي الجزائر في نفس هذا الطريق.

كنت أوافقك على كلّ ما يقوله، على أمل أن تنتهي هذه المحاضرة الطويلة، أو هذه الخطبة العصماء.

هو: اليوم أنا أقدم لك علب الجعة هذه كهدية، بالإضافة إلى هذا الموز، ففي الحقيقة يا أخي إننا من نفس القارة.
أنا: شكرًا جزيلًا.

هو: كيف هما امرأتك وطفلتك؟ هل لا تزالان في إجازة في البلاد؟

أنا: نعم لا تزالان هناك.

هو: هما محظوظتان فمع هذا الجو السيئ هنا، لو كنت مكانهما
لبقيت هناك فترة أطول في الشمس. إن زوجتك امرأة مقاتلة، شجاعة
ومطبعة، وطول الوقت لا تنشغل إلا بتربية ابنتكما.

أنا: شكرًا.



(٢)

من الآن فصاعدًا يجب أن أتقبّل فكرة، أن اللون الأصلي تعيش في البلاد مع الهجين، الذي يعزف على آلة الطمطم الإيقاعية، مع فرقة موسيقية لا يعرفها أحد، لكن يبدو أنها تجد نجاحًا في البلاد، وأن فتيات طبيعيات يفقدن وعيهنّ من شدّة الاستثارة، أثناء حضورهنّ لحفلات تلك الفرقة، كما لو كانت هي حفلات للمغني الأمريكي الأسود جيمس براون. أتساءل هل ناس البلاد يعرفون فعلاً ما هي الموسيقى الحقيقية؟ إن كلّ ما يفعله أفراد فرقة الهجين على المسرح، بمجرد أن يبدأ هذا الهجين، في الضرب على آله الإيقاعية، هو أنهم يتأوّدون ثم تنكّسر أجسامهم، ثم يدخلون في حالة من هوس الانتشاء المرضي.

أتساءل هل اللعب على آلة الطمطم، هو نشاط بشري جدير بالاحترام؟ هل يمكنك أن تعود إلى منزلك، وتقول لزوجتك: «عزيتي هذا هو عملي، إني ألعب على الطمطم، وهذه هي إيصالات قبض مرتّبي؟». هل يمثل هذا المرتّب، يمكن تعويض النقص في ميزان

المدفوعات الفرنسي؟ هل يمثل هذا المرتب، يمكن إصلاح العطب في المصعد الاجتماعي؟ ثم إن روجيه الساحل عاجي، يريدني أن أكتب عن الطمطم في دفتر يوميّاتي، وبصراحة أنا أجد أن آلة الطمطم هذه ليست لها أيّ قيمة، هي فقط لهواة الضوضاء الليلية. نقطة ومن أول السطر كما يقول الفرنسيون. انتهى الكلام في هذا الموضوع، هذا هو كلّ ما عندي بخصوصه.

فإذا عدت إلى الحديث عن الباكستانيين والصينيين، فأنا أرى أنهم رجال شجعان جديرون بالاحترام، تلصق بهم ظلماً السمعة السيئة، في حين أنهم لا يسيئون إلى أي شخص. هم على الأقل لا يلعبون على الطمطم، ومن الجائز جداً أنهم حتى لا يعرفون هذه الآلة على الإطلاق. أوّكد لكم أنه في اليوم الذي يصل فيه العلم إلى اختراع آلة طمطم صامته، فإن العديد من الزوج العجائز، سيفقدون السبب الوحيد الذي يبقّهم على قيد الحياة. يجب أن تتخلّى البشرية عن هذه الآلة، تماماً وإلى أبد الأبد، لأن زمنها قد ولى.

في أزمنة ماضية كانت هذه الآلة، تستعمل في حقول القطن في ولايات الجنوب في أمريكا، ليتمكّن العبيد السود بإيقاعاتها، من تبليغ بعضهم بعضاً برسائل ضرورية عاجلة مشفرة، مثل ضرورة الانتباه إلى أن السيّد مالك العبيد والأرض، قد جاء في جولة تفقّدية، ومعه كلابه، فتظاهروا بأنكم تعملون، وإلا فإنه سيتحجّج بذلك، ويبيعكم إلى سيد آخر، قد يكون أكثر قسوة منه، يعاقب زوجه الآبقين بطريقة همج القرون الوسطى، فيقطع أرجلهم أو أباديهم.

إنها أيضاً آلة الطمطم التي كان زنوج أمريكا العبيد يلعبونها، حتى نهاية القرن التاسع عشر، عندما كانوا يكون على فقد شמוש قارتهم الدافئة، ويشعرون بالتعاسة في شتاءات أمريكا الباردة. إنها أيضاً آلة الطمطم التي لعبها الأفريقيون، حين حصلت بلادهم على الاستقلال من المستعمرين الغربيين، حوالي منتصف القرن العشرين. إلا أن الزمن الآن لم يعد زمن العمل في حقول القطن، ولم يعد زمن الاستقلال، ولم يعد حتى زمن التلّهي، ومع ذلك لا يزال من بيننا من يصرون على الاستمرار في لعب الطمطم من الصباح إلى المساء، بل إن من بيننا من يستعمل آلة الطمطم في التفرير بالنساء المتزوجات.



كان من الممكن الانتقام من الهجين؛ فإنه لا يزال لديّ في البلاد أصدقاء يمكنهم أن يكسروا له رأسه، إذا طلبت أنا منهم ذلك. لكن بماذا سأنتفع من مثل هذا الفعل؟ أنا لست من نوع الرجال الذين يتعمّدون اختلاق المشاكل. أنا رجل مهذب. وبالمقارنة بيني وبين الأستاذ أبّقراط، أنا رجل اجتماعي، أقبل المناقشة في كل الموضوعات، وأهتم بالتطور التقني الحاصل في العروض الموسيقية، وعلى دراية بالأعراف السائدة في العالم المعاصر. لكنني لا أحب المشاجرات، ولا حتى الحروب الكلامية، ولا حتى مجرّد الخصام.

فعندما تقع مشاجرات بين سكّان الضواحي، في مبنى محطة قطارات شمال باريس^{(٦٢)(٢٩)(٣٠)}، أو في مبنى محطة قطارات الأنفاق

(ماركاديه بواسونيار)، فأنا لا أحاول أبدًا الفصل بين المتشاجرين. بل أبعد بأسرع ما يمكن عن أرض المعركة، وأترك المتقاتلين فيما بينهم يغيّرون ملامح وجوه بعضهم بعضًا. أنا أتركهم يتشاجرون كما يريدون، ولا أَلعب معهم أبدًا دور حكم المباراة. لكنني لاحظت أنه غالبًا ما يكون سبب الشجار، هو نقص وسائل التواصل بين الفريقين، أو الجهل عمومًا بوسائل التواصل المعتادة بين البشر.

وهكذا إذن فقد تَعَوَّدت، أنه عندما تكون هناك بؤادر معركة كلامية بين فريقين، يكون أحدهما من العرب، ويكون الآخر من السود، أن أخذ ذيلي في أسناني وأجري، لأنه يكفي أحيانًا أن تكون تعيس الحظ، وتنطق بكلمة واحدة، فيتوقّف المتشاجرون عن الصراع فيما بينهم، ويستديرون نحوك. لأنه كما قال لافونتان^(٦٣)، إنهم مستعدّون فورًا للاعتقاد، في أن أذنيك ما هما إلا قرنان لحيوان غير معروف، هو الذي جرح بهما الأسد ملك الغابة، وعليك الآن وقد ثبتت عليك التهمة، أن تتحمّل تبعات غضب الأسد.

إنه بفضل هذا الموقف الذي أتخذه، أي موقف الحذر التام، الذاهب إلى حدّه الأقصى، أن ظلّت صحيفتي الجنائية عذراء، وهذا غير متاح لأغلب الناس السود في فرنسا. إنها صحيفة عذراء تمامًا لم يمسهها بشر، إلى درجة أنه يمكن إعادة استعمالها، في حالة وجود نقص شديد في صحائف الحالة الجنائية، في دار الوثائق القومية، أو في وزارة العدل الفرنسية. بالإضافة إلى هذا وذاك، فأنا لا أتردّد على منحرفين، ولا أتواجد إلى جوار مجرمين منحرفين أو مبتدئين، ولا أعرف قضاة أو

محامين. فأنا لم أجلس أبداً في حضرة أحد القضاة أو المحامين.

هذا الموسيقي الكونغولي المتجول ليس من مستوأي، فهو لا يصل حتى إلى مستوى كعب قدمي، وليست لديه حتى شوارب مثل شواربي، ولا حتى مثل شوارب صديقي الكاتب لويس فيليب. هل انتعل، ولو مرة واحدة في حياته، أحذية ويستون مثل أحذيتي؟ هل يعرف كيف يعقد ربطة عنق من الحرير مثل ربطات العنق التي لدي؟ هل هو يعرف مثلاً لماذا تكون لبعض ياقات القمصان الفاخرة ثلاثة أزرار؟ هل يستطيع تمييز النسيج الذي يكون ١٠٠٪ صوفاً وليست به أي شوائب؟ هل يمتلك سترة فرانكسكو سمالطو من السترات ذوات البطانة المضلعة؟ هل سبق له أن شاهد الفيلم السينمائي (المخرّبون) بطولة جيم كيلبي وجيم براون وفريد ويليامسون؟ هل سبق له أن قرأ رواية (ثلاثية هافانا القدرة) للمؤلف بيدرو خوان جوتيريز *Gutierrez*؟ إن الإجابة عن كل هذه الأسئلة هي بلا، ثم لا، ثم لا. هو إذن ليس من مستوأي.

يجب أن أهدئ أعصابي، وإلا فإنني قد أوجه لكمة إلى الآلة الكاتبة (التايب رايتز) التي أكتب الآن عليها. يجب أن أقول لنفسي طول الوقت، إن ذلك الشخص الهجين، صغير جداً في الحجم، بالإضافة إلى أن إحدى عينيه أكبر من الأخرى، بل لقد لاحظت أن يديه الخشتين، اللتين يستعملهما في اللعب على آلة الطمطم، تشبهان القوائم الخلفية لحيوان السلطعون البحري، الذي كنا نصطاده من مياه المحيط عند بوانت نوار؛ لأنه كان يخرج للتجول على رمال الشاطئ، ثم لا يعرف المسكين كيف يعود إلى المياه.

ثم إن رأس الهجين تشبه متوازي المستطيلات الذي درسناه في حصص الهندسة^(٦٤)، ولون بشرته يشبه لون التربة الصلبة الحمراء المائلة للأسوداد. وعندما نتأمل تكوينه الجسدي، نجد أنه لا فرق بينه وبين تماثيل المصارعين، التي عرضها النحات السنغالي أوسمان سو، على كوبري الفنون في مواجهة متحف اللوفر في باريس، وهي التماثيل التي أخافت أهل باريس، حتى إن المساكين كانوا يعبرون نهر السين فوق كباري أخرى، حتى يتجنبوا مشاهدتها.

ستندم اللون الأصلي يوماً ما على ما فعلته، فإنه بعد أن كان لديها الحظّ الطيّب، الذي سمح لها أن ترتبط بواحد مثلي، تركتني بدلاً من أن تتمسك بي. كثيراً ما أسأل نفسي ما الذي يبحث عنه الناس في حيواتهم؟ ماذا تفعل هي مع هذا الهجين؟ هل تطرب لسماع صوت الطمطم نهائياً وليلاً؟ هل تصاحبه في حفلاته الموسيقية في جميع أنحاء الكونغو؟ حتى في المناطق النائية من البلاد؟

ثم ما هي حكاية عودة الموسيقيين الأفارقة إلى استعمال الطمطم في موسيقاهم؟ الذي أعرفه هو أن الموسيقيين الأفارقة، كانوا قد فقدوا اهتمامهم بهذه الآلة، منذ أن استعارها منهم الموسيقيون البيض، وبدأوا في استعمالها بكثرة في موسيقى البيض، حتى إن الكثير من الموسيقيين الأوروبيين، بدأوا في الحصول على دروس خصوصية في العزف على هذه الآلة.

ثم إن الموسيقيين البيض في حفلاتهم، في محاولة منهم لإضفاء اللون المحلي الأفريقي على تلك الحفلات، يرتدون الملابس

الأفريقية، بل إنهم أحياناً يخرجون إلى جمهورهم، والواحد منهم لا يرتدي إلا المئزرة الأفريقية، التي لا تغطي إلا الجزء الأسفل من البطن وأعلى الفخذين. وهم يفعلون ذلك بسرور شديد؛ لأنهم يعتقدون أنهم بذلك، يساهمون في التكامل بين الثقافات، وفي التبادل الثقافي بين الشعوب.

إن الأبيض الذي يتعلم العزف على الطمطم، تحرّكه بواعث غريبة تجعله يعتقد، أن ما يفعله هو نوع من الأناقة الثقافية، حتى يستطيع فيما بعد أن يدّعي أنه مثقف، منفتح على ثقافات العالم، وبالتالي ليس هناك على الإطلاق، أي مجال أو مبرر لاتهامه بأنه أوروبي أبيض عنصري، والعكس صحيح، أي أنه عندما يرى الناس رجلاً أسود يلعب الطمطم، قد يخافون منه أو يرتابون، قائلين إنه بدائي، متخلف يعيش في الغابات. لكن هناك كذلك جانب آخر من الحقيقة، وهو أن دراسة الأوربيين للعزف على الطمطم، كانت بهدف علمي، وهو محاولة معرفة كيف كان الأفارقة القدماء، يستعملون هذه الآلة كوسيلة للتواصل فيما بينهم، في الوقت الذي لم يكن الإنسان قد اخترع فيه بعد وسائل الاتصالات الحديثة.



لم يعرف الهجين كيف يستفيد، أقصى استفادة ممكنة، من تلك الظروف المواتية، وذلك الولع الغريب، الذي أظهره الأوروبيون بآلة الطمطم. أنا لو كنت في مكانه ما عدت إلى أفريقيا، بل كنت بقيت

في أوروبا، حتى أملاً خزانتي بالمال. ولا كنت أرهقت نفسي بالعزف الصحيح، لأن الأوروبيين مستعدون لتقبل كل الاختلافات.

ففي حفلات اللجان الفنية للشركات التي يقيمونها بشكل دوري في الأرياف حول باريس، أو في حفلات رياض الأطفال في ضواحي باريس، أو في حفلات مدارس الحيّ الثالث عشر، أو في احتفالات الأسواق المقامة في العراء عند بوابة غابة فانسان^(٩)، وفي منازل العَجَزَة في ضاحية المميزون، وفي السجون ومستشفيات الأمراض النفسية، وهي كلها الأماكن التي اعتاد الفرنسيون على دعوة عازفي الطمطم إليها، قائلين إن الموسيقى لا تعرف الحواجز الجغرافية التي تفصل بين الشعوب. في الحقيقة يمكن لأي عازف على آلة الطمطم، أن يكسب الكثير من الأموال في كل تلك الأماكن؛ لأن الفرنسيين فيما يتعلق بتقييم الفنّان المادي لنفسه، لا يفاضلون في السعر الذي يطلبه لنفسه.

لكني لو كنت مكانه في كل تلك الأماكن لعزفت النشار، لأنني لاحظت أن البيض لا يحكمون على موسيقانا السوداء، بنفس المقاييس الدقيقة التي يحكمون بها على موسيقاهم البيضاء. وعلى أي حال، فعزف الطمطم هو في الأساس نشاز، سواء أكان عازف الطمطم سليماً في أدائه أو نشازاً، فهو في كلّ الأحوال يلوّث الموسيقى التي يضاف إليها. أنا اعتبره نوعاً من القَدْر الذي يجب أن يذهب إلى المجارير. رغم كل محاولات زنوج أمريكا المنفلتين أصحاب النزوات، في إضافة قدرٍ من البيانو هنا، مع قدر من الكمان هناك، فهم بذلك يحاولون تجميل صوت الطمطم القبيح، إلا أنها محاولات تبوء كلها بالفشل.

هنا يدخل البيض المساكين في حَيْص بَيْص، ولا يعرفون كيف يخرجون من هذه الدائرة المحكمة الانغلاق حولهم. هم يقولون لأنفسهم: «إنه يجب أن تتوقّف هذه النزوات، فنحن مستعدّون للاستماع إلى هذه الضوضاء، لكن ليس إلى حدّ التناول على جمل موسيقية من مؤلّفينا باخ أو موزار». هم محقّقون فيما يقولون، فموسيقاهم كلها تُكْتَب على الورق، وأثناء العزف تُقرأ من على الورق، ثم إنهم يذهبون إلى المدارس والجامعات، لدراسة كيفية كتابة الموسيقى على الورق، وإذا لم ينجحوا في امتحانات نهاية العام، فهم يرهبون ويعيدون العام.

ثم يأتي موسيقي أفريقي بدائي ويعزف من الذاكرة، أي من الهواء. ثم لمن يسأله «من أين تأتي بهذه الموسيقى؟»، يقول: «هي تحت جلدي، لا أحد علّمها لي، بل هي تنتقل شفهيّاً بين الأجيال». نحن تافهون بلهاء، ويجب أن يذهب موسيقينا إلى المدارس؛ لتعلّم عزف موسيقانا، كما يفعل الموسيقيون في جميع أنحاء العالم. وهناك في يوم الامتحان النهائي، سترى كيف أن تلك الحكاية، الخاصة بانتقال الموسيقى تحت الجلد، ليست إلا أكاذيب. فالبيض أيضاً لديهم جلد، فحتى لو لم يكن لهم حظنّ الجميل، لأن جلودهم ليست باللون الأسود الجميل الذي لجلودنا، هم لديهم جلود ويمكنهم مثلنا أن يدّعوا، أن موسيقاهم هي الأخرى تنتقل تحت جلودهم.

لم يشعر الهجين بتغيّر اتجاه الرياح، وأنا متأكّد من أنه لم يعرف بخبر سقوط حائط برلين، بل متأكّد من أنه لم يعرف بخبر موت الجنرال ديجول قبل عشرات السنوات، وهو يعتقد أن الجنرال يستطيع أن يعيد

إلينا، نبّي ثورتنا أندريه جرينار ماتسوا^(٦٥)، بالطائرة إلى مطار مايا مايا في مدينة برازافيل. هو يعتقد أن نيلسون مانديلا لا يزال سجينًا، وأن ديبجو مارادونا سيلعب في مباريات كأس العالم القادمة. هذه هي أشياء طبيعية بالنسبة إليه، ورغم أنني لا أعرف ما هو معدّل ذكائه، إلا أنني متأكد من أنه مثل النعامة، أي أن حجم عينه أكبر من حجم مخّه.

عندما أتخيّل أن ابنتي تنادي هذا الشخص بكلمة (بابا)، هنا يسيل المخاط من أنفي، ولا أريد أن أتمخّط، لأن الهجين هو الذي يجب أن يسيل المخاط من أنفه، لكن هذا لن يمنعني من التعبير عن أفكاري، التي لا أستطيع أن أكبح جماحها، وأن أذكر في يومياتي هذه، كل ما في قلبي من ناحيته.



(٣)

كان تحوّل الهجين إلى شخص مزعج قد حدث بالتدريج. بدأ هذا التحوّل عندما كانت لفرقة الهجين حفلات في باريس، لأنه في هذه الحالات، كان يحطّ الرحال في شقتنا، دون أن يخطرنا مسبّقاً بموعد وصوله. لكنه كان يحمل معه دائماً هدايا للطفلة. كان ينحني عليها، ويأخذها من فراشها بين يديه، ويهددها ويمرجحها كما لو كانت ابنته. ثم إنه كان يتحدّث إليها بلهجة غريبة، هي إحدى اللهجات الكونغولية غير المعروفة. وكما سبق أن ذكرت، كان عربي الناحية يقول إن الأطفال يفهمون كل لغات العالم. الآن أنساءل ماذا كان هذا المغني المتحوّل يقول لابنتي؟

كانت الطفلة تتحمّس له كثيراً، وتضحك معه، وتمدّ إليه ذراعيها. في تلك اللحظة كان الهجين يخرج لها من حقيبته، دبة لعبة أو عروسة لعبة، أو فستان وردي اللون. هل هو بسبب الشكوك التي بعثها في نفسي، صديقي روجيه الفرنسي الساحل عاجي، إنني أحسست فجأة أن ابنتي لا تشبهني؟ كلما فكّرت في هذا الموضوع، كبر لديّ هذا الإحساس. إنها

أقرب شبيهاً بالهجين. كنت أنظر إذن إلى كليهما، هنرييت والهجين، وأرى أن لهما نفس العينين، ونفس الأنف، ونفس الفم. لم تكن هنرييت تشبهني إلا في أصابع القدم. هذا هو الجزء الوحيد من جسمها، الذي يمكن أن أدعيه لنفسِي.

قلت للون الأصلي: هناك شيء لا أفهمه، فأنا أجد أن طفلتنا هذه، يزداد شبهها بابن عمك يوماً بعد يوم. أقول لك إنه لا ينبغي أن يعود إلينا من جديد فترى وجهه، ويترك أثره على وجهها. لا أريد للصغيرة أن تصبح قبيحة الوجه، في حين أن وجهي أنا جميل.

قالت: هل لديك مشكلة مع ابن عمي؟ هل أنت تعرف أنه يستطيع أن يخرجك من هذه الشقة؟ هل تعلم أنه هو الذي دفع مبلغ التأمين الذي طلبه مالك هذه الشقة حتى يؤجرها لي؟

إذن لقد تمكّن هذا الهجين من أن يشوّه صورتي أمام زوجتي، وأن يجعل مني رجلاً شحيحاً شديد البخل. ثم أنبأني إنه هو الذي اشترى لها كل ما لديها من أحذية، ومن سراويل من تلك التي تلتصق بالجسد فتظهر ملامح المؤخرة بوضوح، ومن مآزر وطنية كونغولية، ومن تنانير متعدّدة الألوان، وحتى ساعات اليد، والتحف الموجودة في الشقة، هو الذي اشتراها لها. ثم عندما أردت أن تهدأ أعصابها، وقد اعتدت أن أفعل ذلك بمداعبة أصابع قدميها، رفضت. أصابني الجنون بسبب هذا الرفض، وكذلك بسبب ما قالته لي للتوّ.

كانت الساعة في تلك اللحظة قد بلغت الواحدة صباحاً. وكان عليّ أن أحتجّ على ما قالته لي هي للتوّ. أن أتفاوض وأجادل، كما لو

كنت عضوًا في مجلس الشعب يلقي خطبة، أو تلميذًا في فصل يكتب موضوعًا في الإنشاء. ارتفع صوتي حتى وصلتُ إلى إزعاج الأستاذ أبقرات، الذي كان يسمع في حجرة نومه، إلى الجهة الأخرى من نفس هذا الحائط، كل ما نقوله بوضوح، عندما ترتفع أصواتنا. كانت في هذه اللحظة تقسم على أنها لن تسمح لي بلمسها، ما لم أغيّر من أفكاري المتعلقة بابن عمّها، وما لم أعدّل من سلوكي نحوه.

ثم حدث أن سافر مع فرقته إلى مدينة آميان في شمال فرنسا، لإقامة بعض الحفلات، ودأبت اللون الأصلي على الاتصال به في كل مساء، لإطلاعه أولاً بأول على أخبار هنرييت. ثم كنت أتلقي التوبيخ على احتجاجي على حجم الاستهلاك، عندما وصل كشف حساب هيئة التليفونات. لم تسمح لي أن أذكر أنهما يشغلان وقتها هي والهجين، بالحديث والمزاح السخيف، لمدة ساعات طويلة تنقضي في توافه الأمور.

صحيح أنني كثيرًا ما كنت أتصل بصديقي لويس فيليب، لكننا لم نكن أبدًا نتحدّث لأكثر من عشر دقائق. وقتها كنت أسمي كتاباتي (العصافير)، وكنت أقول له إنني رأيتها تضطرب مهتاجة، فوق أفرع الأشجار في الحديقة العامة، كنت أوكد له أنني أسجل كل خلجات تلك العصافير، وأساليب زقزقتها وغنائها، وهو يعدني بقراءة كل ما أكتب، ويذكر لي رأيه الصريح فيها.

أما إذا أردت أن أتحدّث معه في أسرار حياتي الزوجية، فكنت أذهب إليه في منزله، ثم نذهب معًا إلى أحد المقاهي القريبة، حيث

نجلس إلى مائدة، وأقرأ عليه ما خربشته في كراساتني. ثم أحكي كيف أن الهجين نجح في إشاعة الفوضى في حياتي الزوجية.

ثم ذات مرة، حدث في حانة (لوسانجو)، في حي شاتوروج، أن قابلت ذلك المدعو (ماك شابه)، وكان ما حكاه لي في تلك المقابلة، هو المسؤول عن ما وصلت إليه الأوضاع، مع اللون الأصلي من تدهور. في ذلك اليوم قدّمت زجاجات الجعة البيلفورث، إلى اثنين من مواطني الكونغوليين على حسابي، لأنني كنت دعوتهما إلى اللقاء هناك. ثم جاء هذا المواطن الثالث (ماك شابه) وانضمّ إلينا، وأصرّ هو كذلك على أن أقدم له زجاجات الجعة على حسابي. ثم بدأ يتحدث معي رافعاً التكليف تماماً. لم أعرف السبب في رفع التكليف، فنحن في سن الطفولة لم نكن نرعى الماعز والأبقار معاً.

قال لي إنه يعرفني معرفة جيدة جداً، وإن والدي ووالده كانا صديقين كبيرين. بحثت في ذاكرتي ثم أدركت أنه كان محقاً. لكن العلاقة القوية لم تكن بيني وبينه، بل كانت بيني وبين أخيه الكبير (إرفيه)، الذي كان زميلاً لي في ليسيه (كارل ماركس)، أما هو فكان صديقاً وزميلاً لأخي الأصغر. إذن هو يخلط بيني وبين أخي الأصغر.

بعد أن قدّمت له زجاجة جعة، عرفت أنه عمل موسيقياً، في فرقة تعزف الموسيقى الأفريقية التقليدية، وأنه فقد هذا العمل، وبالتالي فإن أحواله في فرنسا لم تعد على ما يرام، وأن السبب في فقد عمله بين يوم وليلة كان شخصاً يدعى (ميتوري). قدّم له زجاجات الجعة على حسابي.

هذا الاسم لم يكن غريباً عليّ، ثم بعد لحظات أدركت أنه الاسم الحقيقي للهجين (لوسيان ميتوري). قبل مرور نصف ساعة كان (ماك شابيه) قد ابتلع أربع زجاجات من الجعة. فبمجرد أن ينتهي من زجاجة، كان يرفع إصبعه تجاه نادل الحانة، فيقدّم له زجاجة أخرى. كأنه هو الذي سيدفع حساب المشروبات في نهاية السهرة. ثم بدأ يهلوس. وكلّ حديثه كان موجّهاً لي مسبقاً بكلمتي (أخي الأكبر)، وبعبارة (أنت لست مثل أي شخص آخر).

هو: أخي الأكبر، أنت قادر على كل شيء. أنت حقاً شخص ذو أهميّة خاصة. فهناك الكثير من المدّعين في باريس، ولكن أنت لست من بينهم. هل تدرك كمّ هي رائعة تلك السترة التي ترتديها؟ أقسم لك أنه حتى البيض أنفسهم لا يعرفون أين تُباع ولا أين تُصنّع مثل هذه السترات. ثم في البلاد كنت تحصل على الفتيات بسهولة، لأنهنّ كنّ يدرن حولك كالذباب. ماذا يمكنني أن أقول لك عن نفسي أخي الأكبر؟ أنا أحاول أن أتصرّف في أموري قدر استطاعتي.

أنا موسيقي حقيقي، موسيقي نادر الوجود، فليس هناك موسيقي آخر في باريس كلها له نفس حجم موهبتي. لقد سجّلت الموسيقى مع عدد من كبار الفنّانين، من أمثال لوكا كانزا وراي ليما وريتا بونا، وكان من الممكن لي حتى أن أسجّل مع العظيم مانو ديبانجو، إلا أن هذا التسجيل تمّ تأجيله بسبب كثرة ارتباطات الفنّان، والجدول المعقّد جدّاً لحفلاته الموسيقية. هكذا إذن أنا ألعّب الموسيقى في كل مكان

متاح يمينًا ويسارًا، شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا، لكن الحقيقة هي أن الوضع الآن صعب.

الشهر الماضي عزفت مع فريق (سحرة الكونغو)، لكنهم لم يريدوا أن أستمّر معهم. أنا أفضل منهم كلهم، وأكثر موهبة منهم كلهم. لعلّ هذا هو السبب الذي من أجله رفضوا استمراري معهم، حتى لا أفضح جوانب النقص فيهم. لكنني أوّكد لك أنه سيأتي عليّ اليوم، الذي أستطيع فيه أن أكيل لهم الصاع صاعين.

لكن السبب الحقيقي الذي أدركته لاحقًا، هو أن كل الموسيقيين متأمرون ضديّ. إنها خطة تنفّذ بدقّة ضديّ، وضعها ويشرف على تنفيذها ميتوري نفسه. أنت تسأل لماذا؟ الجواب هو أنه يخشاني، ويخشى تعاظم نفوذي في المجال الموسيقي، ويخشى من اليوم الذي سأحلّ فيه محلّه، فأنا اليوم أصبحت رقم اثنين بعده، مما قد يسمح بعد وقت قليل بأن أصبح رقم واحد. وهو يكرهني لأسباب أخرى، منها مثلاً أننا من عرقين مختلفين في الكونغو، فأنا لا أنتمي إلى نفس أفراد القبيلة التي ينتمي هو إليها، وأنت تعلم أهمية هذه المسألة في الكونغو حتى الآن. لقد مللت هذه الأوضاع، لأن ناس بلادنا لن تنصلح أحوالهم؛ طالما ظلّت العنصرية تتحكّم فيهم.

انقطع جبل حديث ماك شابه عندما رأى نادلة الحانة تمرّ إلى جوارنا، فاستدار بجسمه نحوها وأمسك بها من يدها.

هو: ماذا تريدان بدورانك بمؤخرتك هكذا طول الوقت حول أخي الأكبر؟ هل تريدان أن تصيبه بدوار؟ أم أنتِ تعتقدين أننا نجلس هنا في

صالة عرض أزياء، حيث الفتيات في حالة مرور مستمر أمام الرجال؟
ثم أنتِ ألا ترين أن زجاجاتي كلها فارغة؟ وأن أخي الأكبر مشغول معي
بحلّ مشاكلتي؟ ماذا ينبغي أن تفعلني إذن بدلاً من هذا اللّف والدوران؟
ماذا تنتظرين إذن لاستبدال الزجاجات في الحال؟
أشرت إليه بأن يهدأ.

هو: لا يا أخي الأكبر لن أهدأ، فأنا لم أعد أفهم كيف يفكر الناس
أصحاب الحانات الأفريقية، ففي حانات البيض بمجرد أن تنتهي
زجاجتك، يحضرون لك زجاجة أخرى، أما في حاناتنا فإن النادلات
يديرن حول الزبائن، في محاولة منهم للإيقاع بهم. هيّا يا آنسة، أحضري
لنا زجاجات جديدة، واتركي أخي الأكبر يجلس هادئاً في سلام.
ذهبت النادلة إلى الطرف الآخر من الحانة، وهي تتكلّم بما لا يفهم
وقد قلبت شفتيها، فاقترب ماك شابهه منّي بكرسيه.

هو: هل تعني هذا جيداً، إن الكونغوليين عندما ينشئون فرقاً موسيقية
في فرنسا، فإن الأساس الذي تقوم عليه هو الانتماء العرقي، هل بهذه
الطريقة سنقوم بتطوير الموسيقى التقليدية لأمتنا؟ ثم ما هي تلك الصورة
التي نقدّمها عن أنفسنا لأوروبا؟ إن أفراد فرقة (سحرة الكونغو) يقولون
إنهم كونغوليون حقيقيون، وإنهم يعزفون الموسيقى التقليدية للكونغو،
وأنا أأست كذلك كونغولياً حقيقياً؟ هل يكفي اختلاف الأصول العرقية
بيني وبينهم لاستبعادني من الفريق؟ أصبحت أكره هذا الميثوري كرهاً
شديداً. إنه كلب منافق، وهو لا ينضح عرقاً مثلنا جميعاً، بل هو ينضح
صديداً.

إنه صغير الحجم جدًّا، مثل الأقزام الذين نراهم في قصّة الأميرة والأقزام السبعة، التي يقرأها الأطفال الأوروبيون، حتى إنه عندما يقف إلى جوار الطمطم، تكون تلك الآلة أطول منه. هل سبق لك أن رأيت هذا؟ عازف طمطم أقصر من آله؟ أنا متأكّد من أنه كان السبب في استبعادني من بعض الحفلات، ثم ادّعى أن السبب هو أن المنتجين لم تكن لديهم الأموال الكافية، لدفع أجور ومستحقّات كل هذا العدد من الموسيقيين ومن الفنّين.

أخي الأكبر، أنت تعرف فرنسا جيّدًا؛ فهو البلد الذي تعيش فيه منذ سنوات طويلة، فهل سبق لك أن سمعت، عن منتج ليس لديه ما يكفي من المال، فيقوم بتوفير النفقات بالاستغناء عن بعض الموسيقيين؟ هل سبق لك أن سمعت أن ميشيل ساردو أو شارل أزنافور، كانا مهذّدين بالإفلاس؟ أنا لم أسمع بهذا أبدًا من قبل، فكل المنتجين البيض لديهم دائمًا ما يكفي من الأموال. لا يصح أن يروي لي هذا القزم مثل تلك السخافات.

أنا كنت مستعدًّا لتصديق ميتوري، لو أن المنتج لم يكن فرنسيًّا، فالمنتجون الكونغوليون يسرقون الفنّانين الكونغوليين، ويهربون بنقود الحفلات، دون دفع مستحقّات الفنّانين. أما المنتج الفرنسي فلا يفعل هذا أبدًا. لهذا السبب فنحن ليس لدينا فنّانون كونغوليون، في ثراء ميشيل ساردو أو شارل أزنافور. فكل فنّانينا يعيشون فقراء ويموتون فقراء. والأدهى من ذلك هو أنهم بمجرّد موتهم ينسأهم الناس، ما لم يكن الواحد منهم محظوظًا، فتتهم جهة أجنبية ما بتسجيل تراثه والاحتفاظ به.

أنا لست متطرّفًا في أقوالي هذه؛ فما ذكرته للتوّ هي حقائق يعرفها الجميع، وليست هذه الزجاجات من الجعة البيلفورث التي ستدير لي رأسي. إن القاعدة هي أنه لا يمكنك أن تصبح ثريًا ما لم تحصل على منتج أبيض. أما المنتجون من نوع ميتوري، فهم لا يريدون الثراء للآخرين، بل لأنفسهم فقط، فإذا قرّروا أن يشاركون أحد في هذا الثراء، أو أن ينتفع الآخرون به، فيجب على هؤلاء الآخرين، أن يكونوا من أفراد نفس القبيلة، وأن ينتموا إلى نفس العرق.

وهكذا عندما استغنى عني، فوجئت لاحقًا بأنه تعاقد مع عازف آخر، على نفس الآلة التي أعزف عليها! إذن فمسألة عدم كفاية النقود ما هي إلا كذبة، أراد بها فقط أن يتخلّص مني. وذلك العازف الآخر كان من نفس القرية التي ولد فيها ميتوري. الأدهى والأمرّ هو أن هذا العازف الجديد على آلة الكونجا، كان قبل وقت قليل، أحد تلاميذي هنا في باريس، وكنت أنا من علّمه أسرار العزف على هذه الآلة. هل ترى حجم معاناتي النفسية؟

إن ميتوري هذا وصل إلى فرنسا، بمساعدة ابن عمّ له كان يقيم في مدينة (نانسي)، ولكن سرعان ما أدرك ابن العم أن ميتوري هذا كسول، ولا يجيد أي عمل، ولا يصلح لأي شيء، بالإضافة إلى أن وقاحة ميتوري جعلته يتودّد إلى زوجة ابن العم، معتقدًا أنه يستطيع أن يأخذها من ابن عمّه، وقد جاء الرفض قطعًا من المرأة.

كان صوت ماك شابيه قد ارتفع، وهو يكاد يفقد أعصابه، فجاءت مدام سانجو صاحبة الحانة إلينا، وطلبت منه ألا يرفع صوته هكذا؛

فهناك زبائن آخرون في الحانة غيره، لا يقبلون هذا الإزعاج.

هو: من هم هؤلاء الزبائن الآخرون؟ ماذا لديهم أكثر مما لديّ؟
اتركيني في هدوء يا سيّدي؛ إذ يجب أن أتكلّم؛ فقد فاض بي الكيل.
ثم هل تعتقدين أنتِ أنني أبحث عن التشاجر مع أحد في هذه الحانة؟
إن من لديك هنا إلى جوارِي هو أخي الأكبر، وهو الذي سيدفع لي
كامل حساب مشروباتِي فلا تقلقي، وأنتِ كما ترين هو لديه نقود كثيرة،
والدليل على ذلك أناقة ملابسه، إذ يكفي أن تلقي نظرة واحدة على
ملابسه لتدركي حجم ثرائه. هل ترين سترته؟ هل تعرفين كم هو ثمنها؟
ثم ألسنا هنا في فرنسا؟ ألستم تقولون إن الزبون دائماً على حقّ؟ ألا
تقولون إن الزبون هو الملك؟

ثم انحنى بجسمه نحوي، واضعاً فمه في أذني، هامساً لي بأشياء،
كأنه لا يريد لمواطنينا الذين يشاركوننا المائدة، أن ينصتوا إلى الأسرار
التي سيبوح لي بها.

هو: الآن سأبوح لك بشيء يجب أن تحتفظ به لنفسك؛ إذ إنه شيء
خطير جداً، ذلك الذي فعله الحقيّر القذر المدعو ميتوري، حال إقامته
في مدينة (نانسي). أنت فقط لا تعرف كم هو حقير. فإذا تقاطع طريقاكما
يوماً ما فلا تقدّم له زجاجة جعة؛ لأنني أرى الآن كم أنت لطيف وكريم
ومضياف، وسيأخذ الكثير من الناس تصرّفاتك الكريمة هذه، على أنك
أبله يسهل خداعك.

إن ميتوري نذل ووغد، بل وأقسم لك على أنه ثعبان، وأنت لا تعرف
الفضيحة التي تسبّب فيها، بل أقول الجريمة التي ارتكبتها، أثناء إقامته في

تلك المدينة؛ إذ إنه فضّ بكارة فتاة لم تكن قد بلغت بعد سنّ الرشد، هي ابنة أحد كبار المحامين الكونغوليين، الذي كان يمارس بعض الأنشطة السياسية، على أمل أن يعود إلى الكونغو، ويصبح بمساعدة الأمريكيين رئيسًا للبلاد.

هل تعتقد أنت أن الأمريكيين يرغبون في مساعدة شخص كهذا؟ رجل لم يحارب معهم في فيتنام؟ رجل لم يساهم معهم في ضرب العراقيين بالقنابل؟ إن الأمريكيين لا يحترمونك، إلا إذا كنت قد حاربت في صفوفهم. وهل حارب الكونغوليون أبدًا في صفوف الأمريكيين؟

هذا المحامي والد الفتاة المغتصبة، جعل ميتوري يقضي عامين في السجن، وقد ذكرت جرائد تلك الفترة القصّة، لأن الفتاة كانت قاصر؛ إذ لم تكن إلا في السابعة عشرة من عمرها، بينما كان هو قد بلغ سنّ الرشد قبل سنوات كثيرة، وأنت تعرف أن الفرنسيين لا يحبّون الهذر في مثل تلك المسائل.

عندنا في الكونغو ليس سنّ الفتاة هذا مشكلة، فكثيرًا ما تتزوَّج فتياتنا في سنّ أصغر من السابعة عشرة، بل إنها حتى يمكن لها في هذا السنّ، أن تكون أمًّا لطفلين أو لثلاثة أطفال، أما هنا في فرنسا فالمسائل جدّ مختلفة؛ إذ إنهم يضعونك في السجن؛ إذا اعتديت على فتاة في هذا السنّ.

عندما خرج ميتوري من السجن، ذهب للإقامة في مدينة أخرى هي (آميان)، ولم يعد يضع قدمه أبدًا في (نانسي). وأنا لأنني أعرف عنه كلّ هذا فهو يخشاني. ولهذا السبب جعل فرقة (سحرة الكونغو) تستغني

عني. هذا عدا أن الفتاة ابنة المحامي موضوع الاغتصاب، ليست جميلة بأي مقاييس، بل على العكس فهي قبيحة جدًا، ووجهها مثل وجه القملة، إذا رأيته ذات يوم ستساءل، كيف لفتاة أن تكون على هذه الدرجة من القبح وبشاعة المنظر، وتجد من يغتصبها؟

صحيح أن مؤخرتها مثيرة، لذلك أنا لن أرفضها إذا قُدمت لي مجانًا، سأغمض عيني وأؤدّي دوري ثم انسحب. لكنني لن أذهب أبدًا من أجلها لأقضي عامين في السجن. أنا لا أحبّ المبالغة، لكن الحقيقة هي أن هذه الفتاة في الظلام، وبسبب شدة سواد لون بشرتها، لن تتمكن أن ترى منها إلا عينيها وأسنانها.

انتهى كلامه بخصوص هذا الموضوع. أما أنا فكنت أتعرق بشدة، وكنت أغرق في أفكاري، حتى إنني لم أعد أنصت إلى أي كلام آخر دائر بيننا. أردت أن أعود على الفور إلى منزلي، رغم أنني كنت أعرف، أنني لن أذكر أي شيء عن هذا الموضوع إلى اللون الأصلي. دفعت حساب المشروبات لنا جميعًا، ثم تركت ورقة نقدية لماك شابه، لأنه لم يُرد أن يغادر الحانة على الفور، بل قرّر أن يبقى فيها لبعض الوقت.

رغب في أن نطلّ على اتصال، فقلت له إنني سأتصل به، فمزّق طرف ورقة، وكتب عليها رقم هاتفه وأعطاه لي. لم أرغب في أن يتصل هو بي فيجد اللون الأصلي تردّ عليه. بعد مرور أسبوع اتصلت بماك شابه ذات مساء، فوجدته منفعلًا بشدة.

هو: أخي الأكبر إنني أنتظر هذه المكالمة منذ أسبوع، لماذا لم تتصل بي من قبل؟ ما رأيك فيما سأقوله لك، لقد لمحت هذا الميتوري أمس،

مع تلك الفتاة السوداء جدًّا، القبيحة جدًّا، التي حدّثك عنها، أريد أن أقول ابنة المحامي في نانسي، لقد كانا معًا في شاتو روج، في مطعم (بولين نزونجو)، وقد ظننت سابقًا أن حكايتهما قد انتهت.

ماذا أقول؟ هذا حدث بينما أنا كمغفل، أجلس وحدي في البيت لأتولّى رعاية الطفلة، في حين كان ابنا العم، يتناولان الطعام ويحتسيان الخمر في مطعم كونغولي، يقع في شارع السويس^(٦٦).



(٤)

ذات مرّة بقي الهجين شهرًا في باريس، رغم أنه لم تكن هناك فيها أي حفلات لفرقة. صحيح أنه لم يكن يقيم لدينا، لكنني لاحظت أن اللون الأصلي خلال هذا الشهر، كانت ترتدي أفضل ثيابها، ثم تقول لي إنها لن تعود مبكرًا ذلك المساء، وتطلب مني ألا أنتظرها، وأن أذهب إلى الجارة المرضعة من (الرأس الأخضر)^(٦٧) لأستردّ طفلتنا، وأقدم لها الطعام في الساعة مساءً، ثم تخرج من المنزل وتغيب لساعات طويلة، وتعود إلى المنزل في وقت متأخر ليلاً، ولا تتحدّث طول الوقت إلا عن ابن عمّها.

حدث خلال هذا الشهر أنني كدت أن أنفجر فيهما؛ إذ عدت ذات مرّة إلى المنزل، فوجدت الهجين جالسًا مستريحًا ومسترخيًا تمامًا، على الفتوي الوحيد الذي لدينا، وهو مكاني الشخصي المفضّل، وكنت أنا من اشتراه، وأجلس عليه؛ لأشاهد في التلفزيون حلقاتي المفضّلة عن الأزواج والزوجات، الذين يذهبون للإقامة في الجزر شبه المهجورة، حيث يتعرّضون لإغواءات جنسية شديدة، التي قد لا يستطيعون مقاومتها، فتنفصم عرى الزواج.

كان الهجين يمسك في يده بجهاز التحكم عن بعد، ويشاهد حلقات (نيران الحب) الميلودرامية العنيفة، التي لا تحكي لنا إلا الحكايات التي تدور حول قصص حب لا تنتهي بالزواج، لأن هناك وصية قريب ثري حول ميراث ضخمة، تقف عائقاً في سبيل انتهاء القصة بالزواج، أو قصص قتل الأزواج بتسميم الطعام، حتى يخلو الجو للعشيقين، وهذا النوع من القصص قد عفا عليه الزمن، ورغم سذاجة هذه الموضوعات، إلا أن الهجين كان يبكي بسببها بحرقة أمام التلفزيون.

كانت ابنتي تنام في فراشها الصغير إلى جواره، أما هو فكان يرتدي السروال القصير الذي ينتهي عند منتصف الفخذ، وينهمك في التهام أصابع السجق بالثوم والتوابل والمنيوك^(٤٣)، وفي احتساء علب الجعة البيلفورث، التي أشتريها من عربي الناحية، وكان هناك حوله حيث يجلس العديد من اللعب الفارغة.

سألته ماذا يفعل في باريس، بينما فرقته تسكن مدينة أخرى في شمال فرنسا؟ قال إن كل أفراد فرقته موجودون حالياً في باريس، من أجل القيام بعمل تسجيلات موسيقية لأسطوانة جديدة، وإنهم قد قرروا أنهم بعد ذلك سيعودون جميعاً معاً إلى الكونغو، في رحلة ذات اتجاه واحد، أي رحلة ذهاب بلا عودة. ثم أضاف إنه في المنزل لرعاية الطفلة، بسبب ذهاب أمها إلى العمل، وإنه لذلك بدلاً من هذه المشاعر العدائية، ينبغي أن أشعر نحوه بالامتنان.

ثم أصبح تقريباً مقيماً لدينا؛ إذ كان يحضر في الصباح، ولا يغادر إلا عند منتصف الليل. ووفقاً لما قالته اللون الأصلي، فإن الهجين كان

يرعى الفتاة أفضل مني. وأنا أعترف بحزن حقيقي، إنه عندما كان يغني لها، كانت تمدّ ذراعيها إليه، كأنها ترغب في أن يحملها إليه، حتى تصبح قريبة منه. ثم إنه كان يعرف كيف يجعلها تضحك بصوت مرتفع. وقد أدركت أنا الفرق. للأسف حدث فعلاً أن أحبّت ابنتي هذا الهجين أكثر من حبّها لي. والدليل هو أنه عندما كنت أريد أن آخذها بين ذراعيّ، كما يفعل هو، لأغني لها كما يفعل هو، كانت تنتحب بشدّة؛ كما لو أن نحلة قد قرصتها. وكان الهجين سعيداً بملاحظة ازدراء الطفلة لي.

ثم وصلتُ إلى مرحلة الملل من هذه الأوضاع، في حين كانت اللون الأصلي غير مبالية على الإطلاق بمشاعري، ومستمرة في تعداد مزايا ومواهب العازف الهجين المتجوّل. ثم حدث أن أحضر الهجين إلى منزلنا آلة طمطم، بحجّة أن ابنتي تحبّ سماع أصوات إيقاعاتها. وبعد ظهر يوم الأحد، عزف لنا بعض تفاهاته، التي ادّعى أنها من التراث الكونغولي الأصيل، وقد تسبّبت لي هذه الإيقاعات في صداع شديد، وتسبّبت لأبي قراط جاري في انزعاج شديد، عبّر عنه بالصراخ طالباً منّا، أن نعود مع طمطمنا إلى أحرشنا.



أصبح الهجين يشعر كأنه في بيته، في حين أصبحت أنا الشخص الغريب الزائد عن الحدّ. جعلتني اللون الأصلي بالتدريج أفهم هذا. وحدث ذات يوم أن عدت إلى منزلي في فترة ما بعد الظهر، بدلاً من العودة في المساء، فوجدت الهجين ممدّداً على فراشي، مرتدياً ملابس

التي من بينها التي شيرت ماركة (ماريت وفرنسوا جيبو)، وفي يده زجاجة جعة بيلفورث، من تلك التي أشتريها من عربي الناحية. كأنه قد حلّ بشكل نهائي محليّ، وبموافقة صاحبة الشقّة، وكان مستمرّاً في متابعة حلقات ذلك المسلسل التافه (نيران الحب). هنا اعتبرت أنه قد تجاوز حقاً حدود أصول الضيافة، حتى لو كان هو من دفع مبلغ التأمين على هذه الشقّة.

كززت على أسناني وقلت لنفسي: «أنا لم أعش كل هذه السنوات، إلا لأعرف ولأفهم أن هذا هو الوضع الذي لا يحتمل، وأن هذا هو الحال الذي لا يمكن السكوت عليه». صبيت عليه جام غضبي. دافع عن نفسه قائلاً إن اللون الأصلي هي التي أجلسته على فراشي، وأعطته هذا التي شيرت، فإذا لم يكن هذا هو ما حدث منها فعلاً، فإنه لم يكن يجروّ وحده على استعمال فراشي وملابسي.

ثم أضاف بوقاحة: «إن هذا التي شيرت ممزق، حتى إنه لا يصحّ أن يستعمل إلا كممسحة للبلاط، ولم يعد ممكناً الخروج به إلى الشارع». تساءلت إن كان هذا الجاهل يعرف مصمّم الأزياء الذي وضع اسمه على هذا التي شيرت؟ هل يعرف هذا الجاهل معنى أن تكون قطعة الملابس موقّعة (سينيه) *signee*^(٦٨)؟ إن ما يقوله هذا الجاهل هو أقرب إلى تدنيس الحرّمات المقدّسة. كدت أن أشتبك معه بالأيدي. صرخت فيه: «اخلع فوراً هذا التي شيرت».

وقف أمامي وقد تحوّلت عيناه إلى اللون الأحمر، وأحسست أن الغضب يملأ صدره، ثم قال: «أحدرك أنك لو لمستني، فإني سأتسبّب لك في متاعب جمّة، لا قبّل لك بتحمّلها».

أضاف أن لديه تعويذة^(٦٩) يحملها على جسده منذ طفولته، حصل عليها من أحد سحرة قبيلته، وهي تجعل من يعترض طريقه أو يلمسه، يفقد الوعي لمدة أربع وعشرين ساعة ونصف.

هو: إذا لمستني مجرد لمسة خفيفة، فسأعطيك ضربة بالرأس، ترسلك فوراً إلى قسم الطوارئ بمستشفى لاريبوازيار. أنا لم أعد أريد أي مشاكل، كما أنني لم أنصارع منذ فترة، لكنك إذا أردت أن تعرف حجم الحماية التي توفرها لي هذه التعويذة الطلسمية، فما عليك إلا أن تلمس شعرة واحدة من رأسي، عندها سأكون مضطراً إلى أن أردّ عليك بضربة من رأسي.

ولأنني لم أرد الذهاب إلى مستشفى لاريبوازيار، ولأنه لا يزال لديّ قدر من الإيمان، بالقدرات الخارقة للتعاويذ الطلسمية، فقد طلبت منه بهدوء أن يخلع ما يرتديه من ملابس، وأن يرتدي أسماله البالية التي جاء بها. ثم تهوّرت قائلاً: «إن هذا التي شيرت قد كلّفني جلد أردافي^(٧٠)، وجلد أرداف زوجتي».

في وقت لاحق من تلك الليلة، وقبل أن يغادر الهجين منزلنا، ليلحق بموعد آخر قطار أنفاق، أعاد رواية كلّ الحوار الذي دار بيني وبينه، على اللون الأصلي عند عودتها من عملها، فبدأت في توبيخي بشكل مستمرّ عدّة ساعات.

هي: هل أنت انتقدت أردافي هذه الليلة؟ وأمام ابن عمي؟ أليست أردافي تلك التي أهنتها، هي نفس الأرداف التي أدارت لك رأسك، عندما شاهدتني لأول مرة؟ هل تعرف كم هو عدد الرجال، الذين

كانوا مستعدين أن يدفعوا كل ما يملكون، من أجل الحصول على هذه الأرداف؟ هل نظرت إلى شكلك في المرأة قبل أن تحدث الناس عن أشكالهم؟ من أنت حتى تفعل هذا؟

في الحقيقة أنت لا شيء. لا شيء على الإطلاق. أنت لا تفعل أي شيء في هذا المنزل. أنت تذهب فقط لاحتساء الخمر مع أصحابك الأندال في حانة جيبس. ثم إنك حتى لا تعمل إلا بنصف جدول عمل، ورغم ذلك فأنت لا تذهب إلى عملك. ثم تأتي هنا إلى منزلي لتلعب دورًا ليس لك؛ دور صاحب المنزل.

بعد تلك الليلة لم يعد الهجين أبدًا إلى منزلنا، ولم تعد اللون الأصلي تحدث إليّ ولو بكلمة واحدة. قلت في نفسي إنني على الأقل تخلصت من الوجود السخيف لذلك العازف المتجول. لكنه ترك آلة الطمطم لدينا. وكان هذا يضايقني، كأنه لا يزال موجودًا. وكأن الأسلاف يتحدثون إليّ، بل وكأنهم يسخرون مني.

أنا: متى سيأتي ذلك السخيف المدعو ابن عمك ليسترد آله؟ فنحن كما ترين ليس لدينا هنا ما يكفي من مساحة في المكان.

كان هذا السؤال هو القشة التي قصمت ظهر البعير. كان هذا السؤال هو الذي أضاع كل ما كان بيننا من مودة ورحمة. فقد تحولت اللون الأصلي إلى نمرّة شرسة مجروحة.

هي: لقد فاض بي الكيل. فاض بي الكيل. فاض بي الكيل.

كررتها ثلاث مرّات، بصوت أقرب إلى صوت زئير حيوان متوحّش
مفترس.

هي: إذا لم تغادر أنت هذه الشقّة الآن، فأنا من سيغادرها.

دقّ أبقرات على الحائط الفاصل بين حجرتي نومنا.

هو: الهدوء يا زنوج الكونغو، وإلا فإنني سأتصل بشرطة الشؤون
البلدية.

لم يتم بيننا تبادل أي نوع من الحوار منذ تلك اللحظة. كنت أنام
على الأرض، وأكل خارج المنزل، مع أصدقائي من الحانة، وأذهب
لقضاء بعض الوقت مع صديقي الكاتب لويس فيليب في منزله، وكان
دائمًا ما يكرّر عليّ: "اكتب كلّ ما تشعر به".



(٥)

أنا لم أرفع قُبعتي لأي شخص، فإذا كنت قد تضاءلت في الحجم، أمام عروسة لعبة لم تعد تكرر بابا وماما عندما ألمسها، فذلك لأنني أفكر في مستقبل ابنتي، وأرغب في أن تعيش في بيئة آمنة، وأن تحصل على تعليم جيد، بحيث تصبح ذات يوم فتاة رصينة عاقلة حسنة السلوك. أردت كذلك أن أهدئ من روعي، وأن أعتدل في سلوكي. قرّرت ألا أعيد التفكير فيما قاله لي ماك شاييه، في ليلة حانة سانجو، وبالتالي توقفت عن الاتصال به؛ حتى تتوقف معاناتي. أردت أن أصبح رجلاً مسؤولاً، وأن أثبت للون الأصلي، إنني لا أبالي بماضيها مع الهجين، عندما كانت في السابعة عشرة من العمر.

اعتدت في تلك الفترة على الذهاب إلى الحديقة العامة في الحيّ، وأنا أحمل معي آلتِي الكاتبة، حيث كنت أجد مجموعات من العصافير فوق أفرع الأشجار، تصفّق بأجنحتها مهتاجة كلّمًا رأّتي، وكأنّها كانت تنتظرنِي. وبدأت في اختصار مدّة بقائي في حانة جيس، بحيث أصبحت لا تتعدّى الساعتين كحدّ أقصى. كنت أبتلع زجاجتيّ جعة بيلفورث، كانتا تساعدانني في الذهاب وراء أفكارِي. كنت أتخيّل الهجين، وقد

عاد به الزمن بضع سنوات إلى الوراء، إلى الوقت الذي تعرّف فيه على اللون الأصلي، واقتادها إلى مكان ما، ربّما أحد مستودعات محاصيل الحبوب، حيث فعل بها ما فعله بها.

من المؤكّد أن المسكينة في ذلك الوقت، كانت رقيقة جدًّا إلى حدّ القابلية للكسر، وربّما أنها في تلك اللحظة المشؤومة، لم تكن ترغب بعد في دخول عالم الناضجين، أو ربّما أنها أرادت الدخول في ذلك العالم، لتتخلّص من قبضة والديها القوية حول عنقها، خاصة من قبضة ذلك الأب المحامي. أتخيّل الهجين أصغر سنًّا، وربّما أيضًا أصغر حجمًا، لكن الأمر المؤكّد هو أن رائحة عرقه القادمة من تحت إبطيه، كانت منفّرة بنفس القدر الذي هي عليه الآن. ثم بسرعة اختلق هذا الوضع الغريب، وفكّ غشاء بكارة فتاة السابعة عشرة.

* * *

كان بول من الكونغو الكبير يحتسي الجعة إلى جوارى، وقد فهم على الفور السبب في شدّة غضبي، وغيظي من الموقف الذي وجدت نفسي فيه.

هو: يا خبير الأرداف، يمكنك كما تعرف أن تتحدّث معي دائمًا فيما يتعلّق بمشكلاتك، فكما تعرف أنني بئر بلا قرار، يمكنك أن تبوح لي بالأسرار، دون أن تخشى أي شيء، فأنا أحتفظ بكل ما يقال لي لنفسي. من جهة أخرى هل سمعتني مرّة واحدة أسخر منك، كما يفعل الآخرون؟ أنا الآن قلق عليك جدًّا، فأنت لم تعد نفس الشخص الذي

عرفته سابقاً؛ إذ يبدو عليك كأنك لم تعد تنام البتّة. ماذا حدث لك؟
أنت لم تعد تجالسنا في الحانة، بل تبتلع الزجاجتين، وتجري في اتجاه
الباب، كأنك تهرب منا، أو كما لو أن أحداً قد حدّد لك موعد عودتك
إلى المنزل، الذي لا ينبغي لك أن تتعدّاه. هل هي اللون الأصلي التي
تصعّب عليك حياتك بهذه الطريقة؟

أنا: كلّ شيء على ما يرام. وكل ما في الأمر إنني متعب بعض
الشيء.

هو: انظر إلى عينيّ مباشرة، أنت تكذب عليّ، فأنا عندما أراك،
وأجد عينيك حمراوين، أعرف أنك تعاني، ولا تقل لي إن ما تكتبه على
ألتك الكاتبة، هو السبب في هذا العذاب. ما هو السبب إذن؟

وفقاً لما قاله بول من الكونغو الكبير، فالفتاة في ساعات الارتباك
الأولى تلك، لا تنسي أبداً الرجل الذي فكّ غشاء بكارتها. ثم قرّرتُ
محو تلك الصور من ذاكرتي، ووصلتُ إلى قرار.

* * *

عرفت أن الهجين قد تحدّث مع عربي الناحية. وأن التاجر العربي
قد استحسن الهجين، بعد هذا الحديث الذي دار بينهما. وذات ليلة
عندما دخلت متجره، لشراء اللبن والجعة، قال:

هو: هل تعرف من هو الشاعر الأسود الذي قال هذه الكلمات
الشجاعة (إن أوروبا قد شحنتنا بالكاذيب ذات الروائح النتنة)؟ لقد

سبق وأن قلت لك هذا الكلام. يا أخي الأفريقي مساء أمس، جاءني أحد أفراد عائلتك، وهو ابن عمّ لزوجتك، كنت أراه غالباً وهو يخرج في وقت متأخر من البناية، ويجري ليلحق على ما أعتقد بآخر قطار أنفاق، نفس طريقة جري الناس، الذين يخطفون الخضراوات والفواكه من واجهة متجري. تساءلت كثيراً من يكون، لأنني كما تعلم، ودون أن أقصد، أعرف كل سكان البناية واحداً واحداً.

يا له من إنسان طيّب، ابن عم زوجتك هذا، إنه لا يرفع صوته أثناء الحديث معك، ثم إنه ينصت باهتمام إلى كلّ ما تقوله، ويضع ذراعيه متقاطعتين فوق صدره، حتى لا تشغل يديه بأي شيء آخر عداك، ويحرك رأسه مع كل لفظة منك، أليست كل هذه دلالات على شدة احترامه لمن يتحدّث إليه؟ ثم إنه مثقّف جداً ابن عم زوجتك هذا، لأن الثقافة تأتي في الأساس من القدرة على الإنصات. وفي حين أن العالم الغربي يعطي قيمة أكبر لقول كلمة، فإن عالمنا الشرقي يعطي قيمة أكبر للصمت وللإنصات. كان والدي يقول لي: ”إن من ينصت جيّداً هو أكثر حكمة ممن يتكلّم جيّداً“.

هل تعرف أن ابن عم زوجتك هذا قد ذهب إلى الجزائر والمغرب، لإقامة حفلات للموسيقى الأفريقية التقليدية؟ هل تعرف أنه الموسيقي الأفريقي الوحيد الذي نجح في تحقيق مثل هذا الإنجاز؟ إننا في أشدّ الاحتياج إلى قيام تبادل ثقافي من هذا النوع، بين الشعوب العربية وبين إخوانهم من الشعوب الأفريقية. نحن فيما بيننا لا يعرف بعضنا بعضاً معرفة جيدة، لذلك هناك بعض الحمقى يذكرون، أن العرب قاموا

باستعباد إخوانهم الأفريقيين السود في أزمنة سابقة. هل يمكنك أن تصدّق أكاذيب كهذه؟ يجب أن نهتم بهذا الموضوع، لأن الغرب يهتم بإثارة مثل هذه المسائل الحسّاسة الشائكة بيننا.

يجب أن نعرف جميعاً أن تاريخ استعباد الشعوب السوداء، هو نفسه تاريخ الاستعمار الغربي لأفريقيا، وأنه لا علاقة للعرب بكل هذا. إن العرب والسود أخوة، ولا يمكن لأحد أن يضع أخاه في العبودية. باختصار أردت فقط أن أذكر لك، كم كنت سعيداً عندما عرفت، أن ابن عم زوجتك قد زار الجزائر والمغرب، وأنه أحب هذين البلدين. فهو على الأقل هكذا يعرف كيف يعيش أهلنا في البلاد، وقد أدرك ما الذي يعنيه عندنا الاحترام. ولن أخفي عنك سرّاً، لقد قال لي إنه يرغب في اعتناق الإسلام، أليس هذا خبراً جميلاً؟ لقد فهم هو كلّ شيء، فهو يريد أن يتبع خطى السود الذين أصبحوا مسلمين، أولئك السود الذين غيّروا العالم، ويستمرّون في تغييره، مثل الملاك محمد علي، والسياسي مالكولم إكس، وغيرهما من أمثال كريم عبد الجبّار ولويس فرخان.

هل تدرك أن ابن عم زوجتك هذا كان يناديني (بابا)، لقد دمعت عيني، ثم انخرطت في البكاء، وتساءلت لماذا لا تناديني أنت أبداً (بابا)؟ في حين أننا نعرف بعضنا منذ سنوات. أنا في الحقيقة يمكنني أن أكون والدك، ففرق السنّ بيننا يسمح بهذا، بالإضافة إلى صلعة رأسي، وإلى بعض شعري الرمادي المتبقّي حتى الآن.

لو كان لدينا في فرنسا مليون مهاجر، من عيّنة ابن عم زوجتك،

لأمكننا أن نصبح أقوياء في مواجهة الغرب، بالإضافة إلى أن لديه موهبة استثنائية، وهي أنه يرأس فرقة موسيقى شعبية تقليدية، وهي فرقة مشهورة جدًا على مستوى العالم، لأنه بيني وبينك، إذا كان قد ذهب لعزف موسيقاه في الجزائر والمغرب، فيجب قبل ذلك أن يكون مشهورًا في العالم أجمع؛ لأنه إذا لم تكن هذه الفرقة على هذه الدرجة من الشهرة العالمية، ما كلّف الجزائريون والمغاربة أنفسهم مشقة الذهاب إلى حفلاتها. أنا أعرف شعبي.

وقد أخبرني ابن عم زوجتك كذلك برغبته، في العودة نهائيًا إلى الكونغو، ومعه أفراد فرقته، أليس هذا الموقف جديرًا بالاحترام؟ إذ يجب علينا جميعًا أن نعود يومًا ما إلى بلادنا الأم في أفريقيا، حتى نستطيع يومًا ما أن نحقق حلم الوحدة الأفريقية، التي نادى بها مرشدنا الروحي، الزعيم والقائد معمر القذافي، ونحوّله إلى حقيقة معاشة. وقد قال قائدنا هذا، نفس ما سبق أن قاله زعيم الزنوج الأمريكيين مارتن لوثر كينج (لديّ حلم)^(٧١).

إن الواجب علينا هو التعاون فيما بيننا، لتحقيق حلم الوحدة الأفريقية، فليس الغربيون هم الذين سيساعدوننا في تحقيق هذا الحلم؛ إنهم في منتهى المكر والدهاء. فقد نجحوا في خلق اتحادهم الأوروبي، ورغم أنهم فشلوا في التواصل والتفاهم فيما بينهم، إلا أنهم لا يريدون أن يعلنوا فشلهم على العالم، لذلك هم يستمرّون في لعب التمثيلية. كانت العملة الموحّدة هي أول دلائل اختلافهم، فقد رفضتها بريطانيا، وتشككت فيها هولندا والسويد.

ثم يا أخي الأفريقي لماذا يرفضون انضمام تركيا إليهم؟ سأقول لك لماذا، فالسبب هو أن تركيا مسلمة، ورجالها يمارسون تعدد الزوجات، والأوروبيون كلهم ضد فكرة تعدد الزوجات. لذلك أتساءل ماذا سيفعل الأتراك المساكين لحل هذه المشكلة؟ لهذا أقول لك إننا لو نجحنا في خلق اتحادنا الأفريقي، بفضل قائدنا ومرشدنا الرئيس القذافي، فيمكن لتركيا أن تنضم إلينا، لأن تعدد الزوجات ليس تقليدًا غريبًا على العرب أو على الأفارقة، بل إنه في الحقيقة نوع من إثراء المجتمع.

هذا هو ما قلته لابن عم زوجتك، الفنان الكبير المتواضع، ولقد فهم كل شيء من الألف إلى الياء، إنه مدعاة فخر لقارتنا. سألته هل هو الذي يلعب على الطمطم الذي نسمع صوته آتياً من البناية؟ قال نعم فهو يعزف عليه ليهدد الطفلة الصغيرة، وليعوّدها على البيئة الأفريقية.



(٦)

كدت أن أصاب بأزمة قلبية، في اليوم الذي عادت فيه اللون الأصلي من الخارج، بقصة شعر جديدة. كانت لديها من قبل صفائر شعر خضراء اللون، وأخرى بيضاء اللون، ومعلق على الصفائر نوع من الصدف البحري، الذي كان يستعمل قديمًا في أفريقيا كعملة نقدية، بنفس طريقة بطلتي التنس العالميتين، فينوس وسيرينا ويليامز، في تصنيف شعريهما، وهما تلعبان هنا كل عام، في بطولة فرنسا الدولية للتنس، المعروفة باسم (رولان جاروس). بفضل ما أسرّ لي به ماك شابيه في حانة سانجو، وأنا أعترف هنا أن هذا الشخص في ذلك اليوم، قد قدّم لي خدمة كبيرة بشكل غير مباشر، إذ استطعت أن أفهم أن تغيير قصة الشعر، هو غالبًا بناء على طلب الهجين.

أنا: هل أنت تذهبين إلى صالون الحلاقة لإغواء ابن عمك؟

هي: لماذا تقول هذا؟

أنا: لأنه ينبغي أن تكوني جميلة، بمناسبة حضورك حفلهم الغنائي في نهاية هذا الأسبوع.

هي: هل نسيت أنني لا أتكلم معك؟ وأنا لن أتكلّم معك أبداً بعد ذلك. إذن اتركني في حالي؛ إذ إن من حقّي أن أحول شعر رأسي إلى ضفائر كما أشاء. هذا هو رأسي أنا، وليس رأسك أنت.

أنا: ومن أين حصلت على النقود اللازمة للذهاب إلى حلاق الشعر؟

هي: إن نيكول صاحبة المحلّ قدّمت لي هذه القَصّة مجّاناً مؤقّتاً، على أن أسدّد ثمنها، عندما أحصل على نقود.

شعرت بهذه الكلمة، كما لو أنها كانت وجّهت لكّمة إلى كبريائي الذكوري، فأنا لا أعطيها ما يكفي من النقود. أما نيكول فهي امرأة مكافحة، أنا أعرفها، وأكنّ لها كلّ احترام، فهي تدير وحدها وبكفاءة، أربعة محلات حلاقة وتصفيف شعر نسائية، تمتلكها وحدها في شاتودو، وقد بدأت نشاطها هذا منذ سنوات طويلة، وقت أن كانت طالبة في كلّية الطب.

ذهبت يوم السبت لزيارة صديقي الكاتب لويس فيليب، حيث احتسينا الخمر في حانة، ثم تركته وجعلت أفكّر وأفكّر، أثناء لّقي ودوراني بلا هدف، على الأقدام في شوارع شاتوروج. كما لو أنني كنت لا أريد العودة إلى المنزل، أو لا أريد مواجهة اللون الأصلي. يوم السبت هو يوم إجازتها الوحيد، فمتجر الملابس الذي تعمل به لا يفرغ أبداً من زبائنه، لذلك هو يفتح أبوابه سبعة أيام في الأسبوع، وقد وافق صاحبه على غياب اللون الأصلي في يوم السبت، فقط عندما قالت له إنها لا تجلس أبداً وقتاً كافياً مع طفلتها.

بشكل عام هي لا تخرج أبدًا يوم السبت بل تظلّ مع الطفلة، إلا أنها في ذلك اليوم كانت تستعدّ للخروج. ربّبت لي رضعة الطفلة، وكتبت لي على ورقة: "يجب أن تحصل هنرييت على رضعتها هذه في تمام الساعة السابعة". ثم ألقت على نفسها نظرة إعجاب أخيرة في المرأة، واتجهت نحو باب الشقّة، دون أن توجّه إليّ كلمة واحدة. بقيت جالسًا أفكر ساعة في مكاني، ثم أخذت الطفلة بين يديّ وتركتها لدى مرضعة الرأس الأخضر. كانت هذه السيّدة تنضح باللفظ والرفقة والحنان، حتى إنها كانت تعطينا أنا واللون الأصلي من طعام بيتها، رغم أن لديها تحت سقفها سبعة أفواه تطعمها.

أخذت مني الطفلة، ثم سألتني: «أين ذهبت أمها؟»، قلت: «أنا ذاهب لأبحث عنها»، قالت: «هل أنت بخير يا ابني؟»، قلت: «نعم يا أمي، فكل شيء على ما يرام».



ذهبت إلى لويس فيليب، حيث احتسنا شراب الروم معًا، وقد أضفت إليه بعض السكر، إلا أنه يبدو أن كمية السكر كانت أكثر من اللازم، لأن تأثيره عليّ كان قويًا جدًا. عند مغادرتي شقّته، مشيت وأنا أثبت عينيّ على الأرض؛ حتى أحاول أن أحتفظ بتوازن جسدي، ضدّ جاذبية الأرض. لديّ إحساس بأنني لم أعد أستطيع السيطرة على توازن جسمي، وكلما رفعت رأسي إلى مستوى النظر أمامي، تولّد لديّ الانطباع، كأن السماء سوف تسقط عليّ. دخلت متجر أحد أصدقائي

الكونغوليين، الذي يبيع أسطوانات من موسيقى بلادنا، فعرض عليّ تشكيلة أسطوانات، من آخر ما وصل إليه الإنتاج الموسيقي في بلادنا، ثم انشغلنا بما أفعله في كلّ مرّة أحضر فيها إليه، وهو الاستماع إلى موسيقانا وأغنيّات بلادنا من فترة السبعينيات والثمانينيات، وهي الفترة الموسيقية المفضّلة لديّ.

وضع لي على جهاز الاستماع، أسطوانة موسيقى (الحرّية)، للموسيقي فرانكو لواامبو ماليكادي، مع فرقة OK وهي من أكبر فرق الجاز الأفريقية، وكانت هذه الأسطوانة تؤثر فيّ بشدّة؛ إذ عندما أنصت إليها أرى في خيالي مناظر من بلادي، ثم تحضر إلى الذهن ذكرى تلك الحفلة الموسيقية، التي أقامها هذا الموسيقي في حانة الأمسية الجميلة (جولي سوار) في مدينة (بوانت نوار). يا لها من ذكرى.

ولأننا كنا صغار السنّ جدًّا، لذلك لم يدعنا حرس البوّابات ندخل. كان يجب أن ندفع لهم شيئًا، حتى يتغاضوا عن مسألة صغر سننا تلك، لكننا لم تكن معنا أي نقود إضافية. لذلك ذهبنا إلى المنطقة خلف المسرح، وتسلقنا أفرع شجرة مانجو وتعلّقنا بها، حتى تتمكن من رؤية مغنينا ضخّم الجثّة فرانكو العظيم، بجيتاره الذي عزف عليه بمهارة وتفرد. اعتقدت لفترة أنه يجب عليّ أن أكون ضخّم الجثّة مثله، لو أردت أن أكون موسيقيًا محترفًا مثله، وأن أكون قادرًا على إثارة مشاعر الجماهير مثله. كنت شديد الإعجاب بكل هؤلاء الموسيقيين، الذين يرتدون قمصانًا حريرية ملوّنة، وسراويل من الجلد ملتصقة بالجسد.

في تلك الليلة التي لا تُنسى، تابعت بإعجاب وتركيز شديدين، كل الرجال والنساء الذين صعدوا في ثنائيات إلى ساحة الرقص، التي كانت مرتفعة قليلاً عن أرضية الصالة، حتى يتمكن الجمهور من رؤية الراقصين والراقصات، وخاصة الراقصات. بدا لي كأن الرجال يعتصرون أجساد النساء اللائي يرقصن بين أذرعهم. وحيث إن أغلبية الجمهور كانت من الرجال، لذلك وقف أولئك الذين لم تكن لديهم نساء، في ركن من القاعة صابرين، وفي أعينهم نظرات حزينة، لكلام غير مرغوب فيها، ولكن على أمل ضئيل، أن يتخلّى أحد الرجال عن رفيقته، فيحلّ محله رجل آخر.

هذه الأغنية بالتحديد (الحرية)، كانت تقذف بي دائماً إلى أعماق حالة من الحزن والشجن الشديدين، وكانت الكلمات التي يطالب فيها المغني، بحريته في أن يفعل ما يبدو له جيّداً وصالحاً، ويرفض وصاية الكبار على اختياراته، كانت تلمس شغاف قلبي. حرية الاختيار هي المشكلة الأزلية بين الأجيال^(٧٢). في نهاية استماعي إلى هذه الأغنية الشجيّة، في متجر صديقي، استدرت وأنا في تلك الحالة من الشجن، لأخرج من المتجر، راغباً في العودة إلى المنزل، لأفاجأ عند باب المتجر، بدخول اللون الأصلي وهي تتعلّق في ذراع الهجين!

كانت حالة الشجن مستمرة، فلم أتفاعل كما ينبغي مع الموقف. عندما لمحي هو؛ تخلّى على الفور عن ذراعها، وجرى في اتجاه الشارع. لم أشهد أبداً من قبل رجلاً يجري بهذه السرعة، حتى إنه عبر الشارع دون أن ينظر في أيّ من الاتجاهين، فكادت سيّارة أن تدهسه.

حتى اللون الأصلي غادرت المحل وحدها دون أن ألحق بها، وظلت
مختفية بضعة أيام، عرفت فيما بعد أنها كانت تقيم عند إحدى صديقاتها
القديمات من نيجيريا. ماذا كانا يفعلان في تلك الليلة، وجعلهما يخافان
إلى هذا الحد من مواجهتي؟

لم أعد إلى المنزل بل مشيت إلى حانة جيبس، ولم تكن عصابة
الأصدقاء هناك، بل لم أجد إلا بول من الكونغو الكبير، الذي كان يقاوم
النعاس أمام زجاجة الجعة البيلفورث، عندما رأيته قال: «ها هو ذا خير
الأرداف قد وصل، لكنني أقول لك أيها الخير، ليست الحياة كلها
أرداف، بل إن هناك الأثداء أيضًا».



فيما بعد عادت اللون الأصلي إلى الشقة، ولم نذكر أبدًا ولا مرة
واحدة، حادثة متجر الأسطوانات. رغم أنه كان لديّ إحساس، بأنها
كانت تريد في بعض اللحظات أن تشير إلى شيء ما، إذ كانت تتوقف
أمامي وتنظر إليّ، لكنها تستأنف على الفور ما كانت في سبيلها إلى فعله
ولا تقول شيئًا. لم تعد تسمح لي بأخذ الطفلة بين ذراعيّ. كانت تتركها
طول الوقت لدى مرضعة الرأس الأخضر، أثناء ذهابها إلى العمل،
وحتى بعد عودتها من العمل. ولا تستردّها إلا في نهاية المساء قبل
الذهاب إلى الفراش.

ثم ذات ليلة حال عودتي من حانة جيبس عند منتصف الليل،
وجدت باب شقّتنا نصف مفتوح، والأنوار الكهربائية كلها مضاءة، وقد

اختفت آلة الطمطم من موقعها في منتصف الصالة، ثم أدركت أن كل ما يخص اللون الأصلي من أثاث وأغراض قد اختفى من الشقة. كنت أنصت إلى وقع خطوات قدمي فوق خشب الأرضية، وقد تضخم هذا الصوت بسبب فراغ الشقة من محتوياتها.

وجدت في دليل الهواتف رقم تليفون والدها المحامي في (نانسي)، بمجرد أن ردّ عليّ، وعرف من أنا، أراد على الفور قطع الاتصال، وادّعي أنه لا يعرف تلك التي أقول إنها ابنته، كأنه أنكرها وتبرأ تمامًا منها، وقد استعمل معي بعض الألفاظ المهينة مثل: (وغد) و(حقير). هنا حضرت إلى ذهني قصة الوزير (ماتو سالم)، الذي أراد ذلك الرجل المحامي والأب تزويج ابنته إليه، وأدركت أنه يكرهني بسبب أنني من أفضل له مشروع الزواج هذا، الذي كان سيجعله يربح الكثير من الأموال والنفوذ، ولو على حساب سعادة ابنته.

لكن الحقيقة هي أن من أفضل له خطته هو الهجين وليس أنا. لكن يبدو أن هذا المحامي قد اعتقد أن من يتحدّث إليه الآن هو الهجين؛ لأن آخر ما قاله لي في هذه المكالمة هي هذه الجملة: «أيها المغني الحقير سترى كيف سأعيدك إلى السجن».

لم تتصل بي اللون الأصلي إلا بعد مرور عشرة أيام على اختفائها من الشقة، لتخبرني أنها قد عادت إلى الكونغو برازافيل، وأنها تطالبني بالمشاركة في مصروفات ابنتنا، بدفع مبلغ من المال كل شهر، للصرف على غذائها وكسائها، وقد حدّدت بنفسها قيمة هذا المبلغ، وأسلوب دفعه. لم أفكر في الذهاب إلى صديقي الكاتب لويس فيليب لاستشارته

في الموضوع؛ وذلك لأنه مشغول بالانتهاء من كتابه الذي سيصدر قريباً؛ وهو في هذه الحالة لن يكون قادراً على فهم أي شيء يخرج عن موضوع كتابه، أو موضوع العصفير التي تقف فوق أفرع الأشجار في الحدائق العامة. لذلك ذهبت إلى أصدقائي في حانة جيبس لاستشارتهم.

- قال لي روجيه الفرنسي الساحل عاجي: «إن هذا المبلغ الشهري يكفي في الكونغو، لغذاء وكساء طفلين اثنين، وليس طفلاً واحداً؛ وبالتالي فإن اللون الأصلي تنوي سرقة أموالك»، ثم أثار من جديد موضوع شكوكه، في أن هنرييت هي ابنتي أنا، وليست ابنة الهجين، لأن روجيه غير مقتنع بمسألة تشابه أصابع أقدامنا. لكنه رغم ذلك نصحني بأن أدفع مساعدة مالية شهرية لأم الطفلة؛ لأن الخطأ ليس خطأ الطفلة، إذا كانت قد جاءت إلى العالم، وسط كل هذه البلبلة، على أن أتفاوض مع الأم في قيمة المبلغ المالي الذي تطلبه.

- ثم أخبرني (ويلي) أن لديه أصدقاء في البلاد، من بين أكبر قطاع الطرق، وهم يمارسون مهنة قطع الطريق منذ سنوات طويلة، بعد أن كانوا قد حاربوا في أنجولا وكابيندا كمرتزقة، وهم مستعدون أن يقتلوا أي شخص، في مقابل سيجارة مارلبورو لايت، وأنه يمكنني الاستعانة بهم، في تحطيم رأس الهجين، وفي اختطاف الطفلة من أمها وإعادتها إليّ، مقابل مبلغ صغير من المال؛ إذ إنني لا يجب أن أترك هذه المسألة تمر هكذا بسهولة.

- أما إيف الساحل عاجي، فأراد هو الآخر أن يدلي بدلوه في الموضوع، لكن بشرط أن تساهم مشاركته هذه، في تصفية الديون

الفرنسية منذ الحقبة الاستعمارية. قال: «هذا هو ما وصلنا إليه يا خبير الأرداف، اذكر لي الآن ما الذي كسبته أنت من هذه المسألة؟ هل أنت ساهمت في تقديم أي نفع لقضيتنا الوطنية؟ بسبب رجال مثلك، تظل ديون الاستعمار الفرنسي كما هي. إلى متى أظل أحاول أن أثّر فيكم النخوة الوطنية دون جدوى؟».

- أما لوبلان فقال إنه يعرف شخصًا، يعرف بدوره شخصًا آخر، يمكنه أن يجعلنا نتصل بالمحامي الأستاذ فيرجيس، الذي يكسب دائمًا كل القضايا التي يترافع فيها، حتى إنه نجح في تبرئة أحد رجال الجستابو^(٧٣) السابقين في مدينة (ليون)، الذي كان متهمًا، أثناء الحرب العالمية الثانية، بأنه المسؤول عن عملية ترحيل ٤٤ طفلًا يهوديًا إلى معسكرات التجميع حيث تمّ قتلهم، وإنه المسؤول كذلك عن القبض على زعيم المقاومة الفرنسية جان مولان، وتعذيبه والقضاء عليه.

لم أرد الدخول في مهارات قضائية، ليست لها نهاية، وليس من طبعي استعمال العنف واللجوء إلى قطاع طرق؛ لإنهاء المسألة بالساطور. ولم أرد الذهاب إلى برازافيل للتفاوض مع اللون الأصلي والهجين؛ فأنا لا أحبّ المواجهات، خاصة وأن البلاد بدت لي بعيدة جدًا، بعد أن مرّت خمس عشرة سنة منذ غادرتها. لكل ذلك فضّلت أن أرسل النفقة الشهرية المتفق عليها دون نقاش. أنا فعلت هذا من أجل تلك الطفلة، التي هي من المؤكّد ابنتي.

إن المرّات القليلة التي اتصلت بي اللون الأصلي فيها من البلاد، هي بهدف تذكيري بموعد إرسال النفقة الشهرية للطفلة، وليس لأي

شيء آخر، دون أي مقدمات أو مجاملات، فكنت أقاطعها على الفور صارخاً فيها إنني لست نافذة الكترونية في بنك الائتمان الزراعي (كريدي أجريكول)، في مدينة (شارنت ماريتيم)، وأذكرها بأن النفقة ليست لها، بل للطفلة. رغم ذلك كنت أذهب في المواعيد إلى بوابة (لا شابيل)، لأرسل لها المبلغ بنظام الويسترن يونيون. كنت أقف في الطابور مع الرجال الماليين، الذين يرسلون كل ما يكسبونه إلى ذويهم في مالي، لأنهم -على ما يبدو- يبنون منازل هناك، سيقيمون فيها بعد وصولهم إلى سنّ التقاعد.



الفصل الثالث

(١)

في كل مرة كنت أجلس فيها لأكتب، سواء في شقّتي أو في الحديقة العامة، أنظر طويلًا إلى آلي الكاتبة، وأقول لنفسني إنني اشتريتها فقط، لأنني تعرّفت إلى صديقي الكاتب لويس فيليب، الذي كان ذات مرّة مدعوًا إلى مكتبة الستارة الحمراء، التي تقع في حينًا، لتوقيع كتابه الأخير، ولللقاء مع قرّائه. الحقيقة هي أن صديقي روجيه الفرنسي الساحل عاجي، يخطئ في اعتقاده أنني اشتريت هذه الآلة، لأكتب بها تفاصيل الخلاف بيني وبين اللون الأصلي، بخصوص مسألة تدخل الهجين في حياتنا.

صحيح أن هذا الموضوع يشغل جزءًا كبيرًا من تفكيري، وبالتالي أخصّص بعض الوقت لتسجيله. وصحيح كذلك أن المحلّلين النفسيين، يمكنهم أن يحكوا مئات الحكايات، عن موضوعات مشابهة. إلا أن الفضل كل الفضل لانطلاقي في الكتابة، يعود في الأساس إلى

بداية صداقتي مع لويس فيليب. لم أكن قد سمعت عن هذا المؤلف قبل لقائي به في تلك المكتبة. فرغم أنني قارئ لا بأس به، إلا أنني لا أقرأ إلا لكتاب موتى؛ وذلك بسبب أن الكتاب الأحياء المعاصرين يغيظونني ويجعلونني أفقد أعصابي.

فأنت عندما تراهم في التلفزيون، تجدهم يلقون خطاباً عصماء عن أهمية مؤلفاتهم، ثم إنهم راضون تماماً عن أنفسهم، ولا يتسرّب إليهم أي شك في قناعاتهم، كأنهم بعد أن عثروا على حجر الفلاسفة، نجحوا في حل المعضلة الهندسية المتعلقة بمسألة تربيع الدائرة. في حين أن الموتى قد أتموا أعمالهم، ثم قدّموا لنا تحيياتهم ورحلوا في سلام، وهم الآن يستريحون في سلام في مدافنهم، تحت أقدام أشجار الصفصاف، الحزينة الباكية المتدلّية الأغصان، تاركين لنا مطلق الحرية، في أن نقول كلّ ما يعنّ لنا من آراء، حول أعمالهم الفكرية والأدبية، دون أي تدخل منهم. ثم إنهم يعرفون أننا لا بدّ أن نقرأهم إن أجلاً أو عاجلاً، حتى لا نوصم بالجهل.

ذهبت إلى مكتبة الستارة الحمراء بالصدفة، في اليوم التالي على اليوم الذي اشتبكت فيه مع اللون الأصلي، بخصوص مسألة ارتداء الهجين تي شيرت من ملابسي، فأعلنت عليّ هي حرب طروادة، بعد أن كنت قد ذكرت جلد أردافها، بمناسبة حديثي عن ارتفاع ثمن التي شيرت. وكنت أريد أن أبتعد عن الشقة لأطول وقت ممكن، وأنفّس بعض الهواء النقي. فوجئت بوجود زحام أمام باب المكتبة، وكنت أعتقد أن الناس تتجنّب دخول المكتبات، حتى لا يتورّطون في شراء

كتاب لن يقرأه أحد، وقد تخرج بعض شخصيات تلك الكتب، من بين صفحات الكتاب، وتطارد من اشترى الكتاب أثناء نومه.

إذن دخلت المكتبة، بدافع من الفضول وحب الاستطلاع، قلت في نفسي لا يهم حتى لو تمّ توريطي في شراء كتاب. كان لويس فيليب مشغولاً بتوقيع إهداء على الصفحة الأولى من الكتاب، ورفع رأسه بين توقيعين، وبدا لي أنه قد ظهرت على وجهه ملامح ابتسامة عندما رأيته. لا شك في أن الكتاب كلهم يتشابهون، وأنا لن أصل أبداً إلى فهم قدرتهم العجيبة على الإيحاء إلى قرائهم بأنهم يعرفون هؤلاء القراء معرفة جيدة. غمز لي بعينه علامة على التواطؤ بيننا، كأنه يريد أن يقول لي: "لقد رأيتك، فلا تحاول أن تهرب مني". هكذا بقيت أدور حول أكداش الكتب.

كان الصفّ الطويل من راغبي الحصول على توقيع المؤلف على النسخ، يتكوّن في الغالبية العظمى من فتيات، كل واحدة منهنّ تحاول جذب انتباهه إليها بنظرات الأعين، أمّا هو فكان يعرض عليهنّ جميعاً نظراته الأكثر إغواءً. انشغلت كما هو متوقّع، بمراقبة كل هذه المؤخّرات النسائية الجميلة، محاولاً أن أكتشف تلك من بين القارئات، التي جاءت إلى المكتبة وفي ذهنها غرض آخر، غير الحصول على توقيع المؤلف على الكتاب. لاحظت أن هذا المؤلف يجامل كل قارئة تقف أمامه، ويضع إهداءات مختلفة للشخصيات المختلفة، بعد حوار قصير مع كلّ منهن. كان قد أمكنني أن أسمع صوته العميق من على بعد، وهو يسأل كل واحدة عن اسمها.

لاحظتُ مديرة المكتبة أن نظراتي تتوقف طويلاً عند مؤخرات القارئات، ولاحظتُ أنها مرتبكة بعض الشيء، وحتى أخفف عنها هذا الارتباك، أمسكت بنسخة من أحد كتب المؤلف لويس فيليب، ووقفت في الطابور؛ كأني أرغب أنا أيضاً في الحصول على توقيعه. كان الكتاب الذي التقطته بعنوان (صورة ضوئية لحلم طفولي). وأدرت أنني يجب أن أدفع ثمنه أولاً، قبل الوقوف في طابور التوقيعات، فذهبت به نحو خزانة المكتبة. أرادت هي أن تشرح لي المعنى خلف عنوان الكتاب، إلا أنني كنت غير قادر على التركيز فيما تقوله لي.

ضبطتني المديرة من جديد، وأنا أنظر إلى إحدى المؤخرات، لفتاة سمراء هوجاء، تقف الآن أمام الكاتب، وكان غرضي بريئاً؛ إذ أردت فقط أن أعرف، مدى الشبه الذي يمكن أن يكون بينها، وبين مؤخرة اللون الأصلي التي فقدتها، إلا أنني اكتشفت أن الفرق بينهما، هو الفرق بين محرّك سيارة أوتوماتيك (ذاتية الحركة) هي اللون الأصلي، وبين سيارة عادية تسير بالتوجيه اليدوي من أداة تحريك علبة التروس لهذه الفتاة. كانت هذه السمراء تحاول أن تطيل فترة الحوار بينها وبين الكاتب، ولم تعد ترى الطابور الطويل الواقف خلفها.

واضحاً في اعتباري الطريقة التي يحاول بها الكاتب أن يبدي اهتمامه بالقارئة، قلت في نفسي «إن هذه الحكاية ستنتهي بالوضع الأفقي لجسديهما، في أحد الفنادق الرخيصة بشارع بتيت زيكوري». ولقتل الوقت عدت إلى قراءة الغلاف الخلفي للكتاب الذي أحمله في يدي. أدرت أن الفتاة من هايتي، وهي بلد المؤلف، فقد ذكرت اسم

هذه الجزيرة بصوت مرتفع، ثم حكت للمؤلف ولنا جميعاً، كيف أن لها عمّاً لا يزال يعيش هناك، يبلغ هذا العام سن الثانية والتسعين، ساعد العديد من الشباب الهايتي خلال عمره الطويل هذا، على الهرب من ظلم الحكم الاستبدادي لنظام بيبي دوك (أو لعلها قالت بابا دوك)، رغم أنه هو ظلّ في البلاد.

ثم دخلتُ في سلسلة طويلة من التفاصيل، ولا أحد يريد أن يذكرها بالطابور الواقف خلفها، فحكت عن أن هذا العمّ هو أحد فطاحل الفودو^(٧٤)، كان قد تعلّمه في صغره على يد أفضل ممارسيه، وأن هذا العمّ لديه عددٌ كبيرٌ من لوحات الفنّ التشكيلي الساذج. ثم قدّمت هذه الفتوى بخصوص أن أفضل كتاب في تاريخ العالم وفقاً لهذا العمّ، هو كتاب (بلد دون قبعة) من تأليف داني لافيريار، لأنه أفضل من عبّر عن روح تاهيتي؛ حيث كل أبطال هذا الكتاب هم من نوع الزومبي^(٧٥)، الذين يدورون نهاراً وليلاً في الشوارع.

قالت السمرء إنها قابلت هذا المؤلف لافيريار شخصياً، وإنه يقيم شتاءً في ميامي بفلوريدا بالولايات المتحدة، وصيفاً في مونتريال بكندا. وأضافت أنه شخص عبقرى، لديه حسّ فكاهي عالي. نجح لويس فيليب في مجازاة الفتاة، حتى لا تعتقد أن تقرّظها لمؤلف آخر قد ضايقه، في حين أنه من المفروض أن يحدثنا هو عن نفسه. ابتسم لها ابتسامة بدت صفراء إلى حدّ ما، وقال لها إن لافيريار هذا هو أحد أصدقائه، ثم نصحتها بأن تقرأ للافيريار كتاباً آخر هو (ذوق الفتيات الشابات).

ثم جاءت فتاة حمراء الشعر، لتقطع استرسال هذه المحادثة، فألقت نظرة نارية على الفتاة السمراء، فهمتُ منها أنه يجب عليها أن ترحل فوراً، فخرجت من المكتبة وهي تتذمر، هنا أخذت الفتاة حمراء الشعر كرسيّاً منخفضاً بلا ظهر، وجلست عليه في مواجهة لويس فيليب. كان كلامها مباشراً؛ إذ قالت إنها عندما تذهب إلى الفراش، تأخذ معها أحد كتب المؤلف، خاصة رواية (قلم رصاص الإله الطيب ليست به ممحاة)، وهي تتخيّل أثناء القراءة، أن الكاتب معها على الفراش يتحدث إليها وحدها شخصياً.

قالت: أريد إهداءً حقيقياً خاصاً بي أنا وحدي، وليس من نوع (مع تحيات المؤلف)، بحيث يجعلني هذا الإهداء أشعر، عندما أفتح أول صفحة، أنك دائماً إلى جوارى في الفراش قبل القراءة، حتى لو كان هناك رجل آخر فعلاً إلى جوارى في نفس الفراش.

رفع لويس فيليب عينيه إلى سقف المكتبة، ثم كتب شيئاً ما، ومدّ يده بالنسخة إلى الفتاة حمراء الشعر، التي أسرعَت على الفور بقراءة الإهداء، فاحمرّ وجهها حتى أصبح بلون شعرها، ووقفت في مكانها، وهي ترسل إلى المؤلف قبلة في الهواء. تابعت مؤخرة هذه الفتاة حتى خروجها من باب المكتبة، وأنا أقول في نفسي: «إن هذه المؤخرة هي بركان نائم، قابل للتفجّر في أي لحظة».

في هذه اللحظة جاء لويس فيليب نحوي، وكان كتابه لا يزال تحت إبطي، وناداني بـ(أخي العجوز). أخبرته إنني أسكن هذا الحيّ، فقفز من الفرع. قال: «إذن نحن جيران، ستبادل أرقام الهواتف، وستنمو الصداقة

بيننا، ويمكنك أن تمرّ عليّ في منزلي وقتما شئت، سأجعلك تذوّق الروم القادم من بلادي تاهيتي، إنه معروف باسم روم الباربانكور». خرجنا معاً إلى شارع ريكيه، ثم أخذنا مائدة في مقهى (ملك المقاهي)، فجلست بحيث كان ظهري إلى الشارع، لذلك تمكّنت من رؤية كيف أن عيني لويس فيليب، تتابعان مؤخّرات كل الفتيات العابرات على الرصيف أمام المقهى. إذن نحن نهتمّ بنفس الأشياء، ويمكننا فعلاً أن نصير أصدقاء.

عدت في ذلك المساء إلى منزلي خفيف القلب، دون أن أنشغل بجاري الأستاذ أبّقراط، الذي كان ينتظرني خلف باب شقّته، وأسمع صوت تنفّسه حيث هو. أضأت مصباح القراءة القوي، واندمجت على الفور في القراءة، إلا أن اللون الأصلي اشتكت من أن قوّة إضاءة المصباح قد توقظ الصغيرة. أما أنا، فكنت أبتعد بالتدريج عن هذا المكان، وأجد نفسي في مكان آخر، هو جزيرة هايتي، وبدأت في التماهي مع الطفل بطل الرواية، في مدينته الساحلية (بور أو برينس) مرفأ الأمير، الذي يطلق عليها المؤلّف لقب مرفأ القذارة؛ لأن أحداً لم يكن يهتم بجمع القاذورات، فتراكمت القمامة.

يذكّرني هذا المنظر، بالوضع نفسه الذي كانت عليه (بوانت نوار) في طفولتي، نفس تلال القمامة في كل مكان، ونفس اللامبالاة من جهة السلطات المحلية، بكل ما يتعلّق بموضوع الصّحة العامة للسكّان. إن ناس المكان في تاهيتي، يشبهون ناس المكان في الكونغو. وضعت خطوطاً تحت كل سطر؛ لأن كلّ جملة من هذه الرواية، تشير في ذهني

خيالات. كنت منبهراً كذلك بهذه اللغة الشاعرية. صباح اليوم التالي اتصلت به تليفونياً، وذهبت إليه لزيارته في منزله، حيث احتسنا معاً الروم، وأبدت إعجابي بمكتبته، أما هو فقد سخر بعض الشيء من طريقتي في ارتداء الثياب مرتفعة الثمن. سأل: «هل هذه هي الطريقة المعتادة لدى الكونغوليين في ارتداء الملابس؟».

بعد هذه الزيارة ذهبت على الفور لشراء آلة كاتبة، من نفس الطراز القديم الذي يستعمله لويس فيليب، من متجر متخصص في هذا النوع من الآلات، بالقرب من الطريق الدائري عند بوابة غابة فانسان. لم يعد هذا النوع من الآلات متوفراً؛ فالناس يستعملون الآن أجهزة الحاسب الآلي الشخصية في الكتابة. أما أنا فكنت أبحث عن تلك الصورة النمطية، التي طالما رأيناها في الأفلام السينمائية، وفي الصور الفوتوغرافية لكبار الكتاب، وهم يضربون بأصابعهم على مفاتيح الآلات القديمة، ثم يمزقون ما يكتبونه، ويرمون الورق في سلة المهملات، حتى تمتلئ عن آخرها.

كانت اللون الأصلي ترفض انشغالي بالكتابة؛ إذ بدأت في إهمال مواعيد ذهابي إلى عملي في المطابع، رغم أن هذا العمل لم يكن إلا نصف جدول، أي أنه كان يومان ونصف بدلاً من خمسة أيام. لذلك عندما بدأت في مضايقتي حتى أتوقف عن الكتابة، كنت أحمل الآلة الكاتبة بين يدي، وأذهب بها إلى حديقة الحي العامة، حيث أجلس على دكة تحت عامود الإنارة، فالنهار قصير خلال فصول الشتاء، وحولي يجلس على دكك أخرى، أو على أرض الحديقة، بعض المتشردين يحسبون زجاجات النبيذ الأحمر.

أعتقد أن منظري كان غريباً، خاصة طريقتي في الدقّ بعنف على أزرار الآلة الكاتبة، مما جعل حتى المتشردّين ينظرون في اتجاهي بنظرة، كما لو أنهم يريدون بها أن يقولوا، إنني في سبيلي إلى فقد صوابي، وإنني قريباً جدّاً سألحق بهم في تشردّهم. كنت أسجّل كلّ ما يدور في ذهني، فوفقاً لنصيحة لويس فيليب، الذي يعرف أشياء لا أعرفها عن الإلهام الفنّي، هذا هو ما يبدأ به كل الكتاب.

ثم بدأت في التحوّل إلى ما يسمّونه فأر مكتبات، ولم تعد قراءاتي مقتصرة فقط على مؤلّفات الكتاب الأموات، بل نجحت في أن أقرأ كذلك بعض مؤلّفات الكتاب الأحياء، ووجدت ضالتي في جورج سيمنون، الذي أصبح قدوتي في الكتابة، ورغبت من كل قلبي في أن أتعلّم كيف أكتب مثله، وبنفس أسلوبه، ولمن لا يعرفه فهو الذي اخترع شخصية مفتّش الشرطة الفرنسية المدعو ماجريه *Maigret*، ومغامراته في إلقاء القبض على عصابات المجرمين، وهي الروايات التي ترجمت إلى كل لغات العالم.

ثم أدركت مع الوقت أنني لا أستطيع أن أكتب، إلا عن أشياء اختبرتها بنفسي، أو عشت ملابساتها بنفسي، أو شاهدتها بعيني في الواقع حولي، على أن أكتبها بنفس الأسلوب المرتبك، الذي تبدو عليه هذه الأشياء في الواقع.



(٢)

دخلت في أول تجربة عاطفية جديدة، بعد مرور أقل من شهر على مغادرة اللون الأصلي مع طفلتنا شقة الزوجية. كان لديّ شعور بالغضب المكبوت، والرغبة في الانتقام. وأنا لست من النوع الذي ينتظر حتى تبرد الأشياء، ويفقد صحن الانتقام سخونته، بل أنا أفضل أن آكله ساخناً. ثم إنني لم أحبّ أبداً ذلك النوع من الكلام المخادع، الذي ترد بعض نماذجه في الكتاب المقدس مثل: (إذا لطمك أحد على خدك الأيمن؛ فاعطه خدك الأيسر ليلطمك عليه كذلك). ما هذا الخبل؟ أنا لا أعرف إلا الإمساك بالثور من قرنيه، لذلك ذهبت أولاً لمحاولة اصطيد الفتيات والإيقاع بهنّ، في المجتمع الباريسي الأسود، الذي يمكنني أن أتردد عليه، أو في الحفلات الموسيقية التي يحييها فتّاون من أمثال (كوفي أولوميد) و(بابا ويمبا).

إلا أنني في العديد من المرات لم يكتب لي التوفيق؛ إذ كنت أعود إلى المنزل وحدي دون رفيقة، مع إحساس بالإخفاق والخيبة، مما جعلني أستسلم لبعض الأفكار المحزنة، كأن أقول لنفسي إنني فقدت جاذبيتي، وأتساءل أين ذهبت أمجاد الغابرة؟ أو هل أصبحت فعلاً

رجلاً يعيش على انتصارات قديمة تعود إلى الماضي السحيق؟ الآن يمكن على ما يبدو، لرجال لا يساؤون شيئاً، أن يجيدوا عقد أربطة العنق أفضل مني، وهم الآن أكثر إقداماً وجرأة مني. كان لديّ إحساس كما لو أن تعاستي وسوء حظّي، مكتوبان على جبهتي، حيث يمكن قراءتهما بسهولة، أو كما لو أن تعاستي، هي بسبب لعنة أصابتنني من عمل سحري، ربّته لي اللون الأصلي.

وذات ليلة كنت في صالة الرقص (سامبا) في الحيّ الثامن، وقابلت فتاة اسمها (روز)، وكانت قد وصلت للتوّ من الكونغو، قبل أسابيع قليلة، ويمكن الاستدلال على كونها لا تزال متأثرة بعادات البلاد، من طريققتها في الرقص، التي تشبه ما يفعله القروء فوق الأشجار، لذلك ففي مثل حالتها تلك، بدلاً من أن نقول إن الإنسان ارتقى من المرحلة القردية إلى المرحلة الإنسانية، يمكن أن نقول عنها هي إنها لا تزال تمرّ بالمرحلة القردية. كانت تقفز قفزات عالية، وهي تباعد ما بين ساقيها وذراعيها، ثم تترك نفسها تسقط لا على قدميها بل على الأرض، لذلك ابتعد عنها الراقصون، وتركوا مساحة دائرية حولها، كنوع من الاحتراس.

لكن كل المواطنين الكونغوليين الرجال الراقصين في الدائرة حولها، كان كلّ منهم يطمع في الحصول عليها لنفسه. عندما اقتربت منها، أدركت أنها أفرزت كمّيات هائلة من العرق، حتى إن قميصها الأبيض ابتلّ تمامًا. كانت تحاول أن تلعب دور الفتاة الصعبة؛ إذ كانت تتجه نحو واحد منهم، ثم عندما ينجذب إليها تتركه وتذهب نحو واحد آخر. كل حركاتها تمثيلية كأنها تلعب دوراً في فيلم سينمائي. كان من

الواضح للجميع أنه ليس لها صاحب وأنها غير مرتبطة؛ وهي لذلك متاحة لمن يعرف مفاتيحها.

فهمت كذلك أنني كنت من بين من تحاول هي استمالتهم إليها، تواترت على ذهني صور من الماضي السحيق لإنسان الكهوف، في فترة ما قبل التاريخ، وهو يحاول اصطيد حيوان الماموث الضخم بالأنشطة. كنت أنا إنسان الكهوف، وكانت هي حيوان الماموث، أو العكس لست متأكدًا. قلت في نفسي: «ماذا سأخسر لو حاولت بأي ثمن أن أستمتع قليلاً هذه الليلة؟ إن هذه الفتاة قد نجحت في استشارتي، ويجب أن أدافع عن نفسي، وأفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم».

اقتربت منها، وبدأت في الرقص معها بطريقتها، وأنا على بعد ستيمترات قليلة منها، نكاد نتلامس. عندما مددت يدي لأمسك بيدها، استدارت وأعطتني ظهرها كأنها مصرة على أن تقول، إنها فتاة يصعب الحصول عليها. عدت في نفس اللحظة إلى مقعدي. في الحقيقة كانت محركاتها في كل حركاتها شيئاً متعباً جداً لمن كان في مثل سنّي، أنا في الأربعين، وهي في العشرين.

في النهاية نجحت خطّتي إذ جاءت روز نحوي وقالت: «أهكذا يحاولون الإيقاع بالفتيات في باريس؟ أن يعود الرجل للجلوس على مقعده بمجرد أن تدير الفتاة له ظهرها؟ تعال إذن أرقص معي النشا كو لي بوندا *Tcha kou li bonda*».

لم أكن أعرف هذه الرقصة، فشرحت لي روز أنها رقصة ينبغي فيها تحريك الكتفين، مع الإمساك بالفتاة بوضع يديّ الرجل حول

خصرها، ويكون ظهر الفتاة نحو الرجل الراقص، مما يسمح لعضوه الذكري بأن يحتك بمؤخرتها، بل إنه يمكن تمثيل الحركات التي توحى بعملية اقترحام مؤخرة الفتاة بعنف، لو أن العضو الذكري وصل إلى حالة انتصاب قوي. فيما بعد قيل لي إن هذه الرقصة كانت تتسبب في حالة هياج جماهيري في البلاد، في كل مرة كان الشباب يرقصونها.

لكنني لم أكن أبداً طوال حياتي، سبباً لسخرية الآخرين مني مثلما حدث معي في تلك الليلة؛ إذ على ما يبدو أن طريقتي في الرقص كانت خاطئة، وبالتالي كان كل الحاضرين في الصالة يراقبونني، لاستئناف الضحك على هذا العرض الفكاهي، حتى إن بعضهم كان يتلوّى، ويسقط على الأرض من شدة الضحك. عندما دقت الساعة الثانية صباحاً، اقترحت على روز أن نذهب معاً إلى شقتي؛ لاحتساء كأس أخير.

هي: أنا أعرف هدفك من هذه الدعوة، هذا يمكن رؤيته في عينيك، وأنا لم أعد فتاة صغيرة، كم تعتقد هو سنّي، أقول لك إنني أم لمراهق في السادسة عشرة من عمره.

بعد سماع هذه الجمل، اعتقدت أن الفرصة قد ضاعت، لكنها رغم ذلك ذهبت إلى المائدة التي كانت تجلس إليها، على ما يبدو مع أحد أبناء عموماتها، لتأخذ من هناك حقيبة يدها حيث تركتها، وسمعتها من على بعد تقول: لن أعود هذه الليلة، لكن لا تقلق عليّ، فإن هذا الرجل الذي سأرحل معه، هو بمثابة أخ أكبر، وهو كما ترى بنفسك، ليس من النوع الذي يتسبب في مشاكل، فهو يبدو طرياً وهشاً.

أخذنا سيّارة أجرة من مكان قريب من مطعم (فوكيه)، وأثناء انتقالنا فيها بين شوارع المدينة، لم أقل أي شيء، ولا هي أيضًا قالت أي شيء. كانت صور اللون الأصلي تأتي إلى ذهني، فأتساءل يا ترى ماذا تفعل هي الآن في نفس هذه الساعة المتأخرة من الليل، مع الهجين في البلاد؟ فتحت باب الشقة بهدوء قدر المستطاع، حتى لا أتسبب في إيقاظ الأستاذ أبقرط. وقفت روز على عتبة باب الشقة.

هي: ألا تضيء الأنوار الكهربائية؟

أنا: لسنا في حاجة إليها، ادخلي.

هي: نحن بالكاد يعرف أحدنا الآخر منذ وقت قصير، وأنا لا أريد أن أبقى في الظلام مع شخص غريب عني، فكم سمعنا من قصص غريبة عن أشخاص غرباء.

مع الإضاءة الكهربائية بانّت الحقيقة، التي كانت غائبة عني تمامًا في صالة الرقص (سامبا) ضعيفة الإضاءة؛ لأنني عندما نظرت إليها عن قرب، تساءلت إن كانت هذه هي نفس الفتاة، التي كانت ترقص معي منذ قليل. هي أكبر سنًا بكثير ممّا ظننت. فهمت الآن السبب في استعمالهم الإضاءة البنفسجية الضعيفة في صالات الرقص، فهي تعطي سنًا أصغر للجميع. ففي تلك الإضاءة البنفسجية بدت بشرتها ناعمة، مثل بشرة طفل صغير. اكتشفت الآن أن بشرتها خشنة، وأن شعر رأسها مستعار، وأن أظافر أصابع يديها هي الأخرى مزيفة. ثم إن التنوّرة القصيرة بسبب العرق كانت ملتصقة بالجسد، وتعطي هكذا بعض الإيحاءات غير الحقيقية.

أنا: سأطفيء الكهرباء فإن الظلام أفضل.

هي: لو أطفأت الكهرباء، فكيف ستشاهد في الظلام كم أنا جميلة؟
وهكذا تركنا الأنوار. خلعت سريعاً كل ملابسها، واندست في الفراش، وسحبت الغطاء حتى أسفل ثدييها. لم أرد أن أعيد النظر مرة ثانية إلى الثديين، اللذين كانا متهاكين تماماً، مليئين بالندوب الناتجة عن التئام الجروح. تمددت بدوري على الفراش، ولكن في أبعد مكان يسمح لي به عرض الفراش، ونظرت إلى سقف الحجرة.

هي: متى سنبداً؟ يبدو أنك لم تعد متحمساً! تعال الآن فوقي.

استدردت نحوها، ووضعت يدي على ذراعها بقدر من الحنان.

هي: أنا لست في حاجة إلى المداعبات باليد، فالنساء البيض فقط هنّ من يلتفتن باهتمام إلى هذا الموضوع، وأنا لست امرأة بيضاء، ولذلك فهذه المداعبات لا تثيرني، بل إن هذه المداعبات أحياناً تضحكني، وأحياناً تجعلني أغضب، لكنها أبداً لا تثيرني.

عندما قالت هي هذه الكلمات، انكمش شيءي تماماً، متراجعاً إلى داخل كيس الخصيتين، ولم أعد أعرف أي حدث استثنائي يمكن أن يخرج من مكمته.

هي: هل هناك مشكلة؟

أنا: لا لا لا، فكل شيء على ما يرام.

هي: إذن ماذا ننتظر؟

أنا: من الأفضل أن ننام الآن، ونفعل هذا صباح الغد.

هي: نعم نعم، لن يكون هناك صباح غد معي، لم يحدث هذا لي أبدًا من قبل، ولن أسمح لهذا بأن يحدث لي الآن. ماذا تظن بي؟ لقد أثرتني بما فيه الكفاية في (سامبا)، وتريد الآن أن تتركني هكذا مستشارة دون إشباع؟ لماذا اصطحبتني معك إذن إلى هنا؟ إذا لم تكن قادرًا على تحمّل مسؤولية أفعالك إلى النهاية؟ هل يمكنك أن تتخيّل كم هو عدد الرجال الذين كانوا يريدون أن يكونوا مكانك الآن؟ وهم الرجال الذين تخلّصت أنا منهم، لأنني أردت أن يكون من يفعل بي هذا هو أنت.

أنا: اسمعيني جيدًا، أنا لست على ما يرام الآن، ولن أضغط على نفسي حتى أفعل هذا معك الآن.

هي: ما هي إذن الحالة التي ينبغي أن تكون فيها لتفعل هذا معي؟ إن الرجل الطبيعي عندما يجد إلى جواره على الفراش امرأة عارية، ينتصب عضوه على الفور، فهل أنت رجل أم لا؟
أنا: أنا في قمة الرجولة.

هي: اتركني إذن ألمس عضوك، وسيأتي الإلهام وحده شيئًا فشيئًا، سترى بنفسك النتيجة.

أنا: لا، لا أريدك أن تفعلي هذا.

هي: هل أنت تقول لالي أنا؟

ثم قفزت من الفراش وهي تدمدم، وارتدت ملابسها بنفس السرعة التي كانت قد خلعتها بها.

هي: أنت أحرق وجبان، كنت أظن أن المعقدين من أمثالك لا وجود لهم في باريس، في بلادنا نعم، لكن ليس هنا. عندما شاهدتك في كامل هندامك، بالسترة وربطة العنق، اعتقدت أنك قادر على جماع فتاة، لكن يبدو أن شيئك هذا لم يعد صالحًا إلا للتبول. أيها الأحرق اعطني نقودًا تكفي للسيارة الأجرة التي ستعيدني إلى منزلي؛ وإلا فإنني سأحطم لك كل شيء هنا، ثم أخرج لأصرخ على باب الشقة. قمت لأسحب ورقة نقدية من ملابسي، ومددت يدي إليها لأعطيها إياها، فخطفتها مني، ثم بصقت على وجهي.

هي: هذه البصقة هي من أجل أن تتذكرني، أنا اسمي روز، وأنت لست إلا أحرق، وأنا لا أعرف أي نوع من النساء، يمكن أن يخرج مع شخص مثلك.

ثم صفقت الباب بعنف، ولم يستيقظ أبو قراط ليخبط الحائط.



(٣)

أعيد التفكير كذلك في اليوم الذي كنت فيه مع فلاديمير الكاميروني، المشهور بتدخين أطول سيجار في فرنسا، حين لعبنا معاً دور أمراء بلاط ملكي في ملهى (أتلانتيس)، وهو اسم صالة رقص في الحيّ الثالث عشر، على رصيف النهر عند محطة قطارات أوسترلitz، وهي ملتقى رجال ونساء الكاميرون عند مرورهم بباريس. هم هناك يستقبلون فلاديمير بحفاوة بالغة، ويتركونه يدخن سيجاره دون أي اعتراض، رغم أنهم يمنعون الآخرين من التدخين. عندما بدأت في التردد على هذا المكان مع فلاديمير، اعتدت على أن أتصرف مثله، وعلى أن أَلعب هناك نفس الدور الذي يلعبه هو.

وحيث إن فلاديمير لا يفعل الأشياء إلى منتصفها، بل يذهب إلى أقصى المدى المتاح، فذات مساء استأجرنا سيارتين فاخرتين، واحدة بي إم دبليو له، والأخرى مرسيدس لي، وبمجرد دخولنا ذهبنا إلى الركن الذي يخصصه المحلّ لكبار الزوّار من الشخصيات الهامة، الفي آي بي VIP، حيث تركني فلاديمير دقيقة واحدة، وعاد وفي يده فتاة أطول مني، وأقرب إلى النحافة.

همس في أذني: «أريدك أن تبدأ في مباحكتها، ثم بعد ذلك تأكلها ببطء على امتداد السهرة، وأنصحك باحتساء الجين آند تونيك؛ وهو ما سيعطيك القوة للبقاء حتى الفجر، ولن تنسك هذه الفتاة».

كانت هذه الفتاة (جواندولين) هي ابنة وزير في حكومة الكاميرون، لذلك بدأت الحوار بيننا على الفور وبتفاخر شديد، بذكر كل الأماكن الأوروبية التي يمتلك فيها والدها بيوتاً لقضاء الإجازات، وكيف أنه جعلها تقوم برحلات سياحية إلى جميع بلاد العالم؛ إذ لم يعد هناك ركن في العالم لم تضع قدمها فيه.

قالت: «في بيت والدي، أنا لا ألمس أي شيء، ولا صحنًا واحدًا؛ لأن هناك دائماً من يخدمني، ولدي سائق سيارة خاص بي، ومصفقة الشعر الفرنسية تأتي إلى منزلنا، ومعها طاقم عملها المكوّن من ست مساعدات».

تركني فلاديمير إذن بين برائن هذه الفتاة ابنة أبيها. كان العطر الذي دلّفته على ملابسها يجعلني أريد أن أعطس. هذه الرائحة تعود بي إلى زمن طفولتي، فهي رائحة مادة تدهن بها أجساد الموتى في بلادنا، وتُسمّى (ماناناس). لمحت عن بعد نظرات فلاديمير الغامزة، تأتيني بين دوائر دخان سيجاره.

لم أعد أستطيع مجازاة جواندولين في الحديث، ولا حتى مقاطعتها، فتركها تفرغ تمامًا المخزون المتراكم لديها من كلام عن تراث والدها، ووصلنا في التفاصيل إلى نوع أطقم الصيني والفضيات الموجودة في حجرة المائدة لديهم، من أطباق وشوك وسكاكين، يستعملونها للأكل.

كل شيء لديهم هو مدعاة فخر لها. ثم صمتت فجأة عندما أدركت، أن هذا النوع من الحديث لم يتركني منبهراً بها وبوالدها، بل حتى لم يترك في أي أثر.

هي: أنت لست ثرثاراً أيها الرجل، بل إنك حتى لم تذكر لي اسمك.
أنا: اسمي متخصص أرداف.

هي: نعم؟ ماذا؟ عفوًا؟

أنا: أصدقائي يدعونني متخصص أرداف.

كادت أن تتلع قطعة ثلج في حجم كرة البينج بونج.

هي: أنت تسخر مني أليس كذلك؟ على أي الأحوال سأدعوك بنفس اللقب الذي يدعونك به. فلاديمير قال لي إنك شخص مهم، ويبدو أن السيارة المرسيدس الكومبريسور ذات السقف المتحرك، التي تقف أمام الملهى، هي لك؟

طبعاً لم أذكر لها أنها سيارة مؤجرة، بل لعبت دور صاحب سيارة مرسيدس، إذ كنت أحرّك المفاتيح في يدي، وأنا أصفر بفمي لحن أغنية (يوم آخر في الجنة)^(٧٦) لفيل كولنز. كنت أدخن سيجار ماركة كوهيبا، وأرسم بالدخان دوائر فوق رأسي.

هي: لكن ماذا تفعل في الحياة؟

أنا: رجل أعمال.

هي: حسناً، لكن عن أي أعمال تتحدّث؟

أنا: أبيع الألباظ إلى تجار مجوهرات ميدان فاندوم^(٧٧).

هي: إن أُمي تعشق الأُلماظ.

وهكذا سجّلت نقطة لصالحِي في السجّال الدائر بيننا. انتقلنا إلى ساحة الرقص، ففوجئتُ بها وجسدها يلتصق تمامًا بجسدي، كما تلتصق بك عَلقَة مصّاصة دماء، كأنها كانت تريد أن تمتص منّي رحيقي. شعرت بأنني لم أصل أبدًا إلى استثارة فتاة وإشعال رغباتها الجنسية، إلى هذه الدرجة. رغم ذلك فأنا لم أرغب في استئناف هذا الطريق إلى نهايته؛ إذ شعرت كما لو أنني اكتفيت بهذا القدر من هذه الفتاة. أردت الآن أن أقوم بتغيير الهدف، إذ كانت هناك فتاتان في الجهة الأخرى من القاعة ترسلان لي نظرات، كما لو كانتا ترسلان لي إشارات ضوئية بالكشافات الأمامية لسيّارتيهما. لكن جواندولين بعد أن عثرت على تاجر أُلماظ، لم يكن في نيّتها على الإطلاق أن تتركه يضيع منها، لتحصل عليه واحدة أخرى.

هي: وهل تبيع الذهب أيضًا؟

أنا: هذا يحدث بين وقت وآخر، إلا أن عمليّات بيع الذهب مكسبها أقل من مكسب عمليّات بيع الأُلماظ، لكن من جهة أخرى، فإن أغلبية زبائن هذه المحلات يختارون شراء الذهب، أما اختيار شراء الأُلماظ، فيقتصر على العارفين به، وهؤلاء هم المقتنعون أنه رغم أن الذهب أكثر بريقًا من الأُلماظ، إلا أن الأُلماظ ينشر الألق حوله.

هي: أنت متحدّث لبق، لكنني لست في سبيلي الآن إلى شراء قطعة أُلماظ من متجرك، لكن بالمناسبة، وحيث إنك من أهل المهنة، فستشرح لي الآن، الغموض الذي لم أفهمه أبدًا، فيما يتعلّق بمسألة رقم

القيراط، ٢٤ أو ٢١ أو ١٨، وهي الأرقام التي يستعملها الناس دون أن يدركوا فعلاً معناها.

أنا: نحن هنا لنمرح وننسى، ولا رغبة لي في الحديث عن عملي، وإلا فإنك تخاطرين بدفع مبلغ كبير من المال، لأنني لو تحدثت عن عملي، فسأحاول أن أبيع لك قطعة ألماظ.

أردت فقط أن أتنفس، وأن تتركني في حالي، ولو لبضع لحظات، إلا أنها مصرة على ملاحقتي. كانت تنظر لي نظرات أقرب إلى الوله والعشق، كما لو كنت في نظرها قد أصبحت إله الألماظ. ثم لاحظت نظرات الغيرة في عينيها، عندما جاءت أثناء السهرة بعض الفتيات الكونغوليّات لتحيتي. أما أنا فكانت أستمري الاستمرار في وضع الزيت على النار، فكانت أطيل الحديث مع مواطناتي، وأبحث بنظري عن المزيد منهنّ في قاعة الرقص، حتى تتأكد جواندولين من مدى قوة شخصيتي، والسحر الذي يشعّ منها.

ثم اقتربت مني جواندولين، وسحبتني من يدي عائدين إلى ساحة الرقص، وقد فعّلت هذا أمام الأخريات، بعشم اعتقدت معه الأخريات أننا نعرف أحدهنا الآخر منذ مدة من الزمن. لكن حتى عندما عاد جسدانا إلى الالتحام للمرة الثانية، استمرت في الحديث عن مآثر والدها (معالي الوزير)، وطريق صعوده على سلم المجد.

هي: إن أبي رجل قانون كبير، إنه في الحقيقة أكبر متخصص في القانون في كل القارة الأفريقية؛ لذلك فإن كل البيض يقدّرون كفاءته ويحترمونه. لقد درس القانون في أكبر الجامعات الفرنسية، في الوقت

الذي لم يكن فيه في هذه الجامعات، إلا قلة تعد على أصابع اليد الواحدة من الدارسين السود. طبعًا كان هناك الكثير من السود في فرنسا في ذلك الوقت المبكر، إلا أنهم كانوا كلهم إمّا كانسي شوارع، أو عمّال مخازن مثلاً على أرصفة شحن وتفريغ البضائع في موانئ مارسيليا والهافر، أو عمّال يدويين في مصانع السيارات الفرنسية، سيمكا وبيجو وستروين ورينو.

كنت أهرّ رأسي كدليل على الموافقة على كلّ ما تقول، وهو ما شجّعها على الاستمرار.

هي: يجب أن تقابله حتى تفهم أي نوع استثنائي هو في الرجال. لقد دفع لي مصاريف الدراسة في أفضل مدارس فرنسا، لذلك أنا لا أستطيع أن أحبّ أيّ إنسان آخر في هذه الحياة، أكثر من حبي لأبي. كان أبي من بين أصدقاء الرئيس الفرنسي جورج بومبيدو، والرئيس السنغالي ليوبولد سينجور، وعرف كل النواب الفرنسيين السود في تلك الفترة في الجمعية الوطنية، وعرف أثناء طلب العلم في باريس، عددًا من الدارسين الأفارقة الذين سيصبحون فيما بعد رؤساء في بلادهم. وقد تمّ تعيين أبي وزيرًا في البلاد فور تخرّجه في الجامعة، واستمرّ في منصب الوزير في كل حكومات البلاد خلال ربع قرن، إنه الوزير الوحيد الذي لم يستطع أيّ رئيس جمهورية أو رئيس حكومة سابق إقالاته؛ لأنّ لديه في حوزته كل الملفات الساخنة في البلاد، التي لو ظهرت أمام الرأي العام العالمي، لسقطت حكومة جمهورية فرنسا نفسها في أقل من خمس دقائق.

إن الذي كانت تجهله هذه الفتاة، هو أنني مثل حال كل الأفارقة الذين يتابعون الأحوال السياسية للقارة، كنت أعرف أن والدها أستاذ القانون الكبير، كان قد عُيِّنَ وزيراً للعدل لتنفيذ مهمةٍ محدّدة، هي تغيير مواد دستور البلاد، في كلّ مرة طلب منه أحد رؤسائنا المستبدّين ذلك، وهو مستمر طوال ربع القرن الأخير، في تغيير مواد الدستور وفقاً لهوى الرؤساء. ذات مرّة طلب منه أحد رؤساء الكونغو، أن يكتب دستوراً يكون أفضل من دستور الجمهورية الفرنسية الخامسة^(٧٨)، وهو الدستور الذي كان وفقاً لما أعلنه هذا الرئيس، تتغيّر بنوده هو الآخر، تبعاً لهوى الرئيس ديغول، وكانت معرفة الشعب الفرنسي بهذه الحقيقة، هي السبب وراء انتفاضة الشعب الفرنسي ضدّ ديغول في مايو ١٩٦٨، ما تسبّب في تنحيه عن منصبه.

إن أباهما الأستاذ الكبير في القانون، هو صاحب فكرة إضافة بنود إلى الدستور، تسمح لرئيس الجمهورية في الكونغو، بالحصول على كل الصلاحيّات وكل السلطات، وبسببه أصبح رئيس الجمهورية هو في نفس الوقت، رئيساً لمجلس الوزراء، ورئيساً لمجلس الشعب، ووزيراً للدفاع، ووزيراً للداخلية، ووزيراً للمالية، ووزيراً للبترول وللمحروقات، وبالتالي لم يعد هناك من يستطيع أن يواجهه.

كنت أنصت إليها، وأقول في نفسي: «لقد اقترب موعد دق جرس حصّة التاريخ تلك التي تعطيها لي، ويجب أن أجعلها تصمت، حتى نتقل بعد ذلك إلى الأشياء الجادة؛ إذ إنها من المفترض أن تنسى أنها ابنة وزير، ولا تعد تتذكّر إلا أنها امرأة ستصبح بعد قليل عارية، في

فراش رجل سيصبح هو الآخر عاريًا، وفي هذه الحالة يتساوى جميع الناس، ابنة الوزير مع ابن الغفير». نجحت في الخروج بها من ملهى أتلانتيس، وفي الوصول بها إلى السيّارة المرسيّدة، ومنها إلى جناح في الدور الخامس، من فندق نوفوتيل الواقع عند بوابة بانويله على الطريق الدائري.

ولأنني ادّعت أنني نسيت في السيّارة، بطاقة السحب من حسابي المصرفي، فقد وقّعت روز على الأوراق الخاصة بأنها هي الضامن للدفع، قلت: «غداً بعد الإفطار، سأذهب لسحب المال من إحدى آلات السحب المنتشرة في كل مكان».

في الغرفة احتسنا زجاجة شمبانيا، وجلسنا أمام التلفزيون نشاهد فيلمًا تسجيليًا، عن التزاوج بين ذكور وإناث حيوانات وحيد القرن، في غابات زيمبابوي، وضحكت روز ببلاهة، على الذكر الذي يحاول أن يحتضن أنثاه بقائمتيه الأماميتين، ولا فرق في الشكل على الإطلاق بين الذكر والأنثى.

هنا ويا للعجب، أعادت روز طرح السؤال حول الأربعة والعشرين قيراطًا، فقلت إن ما يعبر عنه بالأرقام بالقيراط، هو نسبة وزن الذهب الموجود في سبيكة، مقارنة بوزن السبيكة كلها، فإذا كانت السبيكة الذهبية من عيار ٢٤، فإن مئة بالمئة من وزن السبيكة ذهب، أما إذا كانت السبيكة من عيار ٢١، فإن نسبة الذهب إلى وزن السبيكة الكلّي، هي ٢١ من ٢٤، أي أن هناك ٣ من ٢٤ من وزن السبيكة شوائب، أي حوالي ١٢٪ من وزنها شوائب، وهكذا.

نظرت إليَّ بعينين متسعيتين، من الانبهار بهذا العلم الذي أتقنه،
لكنني كنت أعرف أننا لن نلتقي أبدًا مرّة أخرى، لأنني أولاً: لم أحبّ
مؤخّرتها، ولأنني ثانيًا: لست بمستطيع أن أستمع إلى المزيد من
الحكايات عن والدها. في الخامسة صباحًا، وكانت لا تزال مستغرقة في
النوم، خرجت من الفندق على أطراف أصابعي، قائلاً في نفسي: «ليس
عليها إلا أن تتصل بوالدها الوزير ليدفع حساب الجناح من ليبرفيل».



(٤)

اعتدت على زيارة لويس فيليب بمعدّل متزايد، حتى إن معدّل تردّدي على منزله، أصبح أكثر من معدّل تردّدي على حانة جيبس. أعدت إليه رواية (ثلاثية هافانا القذرة) بعد قراءتها. ثم جعلته يقرأ أجزاءً كبيرة مما كتبته حتى الوقت الراهن، إلا أنه قال إن الأوان لم يحن بعد لاعتبار ما كتبته جديراً بالنشر، وإنني لا أزال محتاجاً إلى معرفة كيفية ترتيب الأفكار، بدلاً من الاستمرار في الكتابة وأنا واقع تحت تأثير الغضب أو المرارة.

هو: نحن لا نكتب بهدف الأخذ بالتأثر؛ إذ يجب أن تسيطر أولاً على غضبك، وتحتويه داخلك، بعد ذلك يمكن لسردك أن ينطلق وحده. أنا في داخلي أعتقد أنك لا تزال تحبّ اللون الأصلي حتى الآن، ألسنت محقّقاً في ظنوني؟

بقيت صامتاً وأنا أنظر إليه وأفكّر في موقفه من الحبّ والزواج؟ ومن هم أفراد أسرته في جزيرة هاييتي الذين تركهم قبل سنوات

طويلة؟ ثم تحوّلت تساؤلاتي إلى موضوع آخر، وهو لماذا يوجد كلّ هذا العدد الكبير من الكتاب العباقرة من أصول هايتية؟ لماذا هم دائماً كتاب منفيّون؟ هل من المحتمّ على الكاتب العبقرى أن يكون منفيّاً؟ هل النفي إلى بلاد غريبة، هو الذي يحفّز العبقرية؟ هل البعد عن أرض الآباء والأجداد هو الذي يحفّز المشاعر؟

كنت أغني أحياناً لصديقي لويس فيليب أغنية أرمسترونج، التي يضع فيها موسيقي شهير من مدينة تولوز، ملامح مشكلة وجدانية، تتشابه كثيراً مع المشكلة التي تعاود الظهور في كتاباتي، وهي مشكلة لها علاقة بلون البشرة شديد السواد.

أرمسترونج، أنا لست أسود البشرة /
رغم أنك أنت قد لا ترى أنني أبيضها /
لكنني عندما أريد أن أغني للأمل /
أجد أن هناك كؤوساً للجميع /
وأن الكأس التي تخصّني غير موجودة /
وأجد من الطيّب أن أرى السماء والعصافير /
لكن ليست هناك نجوم /
أو هي موجودة فعلاً ولكني لا أراها /
لذلك أتساءل هل أنا فعلاً أبيض البشرة /

يحاول لويس فيليب أن يخفّف عني وقع هذه المشكلة، قائلاً إن الأصل في كل إنتاج أدبي هو المعاناة، التي لولاها ما فكّرت أبداً في

الكتابة. ثم أضاف أنه ليس لون البشرة فقط هو السبب في المعاناة، ثم لفت انتباهي إلى حقيقة أنه ليس وحده المنفي هنا، فأنا أيضًا يمكن اعتباري كونغوليًا في المنفى؛ لأن فرنسا ليست هي بلادي.

فكرت أن هؤلاء الكتّاب الهايتيين يشبهون الطيور المهاجرة. لكنهم يبقون أحيانًا طوال حياتهم، غير قادرين على وضع أقدامهم من جديد في بلادهم، بسبب عدم استقرار الأوضاع السياسية هناك. قرأت ذات مرّة أنه منذ الاستقلال، وقع في هايتي اثنان وثلاثون انقلابًا عسكريًا، وأنه لا يوجد بلد آخر يستطيع أن ينافس هايتي في عدد الانقلابات، وفي كل مرة يحدث فيها انقلاب، يهرب بضع مئات من الفنانين والكتّاب الهايتيين إلى باريس، أو إلى فلوريدا في أمريكا، وقد تركوا كل شيء يملكونه خلفهم، فهم يغادرون ومعهم فقط إمّا مخطوطات لمؤلفات، أو رخص قيادة السيّارات؛ لأنهم إذا فشلوا في طبع المؤلفات، يمكنهم العمل في قيادة السيّارات.



عندما يتحدّث لويس فيليب عن بلاده تبتّل عيناه بالدموع، أما أنا فتأتيني عن بلاده صور نمطية بالأبيض والأسود، وبعض الأفكار المجرّدة، منها ما هو إيجابي ومنها ما هو سلبي. كنت أصفّق طربًا عندما كان يقول، إن هايتي هي أول جمهورية سوداء في تاريخ العالم، أو يعرض عليّ اللوحات التي رسمها الفنّان الهايتي، المقيم في ميامي بالولايات المتحدة الأمريكية،

إدوار ديفال كارييه *Edouard Duval Carrie*

للقائد الوطني توسان لوفرتير *Toussaint Louverture*

ثم أتوقّف عن التصفيق، وأصبح آي آي بصيحات الألم، عندما يتحدث عن جمهورية التعذيب التي خلقها الرئيس بابا ديفالييه، مستعيناً بالقوّات الخاصة، بقيادة الشيطان البلطجي تون تون ماكوتس.

ذكرت للويس فيليب أننا في الكونغو، استمعنا إلى بعض المقطوعات الموسيقية القادمة من بلاده، وأنا كبرنا ونحن ننصت إليها. ففي كل حانات بلادنا كان يمكننا الاستماع إلى صوت كوبيه كلوييه، الذي كان يغني (اذهبوا إذن)، داعياً الناس إلى الثورة.

أما عندنا في الكونغو فكانت الحانات، تضع هذه الأغنية في مشغل الأسطوانات، عندما تكون أنوار الفجر قد لاحت، ويكون الوقت قد حان لإغلاق المكان، فيغني النادل مع الأسطوانة، (اذهبوا إذن) ويقصد بها أن يقول للزبائن، اذهبوا الآن، وعودوا إلى بيوتكم، إلا أن الثوار الشجعان من بيننا كانوا يتمردون؛ ويرفضون مغادرة المكان. كان لدينا في الكونغو المغني مانو ديبانجو، وهو من حيث التمرد، لم يكن أقل في ذلك من فنّانكم الهايتي، وكان لهما نفس الرأس الصلعاء، ونفس اتساع الابتسامة حتى الأذنين.

استمعت أيضاً إلى إيقاعات فرقة *skah shah* النيويوركية،

مع صوت جان إيلي تلفورت،

لأنني كنت أحاول أن أذوق كل التجارب الموسيقية، مهما كان

اختلافها عن الموسيقى التي تعودت عليها.

هكذا استمتعت جدًا بأغنية

(سيّارة النقل الصغيرة) *la camionette*، للمغنية كلوديت والمغني تي بيار، التي كنا ننصت إليها في حيننا، حيّ الثلاثمئة في برازافيل، كلما كان الناس محتاجين إلى إيقاعات قوية، بصرف النظر عن كون الاحتفال زفافًا، أو كان الاحتفال مراسم دفن. فالإيقاعات القوية مفيدة في الحاليتين، سواء في مناسبات الحياة، أو في مناسبات الموت.

سأذكّر أيضًا، ولوقت طويل، إلى أي حدّ أحسست بالذنب، لأنني لم أكن تعلّمت كما ينبغي، حتى أصل إلى درجة الإتقان، رقصة الكومبا الهايتية، وهي لم تكن رقصة سحرية كما يشاع، وكانت منتشرة جدًا، وفيها يكفي أن تمسك برفيقتك من خاصريتها وتجذبها إليك، أو تكتفي بوضع يديك على خاصريتها، وتبدأ في الدوران حولها، مع الإبقاء على الساقين منفرجتين، ثم بعد الوصول إلى درجة كافية من تسخين الشريك، يمكن الوصول إلى وضع التماس بين الجذعين، ولا أعرف كيف أشرح الرقصة بطريقة أفضل من هذه الكلمات، وقد أطلقوا على هذه الرقصة لاحقًا اسم البرجل؛ لأن دوران الرجل حول المرأة يشبه وضع ساقَي البرجل المدرسي. هي رقصة سهلة نظريًا، ولكن عمليًا هي صعبة جدًا.

عندما حاولت تعلّم هذه الرقصة، بحثت عن الفتاة الهايتية الوحيدة، التي كانت متاحة في ذلك الوقت في حيّ الثلاثمئة في برازافيل، وقد اعتذرت لهذه الفتاة فيما بعد، عندما لم أتمكن من إتقان الرقصة، فقالت

إنه ليس هناك ولا شاب واحد في الكونغو يتقنها، رغم أن الأفارقة يصرخون في كل مكان، أنه لا حاجة إلى تعليم الشباب الأفريقي أي رقصة؛ لأن الشاب الأفريقي سيتقن الرقصة، بمجرد استماعه مرة واحدة إلى موسيقاها.

كانت هذه الفتاة الهايتية (ميرابل)، قد قالت لي إنها ستعلمني مبادئ رقصة البرجل، قلت في نفسي هذا جميل، أخيراً سأتعلم هذه الرقصة على أصولها. كانت مؤخّرة ميرابل عادية وجافة، ولذلك من السهل التعلّق بها دون مجهود كبير، كما يفعل طفل حيوان الكانجرو الذي يختبئ في جيب والدته.

قالت: «عندما تسخن الأمور لا تتحفّظ، ولا تتردّد، فإذا أحسست بشيئك يرتفع بين فخذيك، لا تشعر بالعار فهذا شيء طبيعي، بل إنه هو الهدف من هذه الرقصة». ذهبنا نحو أحد الحوائط، ومن هناك إلى ركن مظلم من أركان الصالة، حيث أدخلت يدها في فتحة سروالي، ثم أعلنت وعلى وجهها ابتسامة كبيرة، إنني قد أتقنت الرقصة.



لدينا أنا ولويس فيليب شوارب متشابهة، لكن كان الفرق بيننا هو أنه يضع منظاراً على أنفه لعلاج قصر النظر، وأنا كنت لا أضع واحداً، ووضع منظار هو شيء طبيعي جداً لمن قرأ كتباً كثيرة، خاصة لمؤلفين من جزر البحر الكاريبي أو من أمريكا اللاتينية. هو يرى أن الكاتب الحقيقي يجب أن يضع منظاراً على عينيه، حتى يتأكّد الناس أنه تعب

كثيراً في قراءة كل الكتب التي قرأها، حتى أجهد عينيه. لذلك لا ينبغي لأحد أن يندهش الآن، إذا لاحظ أنني أضع منظاراً على أنفي، منذ وقت قصير، لكن بزجاجتين عاديتين لا بعدستين مقعرتين، حتى يعتقد الناس أنني أعاني من قصر النظر، بسبب كثرة القراءة.

في أول يوم رأي لويس فيليب بهذا المنظار سخر مني، وقال: «كنت أمازحك بخصوص المنظار كيف لم تفهم هذا؟ أنت اعتقدت أنني أقصد فعلاً ما قلته». كنت قد اشتريت أعلى إطار يباع في أعلى شارع في باريس، شارع فوبور سانت أونوريه. في المرة التالية في منزله، عرض لويس فيليب عليّ آخر لوحة فن ساذج، اقتناها من أحد فنّاني جزيرته. وحيث إننا نتحدّث كثيراً في كل شيء، فقد حكيت له كلّ ما يتعلّق بجاري المؤذي الأستاذ أبّقراط، الذي يستمر في تسميم حياتي، وأهنته أثناء كلامي بكلمات مسيئة، وأكّدت على أنه سيكون السبب في انتقالي من هذه الشقّة إلى سكن آخر.

قال: أبّقراط هذا هو إنسان بائس يائس، لا يطلب منا بمماحكاته تلك، إلا أن نمدّ له يد العون، وننقذه مما هو فيه، لكنه يعبر عن هذا الاحتياج بأسلوب خاطئ، حاول أن تطمئنّه وتحوّل من عدو إلى صديق تتبادل معه أطراف الحديث، لا تنسَ أنه أسود مثلنا، رغم أنه ينكر هذا، أو من الجائر أنه لا يعرفه.



(٥)

فيما يتعلّق بالمسائل المالية، يعرف أصدقائي في حانة جيبس، أنني رجل حريص، لا أنفق إلا في حدود المال الذي أملكه، ولا أحسد الآخرين على ما يملكونه، ولا أسمح لهذا المجتمع الاستهلاكي بإغوائي، وبالتالي فأنا لست مضطراً إلى تقديم كشف حساب لأي شخص، ولا أحبّ نظام القروض المصرفية، ولا أحبّ بطاقات السحب الشهرية المميّزة أو غير المميّزة، ولا أحتمل فكرة أن أكون صاحب حساب مكشوف، حتى لو كانت المسألة تتعلّق بسنتيمات؛ فهذه الأجزاء المئوية السنتيمية، يمكنها أن تتراكم وتتراكم، لتصبح في النهاية مبالغ كبيرة. إن هذه الأجزاء المئوية من اليورو، هي مثل الخميرة التي تجعل العجينة تنتفخ من فراغ.

وأنا أثق تماماً في أن كل مصارف العالم، تمارس عمليات نصب على زبائنها، حتى لو كان موظفوها يتميّزون بأجمل ابتسامات ممكنة، ويقدمون لك الدفء فناجين قهوة متاحة. ثق تماماً أنه إذا دعاك موظف مصرف إلى احتساء فنجان قهوة، فهو يرتّب لك خدعة ما، لا تعرف

أبدأ متى ستصيبك بمصيبة، فأنت لا تعرف أبداً على وجه الدقة، اللحظة التي تنتفخ فيها العجينة بسبب وجود الخميرة. هذا هو المبدأ في مسألة الخميرة، نحن لا نعرف توقيت الانفجار.

تستيقظ ذات يوم فتجد أن المصيبة تنتظرك، وأن كل شيء قد طفق وفاض في المكان. ستجد أن الفوائد المضافة إلى ثمن فنجان القهوة، ذلك الذي احتسبته ذات يوم، ولم تعد حتى تتذكره، لا تعرف من أين قد جاءت. الخلاصة هي أن الأفضل لك أن تحتسي فنجان القهوة، في المقهى المواجه للمصرف، قبل الذهاب إلى موعدك مع موظف المصرف.

القروض المتحركة هي الأخرى، شيء مطبوخ داخل وعاء ساخن مغلق، لا تفهم أبداً ما هو ذلك الشيء الذي يطبخونه لك فيه، لكن عليك أن تتلعه، فأنت قد وقعت وليس هناك من يسمي عليك. لقد وقعت أم أنك تنكر، أليس هذا هو توقيعك؟ من النادر جداً إذا دخل عميل مصرف، في تلك المتاهة الحلزونية للديون، أن يخرج أبداً من هذه الحلقة الجهنمية المحكمة حول عنقه. لن تستطيع أبداً في أي يوم من الأيام، أن تدفع كل الديون المستحقة عليك؛ لهذا تدفعنا المصارف إلى وضع الجبال حول أعناقنا. المصارف لن تتركك أبداً تنعم بأي سلام.

أنا قد فهمت كيف يديرون تجارتهم؛ هم يدورون حول البؤس الإنساني، يستثمرون فيه أموالهم، فالرغبة المجنونة في الامتلاك، رغم الفقر المدقع، تملك الجميع، فالكل لديه الأمل في أنه ذات يوم، يمكنه شراء السيارات الفاخرة والشقق الفاخرة، وقريةً جداً سوف يتم

طرح البؤس الإنساني، في سوق أوراق مالية باريس، وسيكون من بين أصحاب الأسهم، صغار البوابين. دعهم يشترون شققاً فاخرة، لن يتمكنوا أبداً من سداد أثمانها.

أنا من بين دافعي الضرائب المنتظمين؛ لأنني لا أحتمل رؤية الوجوه الشاحبة لمحضري المحاكم وهم يطرقون بابي، ومعهم العامل المتخصص في فكّ أقفال الأبواب، لاقتحام شقتي والحجز على ما بها من مقتنيات. ليس هناك ما هو أسوأ من الزيارات المفاجئة لهؤلاء المحضرين. هم يبدأون في فحص جهاز الاستماع إلى الموسيقى الخاص بك، والآلة الكاتبة القديمة المشتراة من مخزن لبيع هذه الآلات عند بوابة غابة فانسان، أو حتى الأشياء التافهة من نوع، فرشاة أسنانك الكهربائية، أو آلة صنع القهوة الإيطالية.

إن هؤلاء المحضرين يضايقونني، بزيّهم الرسمي الرمادي الكالح اللون، وبنظاراتهم سمكة العدسات التي تشعرني بالذعر. لديّ انطباع بأن هذه العدسات يمكنها أن تخترق جلد الانسان، لتنظر في أعضائه الداخلية، وترى إن كان هذا الإنسان يخفي نقوداً في أحشائه، أو خلف غضاريف مفاصل الجسم.

أما الرسائل الرسمية التي يكتبونها لك، فهي مليئة بالأوامر والنواهي التي تجعلك تفكر فيها طوال النهار، ثم تمنعك من النوم طوال الليل، وذلك لأنك لا تستطيع أن تفهمها، حتى لو أنك استعنت في قراءتها ومحاولة فكّ ألغازها، بآخر طبعة من كتاب الإجراءات القانونية المدنية؛ حيث ستجد حتماً بنداً تفهم منه أنك المسؤول عن دفع أجر

انتقالات المحضرين ومتخصّصي فكّ الأقفال، من المصلحة الحكومية إلى عنوان منزلك، وثمان الورق الذي سيكتبون عليه، فالخطأ خطؤك. هنا يمكنك أن تستشيط غضبًا، ولا تجد من يعزّيك.

بشكل عام، أنا رجل كريم ومعطاء بلا حدود، واللون الأصلي لم تميّز هذه الطباع في شخصيتي. أنا أعطي النقود للشحّاذين الجالسين صامتين عند مدخل مسجد شاتوروج، فأنا أفضلهم على شحّاذي مترو الأنفاق الذين يرهقونك طوال الطريق، بأقاصيصهم المفتعلة المبالغ فيها، بالإضافة إلى كونهم قد أصبحوا مؤخّراً عدوانيين جدًّا، وتفهم من كلامهم أنهم يتّهمونك أنت، بأنك السبب في فقرهم وتعاستهم، كأن ما ستدفعه لهم هو حقّ أصيل لهم، فأنت لا تفعل إلا أن تسدّد ديونك نحوهم، بل إنك تجد من بينهم من يوجّهون إليك سبابًا واضحًا جارحًا، ولا أحد يردّ عليهم، بل يواجههم الجميع بالتجاهل التام.

وقد تقاطع طريقي مع أحدهم، على الخطّ رقم ٤، كان عجوزًا مثل أنبياء العهد القديم^(٧٩)، وظلّ يطاردني لمسافة بضع محطّات، حتى لم أعد أعرف كيف أتخلّص منه. هل كانت هذه المطاردة هي بسبب ملابسي الفاخرة؟ لعلّه ظنّ أنني ثريٌّ جدًّا؟ أم أن سبب المطاردة هي ملامح البكّة البادية على وجهي؟

على كل حال انتهيتُ إلى أن أعطيته بعض القطع المعدنية، عندما لمس وترًا حسّاسًا، وقال لي إنه لم يأكل أي شيء على الإطلاق منذ أربعة أيام. فجأة تحوّلت مشاعري من الغضب إلى السعادة، كنت راضيًا عن نفسي؛ لأنني فعلت خيرًا. لكنني اغتظت من الركّاب الآخرين الذين

بخلوا عليه بكل شيء حتى بمجرد الابتسامة. الابتسامة هي مفتاح الحياة كما يقول عربي الناحية.

غادرت القطار في محطة إتيان مارسيل، وبالصدفة البحتة شاهدت العجوز وهو يغادر القطار في نفس المحطة، فمشيت في نفس اتجاهه للخروج من المحطة إلى الشارع، هناك لمحت العجوز وقد دبّت فيه روح شابة؛ فأصبح خفيف الحركة أثناء دخوله إحدى البقالات العربية، فوقفت أراقب ما سيحدث. توقعت حتمًا أنه سيشتري طعامًا؛ فهو لم يأكل منذ أربعة أيام.

فوجئت به يخرج وفي يده زجاجة نبيذ مفتوحة، يعبّ منها جرعات متتالية. قلت في نفسي: «لقد نصب عليّ هذا العجوز، وأساء استخدام نقودي»، وأقسمت ألا أدع مستقبلًا، أمثاله من شحاذي قطارات الأنفاق يخدعونني. هذا أيضًا من بين أسباب تفضيلي لشحاذي مدخل مسجد شاتوروج، فبالإضافة إلى جلوسهم صامتين، فهم لا يوجهون إليك أي حديث لا سباب ولا غيره، وهم لا يأخذون نقودك ليشتروا بها الخمر، فهم لا يشربون الخمر لأن دينهم يمنعهم من ذلك.



(٦)

أنا لست من بين الذين تغلب على تفكيرهم المخاوف، ولست من بين الذين تنقصهم الشجاعة وقوة الإرادة، ولكن المبدأ الذي وضعته لحياتي هو (إن الجبان الحيّ أفضل من الشجاع الميّت). هي النصيحة التي قدّمها لي أحد أعمامي، أثناء حرب بيافرا^(٨٠)، التي ذهب إليها ثم هرب من معسكراتها، لينقذ نفسه من الموت الذي بدا له واضحًا لا مفرّ منه، قال: «إن الموت التدريجي البطيء، بسبب التقدّم في السن أو المرض، أفضل من الموت العبيّ من أجل الدفاع عن فكرة، ستصبح بلا أي قيمة مع مرور الوقت».

أدركت لاحقًا أن موقف الاستعداد للهروب من الموت هذا، أصبح بشكل أو بآخر من بين الموروث الشفاهي للعائلة، فأنا أيضًا هربت من بعض الالتزامات، التي كانت مفروضة عليّ في بلدي الأصلي. أما الأسلحة والقتال وما إليهما فلم يكونا أبدًا من بين اهتماماتي.

من جهة أخرى، كلّما رأيت رجالًا يرتدون زيًا موحدًا، حتى لو كانوا مجرد حراس أمن أمام أحد المراكز التجارية، أو أفراد أمن إلى جوار آلات سحب النقود على الأرصفة أمام البنوك، أنتقل إلى الرصيف الآخر،

وَأُسْرِعِ الْخَطُوْ وَلَا أَعُوْدُ أَنْظِرْ خَلْفِيْ. أحيانًا تحدث لي بعض التخيّلات الغريبة، فأعتقد مثلاً أن الحرب العالمية الثالثة على الأبواب، وأنني أرى تحرّكات عسكرية غامضة، على الطريق الدائري حول باريس، خاصة بالقرب من بوّابة لاشابيل، وأنني أسمع في وسائل الإعلام، أن السلطات الفرنسية قد استدعت الاحتياطي من قوّاتها، خاصة من بين الرماة السنغاليين، الذين اشتهروا في الحربين العالميتين بدقّة التصويب^(٨١).

لذلك أكره أفلام الحروب، مهما كانت عبقرية مخرجيها، وآخر فيلم شاهدته من تلك النوعية من الأفلام، كان فيلم (يجب إنقاذ الجندي رايان). صحيح أنه مختلف عن الفيلم الكلاسيكي (أطول يوم في التاريخ)^(٨٢)، الذي كان بالأبيض والأسود، لكن فيلم الجندي رايان رغم ثراء الألوان، والحبكة المحكمة البناء، يظلّ هو كذلك من أفلام الحرب، بأزياء عسكرية موحّدة، وألغام وتفجيرات واحترق لحوم بشرية، وموت وفناء.

إلا أن الحروب الحقيقية ليس بها تشويق، ولا تكون حبتها محكمة البناء، وليست بها لقطات مؤثّرة، وليست بها حوارات متقنة، إذ يطلق بعضهم النار على بعضهم الآخر، فتتراكم الجثث التي يقوم الأحياء بحصر عددها، بهدف أن يتمكّن أساتذة مادة التاريخ في جامعة السوربون، من معرفة عدد الضحايا بدقّة، لأغراض البحث العلمي والدراسات العليا.

كان أحد أصدقاء طفولتي قد نصّحني بضرورة أداء الخدمة العسكرية، ولكن على أن يتمّ هذا في أنجولا وليس في الكونغو. في

ذلك الوقت كان هذا ممكناً بين هاتين الدولتين. حاول هذا الصديق إقناعي بأن هناك مزايا عديدة لأداء الخدمة العسكرية، منها أن عدد العسكريين الذين يموتون عندما تقوم حروب حقيقية، أقل بكثير من عدد الوفيات بين المدنيين؛ فالجنود يعرفون كيف يحمون أنفسهم في أوقات الخطر، وتكون لديهم أسلحة يدافعون بها عن أنفسهم. بالإضافة إلى أن التعويضات التي يحصل عليها الجندي في حالة الإصابة أو العجز، أكبر بكثير من تلك التي يحصل عليها المدني.

أنا أفضل السلام، وأعتقد أنه من الأفضل أن أموت مدنياً، حتى لو دفنوني في مقبرة عامة، على أن أكون عسكرياً. نموذجي وقودوتي في الدعوة السلمية للحصول على الحقوق المدنية دون قتال، هو القس الأمريكي البروتستانتي الأسود، مارتن لوتر كينج، الذي أحفظ له بصورة فوتوغرافية، وهو يقف يعطي التحية أمام صورة للمهاتما غاندي. ومع ذلك فرغم دعوته للسلام؛ إلا أنه وجد من يقتله دون رحمة.

لكن حدث في الكونغو أن فرضت علينا السلطات الكونغولية، أن نذهب غصباً لأداء الخدمة العسكرية في أنجولا، لأنها كانت في ذلك الوقت تستعدّ لصدّ هجوم جيراننا الزائيريين، وهم أعداء لنا ولأنجولا في نفس الوقت. الزائيريون كانوا أكثر عدداً من الأنجوليين، ويطمعون في وضع أيديهم على حقول البترول الأنجولية، وعلى خشب غاباتها، وعلى ساحلها الطويل، الممتد على المحيط الأطلسي. بالإضافة إلى أن حكومة أنجولا كانت تقاوم حركة ثورية عنيفة، على رأسها الثائر يونس سافيمبي Savimbi.

في تلك الفترة، كان يجب على بلدنا مساندة أنجولا، التي تحارب على جبهتين، إحداهما خارجية والأخرى داخلية. هكذا أرسلت حكومتنا أعدادًا كبيرة من الشباب الكونغولي إلى إقليم لواندا. لكننا نحن أبناء الفقراء كنا نعتبر أن هذا الإجبار على أداء الخدمة العسكرية في بلد آخر، هو نوع من العقاب الجماعي، الذي يقع فقط على أبناء الفقراء، ولا يقع أبدًا لا على أبناء الأغنياء، ولا على أبناء رجال الطبقة الحاكمة. هذا بالإضافة إلى أن ثوار سافيمبي لم يسيئوا إلينا بأي شكل، فلماذا نقاتلهم؟ كان هؤلاء الثوار يعيشون في الغابات، ويقتاتون على أشجار الفاكهة، وعلى صيد الأسماك والحيوانات.

الحقيقة هي أنني كنت أحب سافيمبي، بصورته التي عرفناه بها، بلحيته الكبيرة ونظرته المتأملّة. الحقيقة هي أننا كنا نتعاطف مع سافيمبي، وكنت شخصيًا أشعر بالسعادة، كلّما نجحت قوّاته في تضليل القوّات الأنجولية النظامية المسلّحة. بل كنت أتمنى من كل قلبي أن يكسب هو هذه الحرب. لماذا إذن أذهب للقتال ضدّ شخص أتعاطف معه إلى هذا الحدّ؟

فإذا كان الدهماء من الشعب الكونغولي، قد أسرعوا بالذهاب إلى القتال في أنجولا، فإن ذلك لم يكن إلا بسبب أن تهريب المهاجرين منها إلى أوروبا، كان أسهل بكثير من تهريب المهاجرين من الكونغو إلى أوروبا؛ وذلك لأن أطقم الأنجوليين العاملين على خطوط شركات الطيران الأنجولية، كانت متواطئة مع المهرّبين. كان يكفي أن تعطي المهرّبين مبلغ ٣٠٠ ألف فرنك كونغولي، لتحصل على مكان في طائرة

متجهة إلى أوروبا. أنا شخصيًا جئت إلى أوروبا لأول مرة بنفس هذه الطريقة.

وصلت أولاً إلى البرتغال^(٨٣)، ومنها إلى بلجيكا ثم إلى فرنسا، التي دخلتها بأوراق إثبات شخصية ليست لي، وإنما لأحد مواطني السابقين، الذي كان في فرنسا وحصل رسميًا على هذه الأوراق، ثم عاد منها إلى الكونغو، وحدث أن مات هناك فباع إخوته أوراق إثبات شخصيته إلى المهرّبين، وهم باعوها لي. وأنا لا أزال حتى الآن، أحمل الاسم الأول واسم العائلة الخاص بهذا الشخص، وهذا هو السبب في أنني حتى الآن لم أكشف لكم عن اسمي الحقيقي، فأنتم لا تعرفوني إلا بلقبتي (خبير الأرداف)، أو (خبير المؤخّرات)، ولم أكشف لكم أبدًا، عن اسم الشارع الذي أقيم فيه في الحي الثامن عشر، وهكذا لا يمكن لأحد أن يستدلّ عليّ.

ومن المعروف أنه عند موتي، سيحضر أخي إلى فرنسا من البلاد، لهذا السبب بالتحديد؛ أن يحصل على أوراق إثبات شخصيتي، التي سيعود بها إلى البلاد، لبيعها هناك بمبلغ كبير إلى العاملين في أسواق التهريب. على أي الأحوال أنا لا أزال صغير السنّ نسبيًا، وفي حالة صحّة جيّدة، ولا أتوقّع موتي في موعد قريب.

* * *

أنا لا أحبّ أن أعود إلى ذكريات مرحلة ما قبل السفر إلى فرنسا، وما قبل الذهاب إلى أنجولا، عندما كنت لا أزال أعيش في الكونغو،

حين كنت رغباً عن إرادتي أقوم بالعمل في مجال لا أحبه. أستيقظ في الصباح وأقف في موقف سيارات نقل الركاب، عند ستوديو التصوير في شارع الاستقلال، أنتظر وصول السيارة النصف نقل، التي كانت عندما تصل، يقفز إليها عشرة عمال في نفس الوقت، وكنت أنا واحداً منهم، وتستأنف السيارة مشيها، ثم تتوقف كل مائتي متر، ليصعد إليها على الطريق المزيد من الرجال الشباب.

كان النهار ينتشر ببطء، ومنذ لحظة الوصول إلى مركز المدينة، يمكننا أن نسمع صوت أمواج المحيط، الذي كان لا يبعد عنا إلا بضع مئات من الأمتار. كنا كلنا نعمل في الميناء، عمالاً يدويين أو عمالاً في المخازن. عند مدخل منطقة الميناء، يقف تجار الأسماك المحليون بسيارات النقل القديمة التي يمتلكونها، ينتظرون لحظة وصول مراكب صيد السمك التي يمتلكها مواطنو بنين^(٨٤)، الذين كانوا يحتكرون حق صيد السمك في هذه المنطقة. كان هناك في الكونغو اعتقاد سائد بين الطبقات الشعبية، أن صيد السمك هو مهنة وضيعة؛ لذلك كان تجار السمك الكونغوليون يدخلون في نقاشات عنيفة مع البينينيين، غالباً ما تنتهي بالالتحام الجسدي.

إذن كان هذا هو عملي؛ كنت أعمل في الميناء عمالاً يدوياً مرهقاً. فبعد أن فشلت في الحصول على شهادة إتمام الدراسة الثانوية (البكالوريا)، في القسم الأدبي ومادة التخصص الفلسفة، استنتج والذي أنه لم يعد هناك أمل لي في الذهاب إلى الجامعة، فحتى الحاصلون على البكالوريا، كان عدد كبير منهم لا يستطيع الذهاب إلى الجامعة؛ وبالتالي

كانوا يقضون الوقت في البطالة، حتى يحصلوا على عمل يدوي.

من الأشياء العجيبة في تلك الفترة، أن جميع الشباب كانوا يحلمون بأن يصبحوا رؤساء للبلاد، فمع كثرة الانقلابات العسكرية، تولّد لدى الشباب اعتقاد، أنه من الممكن بسهولة لأي شخص، أن يصبح رئيسًا للبلاد، لو عرف كيف يقوم بانقلاب عسكري، ثم يستعين بعد ذلك بأفراد من قبيلته، لشغل كل المناصب الإدارية المتاحة في البلاد.

كانت السيّارة النصف نقل، تصل إلى رصيف تفريغ مراكب الشحن الضخمة، فيفتح السائق حاجز صندوق السيّارة فنندلق أو ننزلق منها، كما لو أن السائق قد فتح علبة سردين. من هناك وقبل الوصول إلى الرصيف، ينبغي المرور مشيًا بحاجز تفتيش، يقف أمامه بعض العسكريين بأزيائهم الرسمية، نمرّ أمامهم واحدًا واحدًا في طابور طويل، يفحصون أوراقنا الشخصية، ويصادرون الحقائب التي نحملها، التي نستردّها فقط عند المرور بنفس الحاجز للخروج من الميناء، في نهاية يوم العمل الطويل.

كانت مراكب الشحن الضخمة، تصل إلى رصيف ميناء بوانت نوار، ثم يتمّ نقل الحاويات من على ظهرها إلى أرض الرصيف، بواسطة رافعات قادرة على حمل عشرات الأطنان. نحضر نحن في الصباح الباكر، ونظّل نعمل حتى غروب الشمس، في تفريغ هذه الحاويات الضخمة من بضائعها. تلك الحاويات كانت تحتوي غالبًا على أشياء شديدة التباين. كان رؤساء العمّال يراقبونا طول الوقت، ولا يرفعون أعينهم عنّا، ويتهمونا بسرقة أشياء من تلك الحاويات، أحيانًا بالحق

وغالِبًا بالباطل، بحجة أننا مشهورون ومشهود لنا بعمليات النصب،
وبعدم الأمانة، ومعروف عنا بيع هذه البضائع المسروقة لاحقًا، على
أرصفة شوارع حيّ الثلاثمئة الشعبي في العاصمة.

عند حدوث أيّ شكّ في أيّ عامل، كان المتهم المدان قبل
محاكمته، يُساق إلى مكتب الجمارك الرئيسي؛ حيث يُعرى تمامًا من
ملابسه، ثم يضربونه بالسياط التي تنتهي أطراف خيوطها بأسلاك مسنّنة،
ثم يحكمون عليه بسداد مبلغ جزافي، كثمان تقديري لقيمة المسروقات،
سيظلّ مديونًا به، يدفعه بما سيستقطع طوال حياته من رواتبه، ولن يتمكّن
من سدادته حتى موته، فتنقل مسؤولية سداد الدين إلى أبنائه وأحفاده. ثم
يقولون لنا في دروس التاريخ إن المستعمر كان ظالمًا!

صحيح أن إغواء السرقة كان قويًا، أمام كل تلك البضائع القادمة من
جميع أنحاء العالم، إلا أن الحقيقة هي أن من كانوا يقومون بالسرقة، هم
رجال الجمارك أنفسهم أو رؤساء العمّال، ثم يبحثون عن كبش فداء من
بين العمّال الفقراء، الذين لا يساؤون شيئًا وليس لهم من يدافع عنهم،
ولا حول ولا قوة لهم في الدفاع عن أنفسهم. هي إذن كانت سلسلة
متشابكة الأطراف من الفساد والظلم.

في الساعة الواحدة بعد الظهر كانوا يسمحون لنا بفترة راحة، نأكل
خلالها طعامنا الصحيح، ولكن رؤساء العمّال كانوا يستمرّون في مراقبتنا
حتى خلال فترة الراحة تلك القصيرة. كانوا يُجلسوننا لنأكل طعامنا إلى
موائد طويلة، على رأس كل واحدة منها حارس مفتول العضلات، كأنه
أحد أبطال رفع الأثقال، يضغط في فمه قطعة كبيرة من المانيوك^(٤٣)،

وتتحرك عيناه في اتجاه أي همس، بين أي عاملين جالسَيْن إلى مائدته الموكل إليه حراستها.

عند مغادرتنا الميناء في بدايات المساء، كنا نمّر واحدًا واحدًا بما أسميناه كشك التصفية من الشوائب، وفيه كانوا يعيدون تفتيشنا ذاتيًا، فيرتد كل شخص منا إلى زيّ أبينا آدم بخلع كل ملابسه، ونرفع أيدينا إلى أعلى في وضع الاستسلام التام؛ لأن هناك سلاحًا ناريًا يهدّدنا. كان الخروج من الميناء أقرب شبهًا بالعودة إلى الحياة، وبمجرد العودة إلى المنزل، كنت أنام على الفور من شدة الإرهاق، حتى صباح اليوم التالي، وهكذا دواليك.

عندما كنت أشتكي من هذه الأحوال أمام أبي، كان يكرّر على مسامعي جملة: «لا يوجد أي شيء سهل في حياة الإنسان»، وكان يقول إن العمل في الميناء سيجعّلي أكثر صلابة في مواجهة الأزمات العادية، التي كثيرًا ما تواجه الإنسان العادي في حياته، وإن صعوبة الحصول على النقود ستجعلني أفكر كثيرًا قبل إنفاق أي قدر منها.

ثم كان يضرب لي المثل بعمّي جان بيار، الذي عمل حمّالًا للحقائب في محطة السكك الحديدية في بوانت نوار^(٣٤) سنوات طويلة، وهكذا نجح في حياته؛ إذ تمكّن من عائد هذه المهنة البسيطة من بناء منزل صلب، كان لديه فيه التيار الكهربائي، وحفر إلى جواره بئرًا مزوّدًا بمضخة مائية، ثم حتى تكتمل سعادته عاد إلى قريته، لاختيار شريكته في الحياة. كان أبي يكرّر القول بأن نساء المدينة لا يتزوجن إلا حافظة نقودك الممتلئة.

كانت هذه هي فكرة أبي عن النجاح في الحياة، وهي فكرة لم أقتنع بها أبدًا بشكل مطلق، بل كان اقتناعي القليل بها يقلّ أكثر وأكثر مع مرور السنوات. كان الحلّ المثالي بالنسبة لأبي، هو أن يكون لك نشاط مهني محدّد، بصرف النظر عن ماهية هذا النشاط، ومهما كانت بساطته أو ضعف عائده، وأن تكون قادرًا على أن تدّخر قدرًا قليلًا من هذا العائد البسيط، لبناء منزل صغير يخصّك، حتى لو كان هذا المنزل يتكوّن من حجرة واحدة، والعودة إلى قرية مسقط رأس القبيلة، لاختيار شريكة حياة، من بين العذراوات المطيعات الخانعات، بشرط إجادة الشؤون المنزلية، وأهمها طبخ الطعام. كانت هذه هي الطريقة التي تزوّج بها أُمّي. هو قال لي هذا لتشجيعي على البقاء في العمل بالميناء.



لا زلت أتذكّر هذا الرجل (رابليه) أبي^(٨٥)، الذي كان لديه حظّ إكمال تعليمه حتى نهاية الصفّ الثاني الابتدائي، وهو ما سمح له بالقدرة على قراءة وكتابة اللغة الفرنسية، بمستوى يحسده عليه الكثير من أصدقائه. في بداية تاريخه الوظيفي في مراهقته الأولى، عمل خادمًا للأسر الفرنسية أو الأوروبية المقيمة في وسط المدينة، وهو ما كان في نظر عجائز حيّ الثلاثمئة، بمثابة إعلان عن النجاح في الحياة المهنية.

كان الأوروبيون المقيمون في العواصم الأفريقية خلال المرحلة الاستعمارية، يصفون عجائزنا الشعبيين بأنهم أستراليّون، ويقصدون بذلك شعب أستراليا القديم، الذي عاش معزولًا تمامًا عن العالم

الحديث حتى نهايات القرن الثامن عشر^(٨٦)، دون ثقافة حديثة، ودون رؤية واضحة لمشاكل العالم المعاصر، بثقافة لا تهتم إلا باليومي، الشديد الاحتكاك بواقع الحياة المادي. اعتقد أبي أن العمل في خدمة الأوروبيين، هو أفضل عمل متاح في وقته، لمن كان في مثل ظروفه؛ فالبقاء إلى جوارهم، والإنصات إلى ما يقولونه خلف أبوابهم المغلقة، هو الباب الذي قاده إلى فهم الحضارة الغربية، وهو ما أدى به إلى أن يكون له رأي في المسائل العامة.

كان يعيد على مسامعي كل ما كانوا قد قالوه له قبل عشرات السنوات، متأكدًا من أن كل ما قالوه له كان صحيحًا، ومؤمنًا بأن كل ما قالوه له كان حقيقيًا، طالما أنهم من البيض الأوروبيين، وكان من المستحيل إقناعه بأي رأي آخر، أو حتى مجرد محاولة إقناعه بمناقشة ما قالوه له، ناهيك عن مسألة أن ما قالوه له، بالاستعانة بالأدلة المادية المتاحة حاليًا، لم يكن صحيحًا، خاصة لو أن من حمل إليه هذه الأدلة المادية كان زنجيًا، هنا يستأنف شرح وجهة نظره، كأن الزنجي الذي أمامه لم يقل له أي شيء، أو حتى كأنه ليس موجودًا.

هو: هناك بيض على كل لون، فمن بينهم من لديه بقع غريبة على وجهه، وهناك من يكون شعر رأسه كله أبيض، رغم أنه لا يزال في عنفوان الشباب، وهناك من تكون بشرته شديدة البياض بلون نبيذ النخيل، وهناك من يكون لون بشرته موضع شك في استحقاقه الانتماء إلى البيض، وهناك من يتحول لون بشرتهم عندما يغضبون إلى اللون الأزرق بدلًا من اللون الأحمر.

كان كثيرًا ما يذكر، لكل من أراد أن ينصت إليه، أنه ذات يوم كان في مقدوره أن يتزوّج من امرأة بيضاء، امرأة بيضاء حقيقية كانت ستعود به إلى فرنسا، ليعيشا هناك معًا في مدينة بوردو، ولماذا بوردو بالتحديد؟ هذا الاختيار كان بسبب شهرة نبيذ تلك المدينة، وهو كان لا يزال يعتقد حتى سنّ الشيخوخة، أن هذه المدينة قد أُطلقَ عليها اسم النبيذ الذي تشتهر به وليس العكس، أي وليس أن هذا النبيذ قد أطلق عليه اسم المدينة التي تشتهر به. هو اعتقد أن النبيذ بوردو أقدم من المدينة بوردو. واعتقد كذلك دون أدنى شكّ، أن كلّ أنبذة العالم الحمراء، هي من نفس نوع نبيذ بوردو الأحمر. هو لم يعرف أبدًا أن بوردو تنتج كذلك أنبذة بيضاء.

لذلك فإنه عندما كان يدخل واحدة من حانات حيّ الثلاثمئة في برازافيل، يريد أن يحتسي كأسًا من النبيذ، الطويل أو القصير، وأعتقد أن هذه هي إشارة إلى حجم الكأس، وبالتالي إلى حجم كمّية النبيذ المقدّمة إلى الشارب، ورغم أن هذا النبيذ هو من إنتاج الشركة المحليّة الوطنية لأنبذة الكونغو، كان يقول للنادل: «كأس بوردو طويل». كأن المرادف الطبيعي لكلمة (بوردو) هو عبارة (نبيذ أحمر). ثم يبدأ في احتساء الكأس تلو الكأس، مثل إسفنجة تمتصّ كل ما يقع في جوفها.

لم يتوقّف عن احتساء النبيذ، إلا في العام الذي ذهبَ فيه للخدمة العسكرية في أنجولا، بعد أن كان خوفه عليّ قد أصابه بأزمة قلبية كادت أن تودي بحياته. لا زلت أتذكّر جدله مع أمّي، في كل مرّة كان يعود فيها إلى البيت مخمورًا: «لو كنت تزوّجت بيضاء من بوردو، لكنت

احتسيت نبيذ بوردو كما أشاء، دون أن يضايقني أحد».

لكنه ظلّ حياته كلّها إلى جوار أمي لم يتركها أبداً. كانت أمي تبّيع الفول السوداني والسمك المملّح وزيت النخيل في أسواق الأحياء الشعبية، حيث كان يذهب معها ليجد لها مكاناً مناسباً تفرش فيه بضاعتها، وليعرف جيرانها في السوق أن خلفها رجلاً. عاد أبي إلى قريته مسقط رأسه، واسمها (لوبولو)، ل يبحث هناك عن شريكة حياته، وكنت أنا أول ثمرة لهذا الزواج.

لم أعد إلى البلاد منذ خمسة عشر عاماً؛ لذلك لم أتمكن من رؤية أي شخص من عائلتي، لا أبي ولا أمي ولا إخوتي، خلال كل تلك المدة. لكنني لا زلت أذكر الكلمات الأخيرة لأمي الباكية.

هي: اذهب إلى فرنسا واكسب الكثير من النقود، وأرسل لي بعضها حتى أستأجر مكاناً دائماً في سوق (تي تي)، وأتوقّف عن التنقّل بين الأماكن، ثم أرجو أن تعطيني حفيداً أو حفيدة، قبل أن أغادر هذه الأرض إلى الأبد.



(٧)

لديّ الآن بعض وقت الفراغ، ولست في سبيلي إلى كتابة شيء، وليست لديّ رغبة في الذهاب إلى حانة جيس، لاحتساء كؤوس الخمر، أو زجاجات البيلفورت، في مثل هذه الأوقات، أحب أن أذهب لأتوه قليلاً في سوق ديجان، في شاتوروج، وهو السوق الكونغولي مئة بالمئة في باريس، حيث يمكنني أن أستعيد ذكرى اللون الأصلي وصديقتها راشيل، اللتين كانتا تبعان هناك السمك المملّح، دون أن تكونا قد حصلتا على الترخيص الرسمي من بلدية باريس، المطلوب لممارسة هذا النوع من النشاط التجاري.

هناك كان غالباً ما يتقاطع طريقي، مع طريق بعض الرجال القادمين منذ فترة وجيزة من البلاد، فالكثير منهم اعتاد على أن يأتي مشياً إلى هنا من محطة قطارات الشمال، فهم غالباً من سكّان الضواحي الشمالية، وهم يأتون مشياً صيفاً وشتاءً، تحت الشمس الحارقة أو وابل المطر، فهم لا يهتمّون. هم لا يشترون ولا يبيعون أي شيء، لكنهم مدفوعون بنفس الدافع الذي أشاركهم إيّاه، وهو محاولة الاقتراب قدر المستطاع من ناس البلاد. نحن نحاول أن نعيش وهم أننا لو شاهدنا ناس البلاد من

مواطنينا، فكأننا قد عدنا إلى البلاد، ولو لمدة ساعات قصيرة، هي مدة دوام هذا السوق.

نحن هناك نتبادل الرأي بشأن مسائل عديدة، منها مسألة واقع حياة السود في فرنسا، وجدوى البقاء هنا بدلاً من العودة إلى البلاد، ومنها مسألة الحكم المستبدين الذين يمتصون دماء أهاليها في البلاد، ويحثون الناس من الأعراق المختلفة، على انتزاع أحشاء بعضهم لبعض، أمام آلات تصوير المجتمع الدولي. فإذا لم يكن لا هذا ولا ذاك، تكفي لذة الإنصات إلى لهجات الوطن.

يخرج أحبائي من زملائي في الوطن، من قطارات الضواحي الشمالية، إلى أرصفة محطة قطارات شمال باريس، إلى شارع ماجنتا، حيث ينظرون بأطراف أعينهم، إلى العروض المدهشة العجيبة في واجهات وكالات التشغيل، مثل مطلوب عمال مؤهلين، أو مطلوب موظفي أمن، أو مطلوب عمال شحن وتفريغ مخازن. هم يأخذون ملحوظات بكل هذا في قصاصات ورقية يحملونها في جيوبهم. ثم يتكلمون طويلاً عند بارباس روشوار، قبل أن يأخذوا شارع مير، الذي يقودهم إلى قلب سوق ديجان.

تكون الطقوس المعتادة التي لا يمكن تجاهلها، لهذا اللقاء بعد غياب، عناقات بلا نهاية، أمام مناضد بيع السمك المدخن والمانجو والجوافة، مع ضحكات حلقة بأعلى صوت، واهتزاز أجساد قد تفقد توازنها، فتطأ أقدام الآخرين دون اعتذارات، ثم تبدأ المحادثات التي تتخذ دائماً أحد هذه الطرق.

- أنا لا أصدّق أنني أخيراً رأيتك هنا.
- صديقنا فلان عاد إلى البلاد ليتحقّق الأوضاع.
- صديقنا فلان يتعفّن هنا في فرنسا منذ أربعة عشر عامًا.
- إن الشعر الأبيض يسقط هنا في فرنسا بغزارة، كما تسقط الثلوج؛ لذلك ينبغي استعمال صبغات الشعر لتضليل الناس.
- من الخطأ مغادرة فرنسا والعودة النهائية إلى البلاد، دون الحصول على متأخرات المرتّب.
- الشرطة الفرنسية لا تهتم بك إذا كنت ستعود إلى البلاد على حسابك الشخصي.
- عندما يتعد الفأر عن جحره؛ يكون من الصعب إعادته إليه مرّة ثانية.
- العودة إلى فرنسا ليست سهلة لو أن أوراقك مزوّرة، أو لو أن صورة جواز سفرك الفرنسي لا تتطابق مع شكلك الحقيقي.
- هل تريد أن تقول إنه بعد كل هذه السنوات، لم يتمكن بعد من الحصول على أوراق رسمية.
- إن السبب الحقيقي لعودته إلى البلاد هو محاولة شراء أوراق إثبات شخصية من المهرّبين.
- سيحاول تصغير سنّه عشر سنوات حتى يتمكن من البقاء في نزل الشباب الذي يقيم فيه بأسعار مخفّضة؛ لأنهم يشترطون هناك ألا يتعدّي سن النزّل خمسة وعشرين عامًا.

- هم لا يقبلون الملتهجين في بيوت الشباب .

- أنا سأسافر إلى البلاد لأحصل من هناك على رخصة قيادة سيّارات
يمكن اعتمادها هنا، لأنني منذ خمس سنوات أرسب هنا في امتحانات
الحصول على الرخصة.

هناك كذلك بعض المواطنين الكونغوليين، الذين ينزلون من
الضواحي إلى باريس، لا عن طريق محطة قطارات الشمال، ولكن عن
طريق محطة قطارات الشرق. لكنهم في هذه الحالة يقطعون مسافة
أطول للوصول إلى سوق ديجان. هؤلاء لا يهتمّون بكون المسافة أطول،
فهم يريدون التسكّع في شوارع باريس، خاصة في شارع ستراسبورج،
وليس لديهم على الإطلاق ما يدعوهم إلى الاستعجال، بل هم يتعمّدون
التلّكّع، لرغبتهم في التشبّع بأجواء حي شاتودو، صرح فنون تصنيف
الشعر ومستحضرات التجميل، لأصحاب البشرات السوداء، إذا لم
نكن نريد أن نقول للزنجوج.

هناك أمام محطة قطارات مترو أنفاق شارع ستراسبورج، توجد
دائمًا تجمّعات صاخبة، من محترفي الإغواء، يتابعون بإلحاحهم أولئك
المصابين بالقراع، الذين يمرّون من هناك بغرض البحث عن الأمل في
الحصول على علاج، فيعرض محترفو الإغواء عليهم خصلات شعر
كثيفة، مصقّفة على طريقة تصنيف شعور فرقة جاكسون فايف، الإخوة
الخمسة الذكور الأكبر سنًا لمايكل جاكسون، الذين بدأ الغناء معهم
وهو في سن مبكر جدًا.

هم كذلك يقترحون على كل المارة هناك من الرجال، قصّات شعر

حديثه وسريعة، في محلات تقع إما تحت مستوى سطح الأرض، وإما في الطابق الثامن من بنايات مهجورة ودون مصاعد، لذلك هي أرخص ثمناً بكثير من نفس القصاصات في محلات فوق مستوى سطح الأرض. هؤلاء من محترفي الإغواء، يعرفون كل الطرق الممكنة لإقناع الزبائن المحتملين، ثم بمجرد إبداء الموافقة يأخذون زبائنهم من أيديهم، في ممرات طويلة ملتوية نصف مضاعة، ومنها إلى سلالم تبدو بلا نهاية، للوصول أخيراً إلى المكان الذي تصدر منه طول الوقت، أصوات ضربات المقصات، وصرير آلات جز الشعر.

ذات مرة أثناء مروري هناك، تقاطع طريقي مع طريق مواطن من جمهورية أفريقيا الوسطى، كنت قد سبق لي مقابلته، وجدته قد وقع في يد أحد أولئك من محترفي الإغواء، عندما كان يستعد لعبور الشارع، إذ قفز عليه محترف الإغواء، وأمسكه من ذراعه، كما لو كان فريسة وقعت في فك حيوان مفترس، أو كأنه عصفور بريء، سقط بين براثن قطّ مفترس.

المحترف: بالله عليك يا أخي قل لي ما هذا الشيء الذي تحمله فوق رأسك؟ تعال معي إذن على الفور، حتى أريك كيف يمكننا علاج هذه الحالة، وإصلاح هذا الوضع. بضربتين صغيرتين سريعتين متقنتين من المقصّ، لن تصدّق عيناك كيف أصبحت فجأة حقاً رجلاً أنيقاً. ما قولك في هذه المعجزة؟

الزبون: لا يا أخي لن أفعل، وشكراً على كل حال؛ فأنا لم أعد أقصّ شعري منذ فترة طويلة.

المحترف: كيف ترضى بتجولك هكذا في الشوارع، وأنت تحمل فوق رأسك عش الغراب هذا؟ يا إلهي... إنهم أمثالك الذين يتسببون لنا في العار في هذا البلد، ألم تفكر أبداً كيف إذن لفتاة بيضاء سليمة الطوية، نقية الروح والجسد أن تنظر إليك، وأنت تسير معها بشعرك هذا؟ تعال معي الآن، واستمع إلى نصيحتي الأخوية؛ يكفي شعوبنا ما تعرّضت له من معاناة طوال مئات السنين.

وهكذا انتهى هذا التكدير لمواطن أفريقيا الوسطى، برضوخه التام واستسلامه لمحترف الإغواء، وذهابه معه إلى... لا أعلم أين، أو إلى حيث يوجد حلاق نصف فاشل، يعاني من البطالة لسبب أو لآخر، سيقبض منه محترف الإغواء هذا عمولته، ثم يغلق الباب خلفه، ويعود من جديد إلى الشارع لاستدراج أو لاصطياد المزيد من الزبائن مشتّي الانتباه، بينما ينهمك الحلاق الآن، في مهاجمة هذا الدغل الكثيف، فوق رأس الزبون. لكن يبدو أن الحلاق يتردد قليلاً؛ إذ إنه لا يعرف كيف يبدأ في معالجة شعر هذا الزبون، قد يؤدي البدء بالتمشيط إلى كسر المشط؛ إن شعر هذا الزبون يشبه الأعشاب الجافة المتربة المتداخلة، التي لا يمكن بأي حال اختراقها.

* * *

كانت منطقة شاتو دو مرحلة انتقالية إلى شاتو روج، كأنك تهبط بالطائرة ترانزيت (مرور عابر) في مطار دولة، لتأخذ منه طائرة أخرى إلى دولة مجاورة. ففي شاتو روج يوجد متجر اسمه (لوكسور) *Luxure*،

وهي كلمة تعني الفسق أو الفجور، حيث تباع كل أنواع شعر الرأس النسائي المستعار، التي تفوح منها روائح تشبه رائحة النفثالين^(٨٧)، أو سامحوني في هذه العبارة، تشبه رائحة قيء الأطفال الرضع.

يمتلئ هذا المتجر من الصباح إلى المساء، بفتيات سوداوات يردن شعورًا مستعارة شقراء، وفتيات شقراوات يردن شعورًا مستعارة سوداء؛ فلا أحد يعجبه حاله. وتفضل الشقراوات الشعور المستعارة السوداء، التي تكون مجدولة في شكل ضفائر رفيعة، عن كل أنواع الشعور المستعارة السوداء الأخرى.

ومن بين أعجب من يتردد على شاتو روج، تجد أحيانًا بعض نزلاء فنادق الفورميل واحد *Formule I*، التي تقام على حدود الطريق الدائري، الذين يأتون للتسكع في هذه النواحي، وهي الطريقة التي تستعملها بعض الشخصيات نصف المشهورة، لاختبار مدى انتشار شهرتها في أحياء أطراف باريس. وهم غالبًا من المؤلفين لكتب الرحلات إلى بلاد العالم، الذين يظهرون في بعض برامج القنوات التلفزيونية، يتحدثون عن بلاد أجنبية زاروها، وفي الحقيقة هم يدعون ذلك، فهم لم يغادروا أبدًا الأراضي الفرنسية، ولن يتمكنوا أبدًا من العثور على تلك البلاد الأجنبية على الخرائط.

هناك كذلك طوائف غريبة من البشر، تسكع على حواف باريس، تجد من بينهم أبناء غير شرعيين لشخصيات مشهورة في عالم السياسة، من رؤساء دول وحكومات، ظهروا مؤخرًا لسبب أو لآخر على الصفحات الأولى للجرائد. هذه الطوائف الغريبة من البشر تجد

من بينهم كذلك معارضين سياسيين، معرّضين للاغتيال في بلادهم، تستضيفهم فرنسا، وتقدّم لهم المأوى والمأكل.

وتجد كذلك لاعبي كرة قدم متقاعدين، لم يلمسوا كرة منذ عشرات السنوات، أو نجومات غناء سابقات، تمّ تخطّي مرحلتهم الفنية منذ فترة طويلة، ولم تعد المحطّات تذيع إنتاجهم. يريد الجميع معرفة إن كانت جماهير الشارع لا تزال تتذكرهن.

شاهدت ذات مرّة في شاتو روج امرأة أوروبية، مكتملة زينة الوجه بالأصباغ والمسايق، مع أحدث صيحة في تصفيف الشعر، لكنها ترتدي منامة منزلية (بيجاما)، ولا تضع في قدميها إلا خفين منزليين خفيفين. من أين أتت هذه المرأة؟ من منزل في الضواحي على بعد ساعة بالقطار؟ أم من أحد فنادق الطريق الدائري؟ وهل حدث هذا سهواً، ونزلت دون أن تدرك ما تفعله؟ أم أنها فعلت هذا عامدة؟

عندما سألتها بعض الأشخاص في الطريق لماذا تفعل هذا؟ أي لماذا ترتدي هذا الزيّ المضحك المخصّص للنوم في الفراش؟ قالت إن فرنسا هي بلد الحرية والإخاء والمساواة، وهي شعارات ثورة سنة ١٧٨٩ الفرنسية ضد الملكية.

أضافت بعد ذلك: ثم إنكم أيها الجهلة، لم تلاحظوا أن هذه المنامة تحمل توقيع إيف سان لوران^(٨٨)، وأنا لم أبتعها لأختفي بها تحت أغطية الفراش، وإنما من أجل أن يراني الناس بها. أنا أنصحكم قبل أن تتحدّثوا انظروا أولاً إلى من تتحدّثون.

أجد أنه من العبث ما يحاول رجال شرطة المرافق أن يفعلوه، فهم

يمرّون على أرصفة شاتو روج، لتسجيل مخالفات الوقوف في الممنوع لعشرات السيّارات، دون ملاحظة أن أغلب أرقام اللوحات المعدنية لتلك السيّارات، تدلّ على أنها آتية من بلاد أجنبية.

إذن نحن في شاتور روج نفعل كل هذا:

- نقصّ شعر الرأس، وفقاً لأحدث الصيحات.

- نصف السيّارات فوق الأرصفة، وفي الأماكن الممنوع الوقوف فيها.

- نعثر على سيّدات في منامات منزلية في الشوارع.

- بالإضافة إلى كل هذا، نحن نبيع هناك الملابس المستوردة في الشوارع، دون الحصول على ترخيص رسمي بذلك، حيث يتمّ عقد الصفقات في دورات مياه المقاهي والحانات، وحيث يتمّ انتقال الأوراق المالية من يد إلى يد، بسرعة كبيرة ستجعل دافيد كوبر فيلد^(٨٩)، يطلب الانسحاب من الساحة، والحصول على اعتزال مبكر. كل هذا رغم الرقابة المكثّفة، ورغم شكوى التجار من أصحاب متاجر بيع الملابس المرخصة.

في شاتو روج كذلك، أنصتُ ذات مرّة إلى المرافعة الشهيرة لأحد مواطني الكونغو، الذي كنا قد أطلقنا عليه لقب (زعيم الرأي العام)، للدفاع عن نفسه، إذ كان لسوء حظّه يؤخذ دائماً ككبش فداء، بواسطة رجال الشرطة الفرنسية، الذين يقومون كل فترة بتمشيط الحيّ تمشيطاً دقيقاً، بحثاً عن أولئك المقيمين في الحيّ، دون أن تكون لديهم الأوراق

الرسمية المطلوبة للإقامة في فرنسا.

قال من بين ما قال: أيها السادة رجال الشرطة،

أولاً: إذا كنتم تعتقدون أنني لا أحوز الأوراق الرسمية المطلوبة،
التي تسمح بوجودي القانوني في فرنسا، فأنتم مخطئون.

ثانياً: لا شيء يبرّر قيامكم الآن بتفتيشي، فإنه لم يحدث مني أبداً أي
تكدير للأمن العام. ثم لماذا دائماً أنا فقط المقبوض عليه، ولا أحد آخر؟
لعلمكم أنا لست الملوّن الوحيد في هذا الحيّ، إذا كنتم لا تقبضون إلا
على الملوّنين. وأحبّ أن أذكركم بأن قانون الإجراءات العقابية، يمنع
مثل هذه الإهانات العلنية، وأؤكد لكم أنني سأكتب بذلك إلى وزير
العدل شخصياً، وإلى عدد آخر من رجال القانون في هذا البلد، وإلى
أساتذة كليّات الحقوق في الجامعات الفرنسية، وهم لا يمزحون في
مثل هذه المسائل.

ثالثاً: أحذركم أن موضوعي هذا سيكون الخبر الرئيسي، في
نشرة أخبار الساعة الثامنة على القناة الأولى، وهو الخبر الذي سيكون
موضوع الثرثرة السياسية دون تشفير، على القناة الخاصة + canal^(٤٢).
أنتم تهزأون بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان، في بلد يدّعي أنه أبو
الديموقراطية في العالم. في الحقيقة، إن أوضاع حقوق الإنسان، فيما
تسمونه أنتم جمهوريات الموز، قد يكون أفضل من أوضاع حقوق
الإنسان في فرنسا، إن مونتيكيو نفسه في كتابه روح القوانين ...

لم يتمكن الزعيم من إتمام مرافعته؛ إذ قام رجل الشرطة بثني ذراعه
خلف جسده، وإدارة هذا الجسد بحيث يصبح الرأس ملتصقاً بالحائط.

هنا صاح الجمهور المتجمّع في مواجهة الشرطة، قائلين إن هذا غير قانوني، لكنهم ظلّوا واقفين على الرصيف الآخر للشارع، الشارع الذي لم يعبروه إلى الرصيف المواجه، حيث تدور وقائع عملية إلقاء القبض على الزعيم، حرصًا من أفراد هذا الجمهور على البقاء بعيدين عن أيدي رجال الشرطة. أصبح الزعيم من جديد محور المناقشات، التي دارت في المقاهي والحانات طوال اليوم، وقام الناس باستعادة وترديد كلماته، في سوق ديجان شاتو روج.



(٨)

عندما فتحت باب شقّتي، جاءني (صباح الخير) من شخص يقف في الممر بين الشقق، في مواجهة عتبة بابي، قبل أن أعرف من هو، ثم أدركت أنه جاري أبّقراط! ما هو نوع الخمر الذي احتساه هكذا في هذا الصباح؛ حتى يحينني بهذه الطريقة الودودة؟ كيف تحوّلت مشاعره نحوي هكذا بين عشيّة وضحاها؟ هو لم يبدأنني أبدًا بالسلام من قبل. مأخوذًا بموقفه مني، قلت أنا أيضًا: «صباح الخير». أغلقت الباب وعدت إلى داخل الشقة أفكّر ماذا حدث؟ لتزجية الوقت^(٩٠) فتحت جهاز التلفزيون، على إحدى القنوات الأفريقية، هناك خبر عن احتمال قيام أحد الرؤساء الأفريقيين، بقتل أهم معارضيه باستخدام السمّ.

ذكرني هذا على الفور، بالطريقة التي تخلّص بها رئيس الكونغو الكبير من معارضه العنيد (موليكي نزيلا)، منذ حوالي عقدين من الزمان، وهو المعارض الذي كنا نقول عنه في ذلك الوقت، إنه هو الحاكم الفعلي للبلاد، رغم إقامته في أوروبا. من العجيب معرفة حجم شعبيّته الكبيرة في ذلك الوقت، ولن أقدم إليكم هنا إلا دليلًا واحدًا على شعبيّته الهائلة، فهو عندما كان يعقد اجتماعات أو لقاءات مع مؤيديه،

كان يقوم باستئجار أحد ملاعب كرة القدم، لأحد أندية الدرجة الأولى الأوروبية، لمدةً نهار كامل، بشرط أن تكون مدرّجاته كافية لاستقبال عشرات الآلاف من البشر.

إلا أن تعاسة وسوء حظّ هذا المعارض (موليكي نزيلا)، أو فلنقل غباءه، كان بسبب علاقته بواحدة من أهم قوّادات البلاد، وأجمل داعرة سابقة في البلاد، التي أهدي إليها ذات يوم سيّارة فيات ٥٠٠، فأصبح الناس يتندّرون عليهم، وقد أطلقوا على هذه المرأة لاحقاً لقب (ماما فيات ٥٠٠). إنها حقائق تاريخية، يحكيها الناس حتى الآن، في كل شوارع الكونغو الكبير والكونغو الصغير، بل إن التلاميذ يدرسونها في كتب مدارسهم.

(موليكي نزيلا) جاء متخفّياً عدّة مرّات إلى الكونغو الصغير، إلا إن العلاقات الطيّبة بين رئيسي الكونغو الكبير والصغير، جعلت (موليكي) يخاف؛ وبالتالي يخفي نفسه، أثناء وجوده في كليهما. وكان كلّ من الرئيسين يقدّم هداياه إلى الرئيس الآخر قائلاً له: «أنت تسلّم لي معارضي الأحق، الذي يصرخ بصوته الكريه من باريس نهاراً وليلاً؛ وأنا أسلّم لك معارضك الذي يلعب معك نفس الدور من بروكسل، مع أنه ليس لديه شعر في كيس خصيتيه».

ثم علمنا أن (موليكي) مات مسموماً، بمؤامرة وتواطؤ بين الدولتين، ولأن أهل البلد كرهوا الرئيس على فعلته تلك، فقد بحثوا له عن تسمية تليق به، أكثر مما تليق به تسميته القديمة (المهرّج)، التي كانت بسبب عويناته المستديرة، التي تجعله أقرب شبهاً بالمهرّجين،

حتى وجدوا له تسمية (ملك الحمقى). ثم ابتكروا له أغنية تتضمن هذه التسمية، حتى تذاع وتنتشر في البلاد، بشرط ألا يتم غناؤها في مكان عام بصوت مرتفع، لأن العقاب على هذا الجُرم، إذا ألقت الشرطة القبض عليك متلبساً، كان هو الإعدام بقطع الرأس.

إلا أن هذا لم يمنع انتشار الأغنية، وترديدها على كل شفاه. بل كان الناس يصفرون لحنها بأفواههم في الشوارع، دون غناء الكلمات تحايلاً على أو هروباً من عقوبة الإعدام، مثلما فعل مغني مدينة ست *Sete* الأشهر في جنوب فرنسا (جورج براسانس)، عندما اعترض الناس على كلمات أغنية فعزفها على الجيتار، وهو يصفر لحن كلماتها بفمه.

وحيث إن ملك الحمقى كان متأكداً من بقاءه على عرش البلاد حتى نهاية حياته؛ لأنه كان يؤمن باستحالة أن يستطيع أحد معارضيه أن يفعل ذلك، حتى إنه قال: «إن فكرة إزاحة شاه إيران عن عرشه كانت قابلة للتصديق أكثر من فكرة إزاحة رئيس البلاد عن منصبه»، لهذا كان يمكن لرئيس البلاد أن ينام ملء جفونه، فجميع أفراد الشعب سيتبعونه طائعين أينما ذهب.

ثم بانث الحقيقة كاملة، وعرف الجميع أن اغتيال المعارض (موليكي) لم يكن لأسباب سياسية؛ بل كان لأسباب تتعلق بالأعضاء التناسلية، فإن كلاً من رئيس البلاد ومعارضه كانا يعرفان (ماما فيات ٥٠٠) معرفة أكثر من جيدة، وهي من كانت تدير أكبر تجارة متعة في البلاد في ذلك الوقت، ويقع مقرها في قلب حيّ (ماتونج). وكانت لا تزال معتادة على تقديم نفسها هدية لكل الشخصيات الهامة في البلاد،

إلا أنها لم تكن هي نفسها مع الكل، فإن المرأة وفقاً لنفس المغني المشار إليه أعلاه، لا تتأود بنفس الطريقة مع بائع في محل، ومع رجل دين، ومع موظف حكومي، ومع رئيس جمهورية مدى الحياة، ومع معارض سياسي عنيد، فلكل منهم الطريقة التي تناسبه، وتستعملها معه (ماما فيات ٥٠٠).

كانت المشكلة تتعلق فقط بمسألة القدرة على تنظيم الوقت، بحيث لا تتعارض المواعيد، فيتقابل الرئيس مع المعارض في قاعة الانتظار. وكانت هي تجيد هذه المسألة التنظيمية. لكن ذات مرة أدى أحد الاختناقات المرورية، إلى اختلال هذا التنظيم الدقيق. فعادة ما كان ملك الحمقى، يأتي في وقت متأخر من الليل، بعد أن يتأكد من نوم زوجته، ومن أنها لن تسبب له أي إزعاج؛ إذ كانت تصرّ على أن يقصّ أظافر يديه وقدميه وينعم أطرافها بالمبرد، في كل مرة يبدي رغبته في النوم معها، رغم أنه من المعروف في البلاد، أنها لم تكن جميلة.

في ليلة الاختناق المروري تلك، ظنّ ملك الحمقى أنه شاهد عدوه اللدود، ومعارضه العنيد، يخرج من أحد أبواب مقرّ (ماما فيات ٥٠٠)، فدعك عينيه عدّة مرّات غير مصدّق، وعاد إلى رجاله الأربعة الثقات، المكوّمين خلف سيّارته في سيّارة أخرى حكومية عادية، المسلّحين حتى أسنانهم.

قال: سحقاً لكم. هل رأيتم ما أراه؟ هل رأيتم هذا الرجل الذي خرج من هذا الباب خلسة منذ لحظات؟ أليس هذا الرجل هو معارضي (موليكي نزيلي)؟

فأجاب رجال الشرطة الأربعة كما لو كانوا رجلاً واحداً: ”لا يا سيّدي الرئيس؛ لأن موليكى هذا يعيش الآن في بروكسل، ومحظور عليه الحضور إلى بلادنا، منذ سبعة عشر عاماً، ونحن لدينا هنا في العلبة التي نحفظ فيها بقفّازتنا، بالمرسوم الملكي، نقصد الرئاسي، الذي أصدرته معاليكم بهذا الخصوص“.

نظر الرئيس في المرسوم، فتعرّف على توقيعه الشخصي وقال: ”هذا حقاً هو توقيعي، ولكن مع ذلك هل أنتم متأكّدون من أن ذلك الشخص الذي رأيناه للتوّ، ليس هو معارضي اللدود؟“.

- نحن متأكّدون، وواثقون تمام الثقة مما نقول، لأن موليكى ابن العاهرة يعاني من مرض قاتل عضال في بروكسل، وليس لديه ما يدفع به مصاريف المستشفى هناك، وعلمنا أنه قدّم التماساً في سفارتنا ببلجيكا، يريد به أن يلتمس منكم، متشجّعاً بما هو معروف عنكم من طيبة قلب، أن تدفعوا عنه مصاريف تلك المستشفى، التي تتراكم عليه بمرور الوقت.

الرئيس: نعم لقد سمعت بهذه القصة من قبل، لكن ماذا أفعل في الأفكار الغريبة التي تخطر على بالي، هذا الأحقق لن يحصل على سنّيم واحد مني، وليس عليه إلا أن يموت في أوروبا، وأنا مستعدّ لدفع مصاريف جنازته، فهي على أي الأحوال ستكلّف الدولة مبلغاً أقل من مبلغ مصاريف المستشفى.

هنا انفجر رجال الشرطة الأربعة في الضحك، وقرّظوا الرئيس على حسّه الفكاهي كما ادّعوا، الذي يقدّم لهم دائماً الدليل - كما قالوا - على تمتّعه به. بعد لحظات توقّف ملك الحمقى عن الهذر، ثم أعاد الكرة

من جديد، كما لو كانت بعوضة مستنقعات قد قرصته فجأة، في نفس موضع القرصة السابقة.

- انظروا... انظروا... انظروا... لا... لا... لا... إن هناك شيئاً ما غير منسجم في هذه القصة، أنتم تريدون أن تقولوا لي إن هذا الشخص الذي أراه هناك ليس هو (موليكي)؟ لماذا إذن أسرع في الجري في الاتجاه الآخر عندما رأنا، قولوا لي إذن مَنْ يكون هو هذا الشخص الذي يهرب؟ أليس من أجل مثل هذه المعلومات، أنا أدفع لكم مرتباتكم التي جعلتكم أثرياء؟

أحد الرجال الأربعة، وهو أقصرهم قامة، كانت لديه دائماً الردود الجاهزة على كل الأسئلة، حاول تهدئة ملك الحمقى قائلاً:

الشرطي رقم ١: سيدي الرئيس، اسمح لي فقط أن أشير إلى أن هناك عشرات الفتيات في مقر إقامة (ماما فيات ٥٠٠).

الرئيس: وماذا تريد أن تقول بذلك؟ إنها تاجرة مجتهدة، وهذه هي البضاعة التي تقدّمها لزبائننا.

الشرطي: كما أن هناك الكثير من الفتيات، فإن هناك الكثير من الرجال المتردّدين على هذا المكان من أجل الفتيات. يأتون ويرحلون، يدخلون ويخرجون، من أبواب مختلفة حرصاً على السرية، فالمكان له العديد من الأبواب. وهذه المسألة تتكرّر طوال النهار والليل، سبعة أيام في الأسبوع.

الرئيس: نعم، ولكن ليس هناك إلا (ماما فيات ٥٠٠) واحدة. ثم

إنك تضايقني بذلك الحاد الذي تدّعيه، وباستعدادك الدائم بالردود الجاهزة على كل الأسئلة. هذه هي النتيجة المتوقّعة لقصر قامتك.

الشرطي: أقدم لك اعتذاراتي سيّدي الرئيس.

الرئيس: هل تعتقد أن حصولك على شهادة في العلوم السياسية، من إحدى الجامعات الأوروبية، هي التي ستجعلني منبهراً بك؟

الشرطي: لا أبداً يا سيّدي الرئيس.

الرئيس: هل تعرف أنني ذهبت إلى الهند الصينية؟

الشرطي: نعم يا سيّدي الرئيس، فكل مناهج التاريخ والجغرافيا، في المدارس الابتدائية والثانوية في عموم البلاد تذكر ذلك.

الرئيس: هل تعرف أن هناك متخصصين جادين في التاريخ الأوروبي، ذكروا في مؤلفاتهم أن كلاً من ديجول وخليفته بومبيدو، كانا يخشيان مواجهتي؟ هل تعرف أنه عندما أعطس؛ تصاب فرنسا كلها بأعراض دور برد؟

الشرطي: صحيح سيّدي الرئيس.

الرئيس: ثم إنني مللت من الرجال قصار القامة، مدّعي الذكاء من أمثالك، أنت مرفوت. وعليك أن تعيد إلى الرئاسة سيّارتك المرسيدس السوداء، وقصرك على ضفاف النهر.

متوجّهاً بحديثه إلى الثلاثة الآخرين: اعثروا لي فوراً على رجل من طوال القامة أيها السفهاء، ومن الأفضل ألا يكون حاصلاً على أي شهادة عليا في العلوم السياسيّة. أنا لا أطلب منكم القيام بأعمال سحرية، فكل

ما أطلبه منكم هو معرفة، من هو هذا الرجل الذي خرج للتو من هذا الباب المؤدّي إلى مقرّ (ماما فيات ٥٠٠)؟ فمن المفروض أنها تكون لي وحدي، وألا يشاركني فيها أي رجل آخر، فرغم كل شيء، أنا الرئيس. هل هذا واضح؟

وحيث إن الشرطي قصير القامة قد أصبح مرفوتاً؛ لذلك فإنه صمت تماماً، وظهرت الدموع في عينيه، لهذا قرّر أكبر الثلاثة الآخرين حجماً وأكثرهم طولاً، أن يجربّ حظّه.

الشرطي رقم ٢: سيّدي الرئيس، أنا ليست لديّ شهادة في العلوم السياسيّة، بالإضافة إلى أن طولي هو ١٩٣ سنتيمتر، فأنا إذن طويل القامة، وأنا ببساطة أريد أن أوكدّ لك أن (ماما فيات ٥٠٠) هي لك أنت وحدك، وهي لا تفعل هذا الشيء إلا معك أنت وحدك، ولا شخص آخر يجروّ على أن يلمسها، ولكنها في نفس الوقت رئيسة فتيات هذا البيت، وعليها أن تأكل كل يوم ثلاث وجبات، وأن تقدّم لكل فتاة من فتيات هذا البيت كل يوم ثلاث وجبات، وهذا طبقاً لنصّ دستور البلاد، الذي صغته معاليك بنفسك، بكل الحكمة والفطنة والروية، والمادة رقم ١٥ فيه تنصّ على (إن المواطنين والمواطنين، يجب أن يتصرّفوا بمعرفتهم للبقاء على قيد الحياة، دون انتظار أي مساعدة، من طرف الرئيس الأب المؤسّس للدولة).

قفز ملك الحمقي في مكانه قائلاً: إن صياغة هذه المادة رقم ١٥ بهذا الشكل سيّئة جداً، هل أنت متأكّد أنها في دستوري أنا؟ هل أنت متأكّد من أنني من صاغها؟

الشرطي رقم ٢: نعم سيّدي الرئيس، إنها موجودة في دستورك، هذا بالإضافة إلى المادة رقم ١٧ المعدلة لها...

الرئيس: اعفني من رأيك أنت يا مَنْ ليست لك شهادة في العلوم السياسيّة، لقد تذكّرت الآن أنك ذهبت إلى فرنسا للحصول على هذه الشهادة، ولم تتمكن من الحصول على أي شهادة من هناك، ومع ذلك أنت تجرؤ الآن على فتح فمك وانتقادي، وتكلّم عن تعديلات في قانوني الأسمى. هل أنا سألتك عن رأيك؟

الشرطي رقم ٢: لا يا سيّدي الرئيس.

الرئيس: إذن أنت مرفوت؛ حتى تتعلّم ألا تفتح فمك، إلا عندما تكون متأكّداً من أن ما ستقوله هو أفضل من الصمت. أنا أعرف دستوري، وأعرف قانون بلادي، لأنني أنا نفسي الدستور والقانون.

موجّهاً حديثه إلى الرجلين الشرطين المتبقّيين: لنعد إذن الآن إلى الأشياء الجادة، من هو هذا الرجل الذي لمحتة يخرج قبل قليل من عند (ماما فيات ٥٠٠)، إذا لم يكن هو (موليكي) معارضي السفية، المتآمر عليّ مع الخونة من البيض، الذين يحسدوننا على ألبا بلادنا، ويتقدونني على القنوات الأوروبية الموجهة؟

هنا تدخل أحد الحارسين المتبقّيين بخجل قائلاً: سيّدي الرئيس إذا سمحت لي.

الرئيس: ما هو مقياس طولك أولاً؟

الشرطي رقم ٣: ١٦٣ سنتيمتر، لكن يمكنني أن أصل إلى ١٦٧

ستتيمتر، لو ارتديت أحذية سالاماندر ذات الكعب المزدوج، التي تباع عند التجار اللبنانيين في وسط المدينة.

- ماذا لديك لتقوله بخصوص موضوع هذا الرجل، الذي اختفى من أماننا عندما شاهدنا؟

- في الحقيقة، إن (ماما فيات ٥٠٠) لديها هنا مشروع صغير مع الفتيات.

- ما علاقة كلامك هذا بموضوعنا؟

- ما أريد أن أقوله هو إن هناك زبائن كثيرين، لا يأتون إلى هنا من أجل (ماما فيات ٥٠٠)؛ بل من أجل الفتيات.

- لا أرى حتى الآن علاقة بين كلامك هذا وبين موضوعنا.

- هؤلاء الزبائن مضطرون إلى المرور كلهم، بالحجرة التي تجلس فيها (ماما فيات ٥٠٠) قبل خروجهم من البيت، ليدفع كل واحد منهم الثمن، مقابل الخدمة التي حصل عليها، فهم لا يدفعون مباشرة إلى الفتيات، ولكنهم يدفعون إلى رئيسة الفتيات.

- انتظر ... انتظر ... إذن أنت لست غيباً مثل الآخرين، بل في الحقيقة أنت أذكى واحد فيهم.

- شكراً سيدي الرئيس.

- إذن أنت تريد أن تقول، إن هذا الرجل الذي خرج للتو، هو زبون جاء إلى هنا من أجل فتاة أخرى، وليس من أجل (ماما فيات ٥٠٠) التي تخصني أنا وحدي؟

- تمامًا سيّدي الرئيس.

- بهذا يتغيّر الوضع تمامًا.

- سيّدي الرئيس دعني أقول لك، إننا يجب أن نكون حريصين جدًّا على السريّة في مثل هذا الموضوع، وعلى ألا نتأخّر كثيرًا هنا، حتى لو أننا نجلس في سيّارة عادية، ولا نجلس في إحدى سيّارات الرئاسة، فعلينا الآن إما أن نرحل من هنا على الفور، وإما أن تذهب سيادتكم للقاء (ماما فيات ٥٠٠).

- هذا صحيح تمامًا. كيف أنني لم ألحظ من قبل حجم ذكائك الذي تميّز به عن الآخرين؟ كيف لم ألحظ أنك موهوب إلى هذا الحدّ؟
- كان هذا على ما أظنّ بسبب قصر قامتي، وبسبب أن كل زملائي أكبر مني حجمًا، لهذا تصعب رؤيتي، خاصة وأنني أمشي دائمًا خلفهم.
- لماذا أخفيت عني ذكائك؟ لماذا تركت هؤلاء السفهاء يتكلّمون أمامي بأفواههم العفنة؟

- إنهم رؤسائي سيّدي الرئيس.

- إذن فمن هذه الدقيقة، أصبحت أنت رئيسهم.

- شكرًا يا سيّدي الرئيس.

- يجب عليّ الآن أن أذهب.

- تفضّل سيّدي الرئيس، وسنوفّر لك نحن كالمعتاد التغطية المطلوبة.

بعد تلك الليلة بعدة ليالٍ، عاد ملك الحمقى إلى نفس المكان، مع نفس

رجال الشرطة الأربعة، حيث عاش نفس الموقف من جديد. هذه المرّة تأكّدوا من أن الرجل هو (موليكي نزيلي)، الذي نجح في العودة إلى البلاد، مروراً عبر الحدود مع الدولة المجاورة. كان ردّ فعل ملك الحمقى قاسياً؛ إذ بدأ بعزل الأربعة من مناصبهم، ثم قرّر في لحظة غضب أن يتخلّص منهم بالقتل، دون تقديمهم إلى المحاكمة، وبالتالي دون أن يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم، بعد اتّهامهم بالتساهل في مسألة تتعلّق بأمن الدولة.

عندما عاد ملك الحمقى من جديد إلى نفس المكان، مع أربعة رجال شرطة جدد، غير أولئك الذين تمّ إعدامهم، كان الأربعة مكلفين كذلك بمهمّة نصب الفخاخ اللازمة، لإلقاء القبض على (موليكي)، في لحظة خروجه من حجرة (ماما فيات ٥٠٠). وهذا هو ما حدث فعلاً. هنا يجب أن أضيف معلومة إضافية، وهي عن كيفية التخلّص منه على الفور، بتكليفه ثمّ جعله يتلعّ كميّة من سمّ الشوكران، دون سجن هو الآخر، ودون تقديم إلى المحاكمة.

علّق رجل الشرطة الذي قدّم إليه السمّ قائلاً: «لقد جعلناه على الأقل يموت ميتة الفلاسفة». وكانت المعلومات التي تمّ تسريبها إلى الرأي العام في البلاد، هي أن المناضل البطل (موليكي نزيلي)، مات في مستشفى بروكسل، بعد صراع طويل مع المرض العضال. ثم أضاف البلاغ الرسمي، أن الرئيس بطيبته المعهودة تجاه أبناء البلاد، قد دفع من حرّ ماله، مصاريّف الجنازة الرسمية، ورفع بذلك هذا الابن البار، إلى مصاف الأبطال الثوريين.

الفصل الرابع

(١)

لم تكن هذه هي نهاية المفاجآت مع الأستاذ أبقرط، إذ جاء ذات يوم طارقاً بابي، وداعياً إياي إلى مقهى (ملك المقاهي)، قائلاً إن لديه شيئاً مهماً يريد أن يسرّ لي به. تبعته لأنني كنت أسمع صوت لويس فيليب وهو يقول: «ضروري أن تمّد لجارك هذا يدك»، مع أنني لا أتخيّل ما الذي يمكن أن يقوله أحدنا للآخر. تركته يتكلّم دون أن أقاطعه، كما اعتدت على أن أفعل مع عربي الناحية. اتخذنا مكاناً داخل المقهى، غير بعيد عن شرفته. لاحظت أن الأستاذ أبقرط لم يكن مستقراً فوق كرسيه، كما لو كان لديه نمل في ساقيه.

بعد تسليك حنجرته قال: أنا لست ضدّك، ولكنني دعوتك اليوم لأنني حلمت حلمًا سيئًا بخصوصك؛ لقد شاهدتك وأنت تدهسك سيّارة، لحظة خروجك من محطة قطارات الشمال، وكان كلّ الناس يمرون إلى جوار جسدك الملقى على الأرض ولا يتوقّفون، وكان مروري من هناك بالصدفة، لكنني عندما تعرّفت عليك، وكنت لا تزال تتنفس، رفعتك على كتفي لأذهب بك إلى مستشفى لاريوازيار. لكن الوقت كان قد فات، لأنك نذت دمًا كثيرًا، وهكذا وجدتكَ جثّة هامدة،

وقد توقّف تنفّسك بين ذراعيّ. إنها المرّة الأولى في حياتي، التي أبكي فيها بهذا القدر من الدموع، وقد أدركت أن الموت قريب منا جميعاً، ولم أعد أريد أن أذهب إلى السماء، وأنا بيني وبين أي شخص سوء تفاهم، لذلك جئت بك إلى هنا، لأطلب منك أن تسامحني على كل ما قد أكون أسأت إليك به منذ أصبحنا جيراناً، وأنت إذا متّ اليوم أو غداً، تذكر أنني اعترفت لك بذنبي وندمت عليه، وطلبت منك أن تسامحني، وأنتك سامحتني.

الآن، وقد ذكرت لك كلّ هذا، أريدك أن تعرف أيضاً من أنا، وكيف كنت أفكر أثناء حياتي، لأنني أعرف أنك ستموت بعد وقت قصير، فأحلامي عادة ما تتحقّق. أنا رجل طيب ومستقيم، وكما ترى فأنا لست أسود البشرة تماماً، بل يقولون عن هذا اللون إنه أسمر داكن، وليس أنفي أفتس كما هي عادة حال أنوف الزوج. بالمناسبة أنا أعتقد أنه بين زوج أفريقيًا، هناك الكثير من أصحاب النفوس الضعيفة، الذين غالباً ما يبالغون في وصف الظلم الذي عانى منه الأفريقيون، منذ زمن تجارة العبيد، ثم زمن الاستعمار الأوروبي، في حين أنه عند مجيء الأوروبيين إلى أفريقيا، كان الإنسان الأفريقي لا يزال يعيش في حالة من الهمجيّة المتوحّشة.

هذه الهمجيّة المتوحّشة، لا تزال إلى الآن ظاهرة واضحة في البلاد الأفريقية؛ بدليل العنف الشديد الذي يحدث مع كل اضطراب سياسي، وهو بالتحديد ما يمنع هذه الشعوب الأفريقية البائسة، من الانتماء إلى الحضارة البشرية الحديثة. أنا أحب فرنسا، وأحب النساء البيض،

وأحب لحم الخنزير. فإذا كنت أظْهر مشاعر الغضب تجاه الأفريقيين، فإن غضبي هذا ليس موجَّهًا إليك أنت بالتحديد، بل هو موجَّه إلى الأفريقيين، الذين يستمرّون في انتقاد الحركة الاستعمارية الأوروبية لبلادهم، ولا يرون حجم الفائدة التي استفادتها الشعوب الأفريقية من الأوروبيين.

لكنك أنت مختلف عنهم، وكأنك لست أفريقيًا مئة بالمئة، وقد احتجت إلى وقت طويل حتى أدرك أنك مختلف. لقد كنت أنا مخطئًا جدًّا عندما كنت سخيًّا معك، وعندما كنتُ أحاول أن أصعب عليك حياتك. بالمناسبة ألا ترى معي أنه لا يمكن لأي شخص ألا يحب الاستعمار الفرنسي، الذي جعل نصف رجال الشعوب الأفريقية يذهبون إلى باريس، ويتعرّفون على النساء البيض من شقراوات الشعر أو حمراواته، ويحتسون النبيذ، ويأكلون لحم الخنزير. يجب أن تكون أمينًا معي ومع نفسك، عند الكلام بخصوص هذه المواضيع.

مرّ نادل وضع أمامنا فنجانَي قهوة. فنظر إليه أبقرط على الفور نظرة نارية، كما لو كان هذا النادل قد ارتكب جرماً في حقّ الإنسانية.

قال: أيها السيد النادل ماذا تقدّم لنا هنا؟ لقد طلبت كأسين من الكونياك، ولم أطلب بول قطّة برّية هذا الذي تدّعون أنه قهوة. منذ سنوات وأنا آتي إلى هنا، هل رأيَني مرّة واحدة أشرب هذا البول؟ هزّ النادل رأسه آسفًا على الخطأ الذي وقع فيه. يبدو أنه يعرف الطبع الناري للأستاذ أبقرط. ذهب بالقهوة وعاد بالكونياك.

قال: وقطع الثلج أين هي؟ لماذا أنت نائم هكذا؟

ذهب النادل، وعاد بطبق فيه قطع ثلج.

قال له: لن تكون لك إكرامية اليوم.

ثم قال لي: هل رأيت هذا النادل. أنا مصمم منذ فترة على ضرورة فصله من هذا العمل. انظر إلى شعر رأسه المجعد، هل يصح تشغيل نادل هنا في ملك المقاهي، برأس وشعر مجعد جديرين بشخص زنجي؟ احتسى كأسه في جرعة واحدة، قبل أن يستأنف.

قال: يبدو أن هناك سودًا ناكري جميل، يطالبون بتعويضات عما يدعون أن بلادهم قد خسرتها بسبب الاستعمار الأوروبي. يجب ألا نخطئ في معرفة مع من هي معركتنا، أنا أقول لكل الأفارقة، إنكم قد كسبتم الكثير من الإرث الحضاري، الذي تركه لكم المستعمر في بلادكم. إن الاستعمار في الأساس هو العمران والتعمير، إنه دفقة من الكرم الأوروبي، قدّمت لشعوب بائسة، إنه مساعدة حضارية لشعوب عاشت طويلًا في الظلمات. ذهب المتحضرون الأوروبيون إلى بلاد أفريقية؛ لنجدة أهلها المتوحّشين الذين كانوا لا يزالون، يعيشون فوق أغصان الشجر، ويهرشون أجسادهم بأظافر أقدامهم مثل القروء، ويأكلون لحم بعضهم بعضًا.

قال: إن أفضل مستعمرين هم البلجيكيون، فقد استتب النظام تمامًا في الجزء الذي كانوا يحكمونه من بلاد الكونغو، رغم ما قد يراه البعض في أفعالهم هناك من قسوة، إذ كان من السهل عليهم قطع الأيدي لمن يسرقون، وقطع الرؤوس لأي ذنب آخر أكبر من السرقة، ودون أي إجراءات قضائية؛ إذ كانت أحكام القطع تصدر هكذا في

لحظة. ثم نجح البلجيكيون في تعليمهم فضيلة الصمت، بعد أن كانوا معتادين على الكلام، الكلام، الكلام، دون أن يكون لما ينطقونه أي معنى. أحضر لهم البلجيك الحضارة إلى أبواب ديارهم، وهم يقابلون هذا الكرم، بالصراخ بأصوات كريهة على عادة الزنوج.

قال: وما جعل الكيل يطفح هو أن هؤلاء الزنوج ناكري الجميل، تعلّموا كلمة جديدة، كانوا حتى وقت قريب يخطئون في هجائها عند كتابتها، وهي كلمة (الاستقلال)، وهنا ظهرت في تاريخهم شخصية (باتريس لومومبا)^(٢٣)، الذي أراد أن يستقل بالبلاد، وفضّل الشعب أن يختار (موبوتو) بدلاً منه، ذلك العسكري الشجاع برتبة رقيب، الذي دخل سجل عظماء هذا القرن.

قال: لحسن الحظ، حدث أخيراً تصويت في الجمعية الوطنية في باريس، لإصدار مرسوم يعيد تقييم الفترة الاستعمارية، ويعطيها ما لها من فضل، بعد أن كان الزنوج الذين على درجة عالية من سواد البشرة، يريدون تلطيخ كل ما هو جميل في تاريخ فرنسا باللون الأسود، حتى الحقائق التاريخية التي لا يمكن إنكارها. أتمنى أن يفهم رؤساء أفريقيا هذا المرسوم، وأن يعيدوا على ضوئه تأليف كتب التاريخ التي يدرسها تلاميذهم في المدارس.

قال: هذا هو نفس الشيء الذي حدث مع الشعوب الأفريقية، في البلاد التي كان يحكمها رجال قليل عنهم إنهم مستبدون، في حين أن هذا الاستبداد كان مطلوباً، في فترة حكمهم الحرجة تاريخياً، مثل من يسمّى الديكتاتور (عايدي أمين) في أوغندا، أو حكم الحزب الواحد في

زمن (موبوتو) في الكونغو، أو انتشار معسكرات تعذيب المعارضين حتى الموت على زمن (سيكوتوري) في غينيا، كل هؤلاء هم الأبطال الحقيقيون لأفريقيا، كلهم كانوا من العباقرة، ثم إنني لا أتحدث هنا إلا عن المستبدين الذين ماتوا، فأنا لا أريد خلق مشاكل مع المستبدين الأحياء. أردت أن أدلي بدلوي في هذا الحديث الأحادي (المونولوج) الطويل، لكنه لم يسمح لي بالكلام، فهو أيضًا يمارس الاستبداد على شخصي الضعيف.

قال: أنت ستموت قريباً؛ لذلك يجب أن تسمع ما أقوله لك بانتباه. لقد طلبت منك أن تأتي معي إلى هنا لاحتساء كأس؛ حتى تعلم أنني لم أكن أقف ضدك أنت، فأنا لا أريدك أن تحكي عن أشياء غير حقيقية فوق أمام الله؛ لذلك أرجو ألا تقاطعني عندما أتحدث، فهذا يزعجني جداً. أنت اعتبرتي دائماً من بين الحمقى، بل حتى من بين المتعصبين عرقياً. أليس كذلك؟

قال: قد لا تعلم أن سود أفريقيا هم المسؤولون عن بيع جزر الأنثيل للمستعمرين البيض. قد تكون أيضاً لا تعلم أن من بدأ تجارة العبيد هم أنفسهم من السود. اسأل نفسك هل كان البيض عندما نزلوا أرض أفريقيا لأول مرة يعرفون أين يتجهون في الغابات للعثور على السود؟ لقد استعان البيض برؤساء القرى من السود، للاستدلال على الأماكن التي يختبئ فيها الشباب الأسود من أقوياء البنية، من بين من يصلحون للعمل الشاق في حقول أمريكا. لماذا لا تتحدثون أبداً عن هؤلاء السود المتأمرين مع البيض؟

قال: اتركوا الغرب في حاله، عليكم أن تتوقفوا عن لوم الشعوب الأوروبية، التي ترونها مدانة على طول الخط، كأن كل شعوب العالم الثالث هي من أفراد من الملائكة السماويين. لم يعد يمكن لأي غربي أوروبي أو أمريكي، أن ينتقد السود بأي شكل، ولا حتى أن يذكر لون بشرتهم عرضاً في حديثه، بينما لا يتوقف السود عن اتهام الغربيين بأنهم عنصريّون؛ فقط لأن الغربيين يريدون تطبيق قوانين بلادهم على السود الذين يقيمون فيها. هؤلاء السود لم يعتادوا أبداً على احترام أي نظام في البلاد السوداء التي وُلدوا فيها، ولم يدرسوا في مدارسهم القوانين المدنية، مثل كيفية احترام الجيرة، والأملك العامة، والشوارع، ووسائل المواصلات؛ لذلك هم يجدون صعوبة في التأقلم مع القوانين المدنية للبلاد الغربية.

قال: يمكنكم أن ترتدوا ما تشاؤون من ثياب، يمكنكم حتى أن تلعبوا على آلة الطمطم في البيوت أيام الأحاد، لكن عليكم أن تعترفوا، قبل كل شيء، بأنكم دون الاستعمار ما كان لكم أن تصبحوا على ما أنتم عليه الآن. وأنا لا أريد أن أكون من الآن فصاعداً، متهماً بأنني عنصري ضدّ السود. ولا أريد أن أسمع منكم المزيد من تلك الحكايات المضحكة، عن كيف أن السود أفضل من البيض، لأنهم بطبيعتهم أقوى جسمانيّاً، وأنهم لذلك أفضل من البيض في القدرة على تحمّل الصعاب.

قال: لكن لتكلّم بصراحة، والآن قل لي ما الذي لديكم أفضل من البيض؟ أحياناً يبدو لي أن كل ما يقصده السود، من كونهم أفضل جسمانيّاً من البيض، هي أن أغلب الرجال السود لديهم أعضاء أكثر

طولاً من أعضاء الرجال البيض. هذا هو كل ما في الموضوع. لكن دعني أقول لك إنكم حتى من هذه الناحية ستخسرون القضية، فإذا كنتم تعتقدون أنكم بهذه الأداة، ستجذبون إليكم شقراوات الشعر وحمراواته، فقد ظهر مؤخراً كتاب لمؤلف أسود فضح فيه العقلية السوداء، وذكر فيه أن الحقيقة بعيدة تماماً عن كل هذه الادعاءات، وأن الرجال السود ليسوا دائماً على هذه الدرجة من الجاهزية، وأن حكاية العضو الفائق الطول، ليست إلا أسطورة مثل تلك التي تقول: إن الأطفال يولدون داخل ثمار الكرنب.

قال: المشكلة هي أن الزوج يبحثون دائماً عن سبب لذرف الدموع، وبعد أن أنهوا المتاجرة بقضية التاريخ الاستعماري لأوروبا في أفريقيا، اتجهوا نحو المتاجرة بقضية تسهيل الأوروبيين لبيع زنوج أفريقيا كعبيد إلى الولايات المتحدة الناشئة، وبعد أن أنهوا المتاجرة بهذه القضية، إذا بهم يتجهون إلى قضية تبادل الاتهامات بين البيض والسود، حتى بدأ السود في تصوير البيض على أنهم شياطين سوء وذئاب بشرية، في حين أن السود هم ملائكة رحمة وحملان وديعة، لكن الحقيقة هي أنكم مذنبون، منافقون، متآمرون، وتستمتعون بتعذيب ذواتكم إلى حدٍّ مَرَضِيٍّ.

بدأت أتساءل إلى ماذا يريد أن يقودنا هذا الحديث الطويل الواضح التشتت للأستاذ أبقرات، الذي لم يمكنني أبداً طوال ساعة من الزمان، من التعليق ولو بكلمة واحدة. لكنني قلت في نفسي ينبغي أن أتركه يفرغ كل ما في جعبته، التي كانت تبدو جدّ ممتلئة عن آخرها. ثم طلب لنا كأسين آخرين من الكونياك.

قال: أتوقع أن تقول في نفسك، إن هذا الشخص تشويه علة ما، لكن لا تتسرع في حكمك عليّ. أنا لا أقول هذا الكلام إلا عن أشياء عرفت بها بنفسي، وأؤكد لك أن الاستعمار كان أكثر إيجابية بكثير مما يظن أغلب الأفريقيين، وكانت إيجابياته أكثر من سلبياته. وأنا إلى حد ما أعرف أفريقيا، فأنا أشتري المؤلفات الأفريقية من مكتبة الستارة الحمراء، وهي التي عن طريقها عرفت الكاتب الكاميروني (فرديناند أويونو)، الذي قرأت له كتبه: (الزنجي العجوز) و(حياة خادم زنجي) و(الوسام). كما قرأت لكاميروني آخر هو (مونجوبتي) كتابيه: (مدينة قاسية) و(مسيح بومبا المسكين).

قال: هل تعرف أن أحد الكتاب السود قد حصل على جائزة الجونكور الأدبية الفرنسية؟ هل تعتقد أن الفرنسيين لو كانوا فعلاً عنصريين، كانوا اهتموا بتقديم جائزة أدبية إلى كاتب ليس في كتبه إلا النقد الشديد لكل ما هو فرنسي؟ هذه هي اللعبة العادلة (بالإنجليزية في النص *fair game*)، فالمستعمرون يقبلون كل هذا النقد من كاتب أفريقي، في حين أن الحكام المحليين، الذين هم من أفراد نفس الشعب الذي يحكمونه، لا يقبلون مجرد حوار.

قال: هناك (شاكازولو)، الذي ادّعى أن فكرة التعذيب هي بدعة بلجيكية، وأن كل وسائل التعذيب هي مستوردة من بلجيكا، وأن أساليب الضرب بالسياط أو الاغتصاب، أو القضاء التام على بعض القبائل عن بكرة أبيها، هي ممارسات لم تكن معروفة في الكونغو، قبل الاستعمار البلجيكي. هل تصدّق أنت هذا؟ وإذا كانت وسائل التعذيب هذه هي

بدعة بلجيكية، استعمالها الأجانب الأغراب، لماذا استمر شاكازولو في استعمالها لتعذيب أفراد شعبه؟ هو كان يردّ على المنتقدين الغربيين قائلاً، إن الكونغو هي ملكية خاصة له، لا يحق لأحد أن يتدخل في شؤونها، وهو ما سبق أن قاله بالحرف الواحد ملك بلجيكا ليوبولد الثاني قبل قرن من الزمان.

قال: أما كتاب المؤلّف (إيمي سيزار) الذي لا يتعدّى حجمه ٥٩ صفحة، الذي يحمل عنواناً (مقال عن الحركة الاستعمارية)، وأراد به فضح الاستعمار، وفقاً لتعبيراته هو، وكان منشوراً سنة ١٩٥٩، في دار نشر (الوجود الأفريقي)، فأنا لا أريد أن أتحدّث عنه كثيراً، حتى لا أصاب بحالة الغضب التي أصابتنى إثر قراءتي الأولى له، وحتى أتوقّف عن كراهية هذا النوع من الزوج، الذين ينكرون فضائل المستعمر، لم يكن يحق له أبداً كتابة مثل هذه الأشياء. لقد كتب بوضوح (لا أحد كان يستعمر من أجل أغراض بريئة، لذلك يجب معاقبة كل مستعمر ارتكب هذا الجرم. وأي حضارة تبرّر أن تفرض دولة وجودها بالقوة على الآخرين في بلادهم، فهي حضارة مريضة، أصابها الوهن الخلقي، وسيظهر فيها حتماً لا مفر، هتلر جديد يجعلها تدفع ثمن تربيها الأخلاقي).

قال: أنا أبحث منذ مدّة عن مصادر هذا الكاتب، التي أوصلته إلى مثل هذه الأحكام المتعسّفة، وهذا السيزار فرانك لن يجعلني أغيّر رأيي. في ذلك العام الذي صدر فيه هذا الكتاب ١٩٥٩، لم يكن هناك أي زنجي يستطيع أن يواجه أي غربي في أي حوار؛ فلم يكن الأفارقة قد تعلّموا بعد هذه الواقعة. فليسعدوا إذن بملوكهم الحاليين، في ملكيّاتهم الرئاسية،

حيث لا يعرف أي ملك أو رئيس من هؤلاء، قواعد المائدة أو آداب تناول الطعام؛ فتجدهم يتكرّعون بأصوات مرتفعة، ويصدرون أصوات خروج الغازات من مؤخراتهم، دون مراعاة لأي شخص.

قال: إن أي بلد أفريقي في نهاية الحقبة الاستعمارية، كانت الأنظمة الإدارية فيه مستتبّة تمامًا، وكان الموظفون الحكوميون من أهل البلاد يقبضون مرتباتهم في اليوم الأول من الشهر. ثم إنهم كانوا يقدّسون الرجل الأبيض، صاحب الأفضال عليهم، حتى إنه لانتقال رجل أبيض واحد، كان يجلس على محفّة، يحملها اثنا عشر رجلًا أفريقيًا على أكتافهم، حتى لا يتسخ حذاؤه بطين الطريق. ثم أين كان يمكن شقّ الطرق التي تسمح للسيّارات بالسير عليها؟ بين أشجار الغابات وحيوانات فرس النهر؟ لا أريد أن أنصت إلى هذا النوع من هراء الأسئلة، لو أنه كان في نيتك أن تطرحها عليّ.

لقد أدرك أبّقراط أنني لم أعد أركّز معه، منذ وصلت تلك الفتاة التي استقرّت في شرفة المقهى قبل بضع دقائق.

قال: هذه هي تعاسة الأفريقي، أن تهمل أبّقراط؛ لتضع عينيك على فتاة تجلس في الشرفة.

ثم وقف في مكانه، واتجه مشيًا إلى الفتاة، ووقف إلى جوارها، وظلّ يتحدث إليها طوال خمس دقائق. ثم عاد إلى الجلوس إلى جوارها، وقد لاح الغضب في وجهه.

قال: هل تعرف ماذا كانت تنوي أن تفعل تلك الفتاة الهجين؟ كانت ستشعل سيجارة. أخبرتها أنه عليها ألا تفعل، لأنها لو فعلت فعلها أولاً

أن تغادر هذا المكان. ماذا كانت تعتقد هي في نفسها؟ إنها فوق القانون. ثم كأنه يستأنف الحديث الذي انقطع.

قال: كانت المدارس منذ زمن جول فيري^(٩١)، هي حائط صدّ ضدّ الهمجية والتعصّب الديني؛ لأنها كانت تمنع أطفال الجاليات الأجنبية، ومن بينها الجاليات الأفريقية، أن يتحدّثوا فيما بينهم بغير اللغة الفرنسية، أو أن يمارسوا أو حتى يشيروا إلى ممارسة أي طقوس دينية. بهذا فقد أصبح أسلافكم من أطفال أفريقيا، مواطنين فرنسيين كاملي الأهلية.

قال: هل تعرف أن أجدادك، حتى زمن ولادتك أنت، كانوا يستعملون الزيوت الصخرية^(٩٢) في علاج الأمراض، فجاء المستعمر وشرح لهم كيف أن هذا الزيت الأسود يضرّ بصحة كل أجهزة الجسم، وأنه لا يصلح إلا كوقود، وبالتالي قدّم لهم بدلاً منه الأدوية الحديثة المصنّعة كيميائيًا.

قال: لا يجب أن تصدّق كلّ ما رواه الكتاب السود، عن الزمن الاستعماري الذي لم تعيشه أنت، فلم تكن المدينة الأفريقية في زمن المستعمر، إلا مدينة حديثة صنعها المستعمر على غرار مدنه الأوروبية، ولم تكن على هذه الدرجة من القسوة التي يصفها كتّابكم، حتى إن الأفريقي الذي عمل خادماً لدى العائلات البيضاء، كان يتعلّم منهم كل يوم شيئاً جديداً. ألم يكن هذا لمصلحتكم؟ أليست حياتك هنا الآن، أفضل من حياتك لو لم تكن الكونغو قد أصبحت مستعمرة فرنسية؟ لأنك هناك كنت ستصبح إمّا صائد حيوانات، أو بالكثير ساحر أصنام وتعاويز.

قال: لم يكن لدى السود أي شيء قبل وصول البيض، لم يكن لديهم إلا الفراغ والهباء والفوضى والاضطراب. حتى لو وجدت من يحدثك عن مدينة (تيمبوكتو) *Timbuktu*^(٩٣) التي يقول السود عنها الأساطير، عندما وصفها الرحالة الأوروبيون البيض في القرن التاسع عشر، لم يجدوا إلا بعض المباني بزخارف محفورة على واجهاتها، هذا هو كل شيء، فلم تكن هناك أي مظاهر حضارية أخرى، ولم يكن هناك لدى السكان أي حسّ أو روح تدلّ على حضارة أو ثقافة، ولم تكن هناك أي أنظمة سياسية أو اجتماعية مستقرّة.

قال: لم يكن على الأفريقي الذكي إلا أن يضع على بشرته السوداء قناعاً أبيض، ويدّعي مثلي أنه أوروبي مثل الأوروبيين، يكذب الكذبة ويصدّقها، هذا هو كل ما في الموضوع. ولم يحدث أبداً أن ندم أحد على هذا الاختيار.

قال: فرنسا لم تبخل أبداً على أوائل الأفريقيين، الذين وصلوا إلى فرنسا كجنود متطوّعين في الحرب العالمية الأولى، فمن مات منهم صرفت لأهله المعاشات، ومن عاش منهم حصل على الأوسمة نفسها التي حصل عليها زميله الجندي الفرنسي. هؤلاء الجنود حصلوا على أعمال مدنية، واستقروا في المدن الفرنسية، وأحضرُوا آباءهم وأمّهاتهم من البلاد.

قال: سأتوقّف عند هذا الحد، وأنا لا أعرف إن كنت أنت قد أدركت ما أردت قوله لك. الخلاصة هي أنني لست ضدّك أنت شخصياً، بل أنا ضدّ ناكري الجميل من سود أفريقيا. ولك أن تأخذ هذا الكلام لك،

وتعيد التفكير فيه، أو أن تتركه هنا وتخرج دونه، أو أن تلقيه في مقلب القمامة. أنت حرّ التصرّف تمامًا. بدءًا من اليوم، ولأنك ستموت قريبًا؛ دعنا ننسى العداوة، ونبدأ علاقة صداقة، تعال لزيارتي كلما رغبت في مناقشة هذه الموضوعات معي. أنا أعرف بموضوع هروب زوجتك وطفلتك مع الهجين عازف الطمطم، وأنصحك بنسيان هذه الحكاية، والعثور على رفيقة حياة جديدة، من الأفضل أن تكون بيضاء؛ حتى تصالحك مع ماضيك.

ثم أخرج ورقة نقدية من جيبه، ووضعها على المائدة، فأعاد إليه النادل بعض العملات المعدنية من فئة العشرة سنتيمات، التي وضعها على الفور في جيبه، قائلاً للنادل: «لقد نبّهتك أنه لن تكون لك إكرامية اليوم، لماذا إذن تظّل واقفًا أمامي هكذا مثل الأبله؟».

ثم قال: أنصحك بقراءة كتاب (ضرورة استعمال العنف)، وهو للمؤلف (يامبو أولوجيم)، على الأقل هذا هو أستاذ حقيقي، لذلك وقف العالم كلّ ضده، فعندما تظهر عبقرية حقيقية؛ تجد أغلب الناس يحاولون تحطيمها.



(٢)

ذات مرة حدث في جيبس الموقف الذي سأحكيه لكم هنا. لم يكن أغلب أصدقائي قد وصلوا بعد. في ذلك اليوم لم تكن لديّ رغبة في الكلام، وكنت عائدًا من المشوار الشهري الذي أذهب فيه إلى بوابة (بورت دو لا شايل)، حيث أقرب فرع (ويسترن يونيون) لي؛ لأرسل إلى اللون الأصلي في البلاد، المبلغ الشهري المتفق عليه، لصالح غذاء وكساء ابتنا (هنرييت). هذا المبلغ يسمّونه (نفقة الإعاشة). طلبت زجاجة جعة وجلست، ولاحظت أن رجلًا أبيض كان يجلس خلفي، وقف في مكانه ومشى مقتربًا مني. عرّفني بنفسه قائلاً إنه من إقليم بريتانيا^(٩٤)، ولكنه يحب كل ما هو أفريقي، وإن كل البريتانيين يحبّون أفريقيا، وجلس على المقعد إلى جوارِي.

لاحظت على الفور أنه هو الآخر، من المغرمين بمتابعة مؤخرات الفتيات العابرات، على الرصيف أمام شرفة الحانة. فجلسنا معًا بلا كلام، نظر إليهنّ أثناء مرورهنّ. وجدت نفسي أبدأ في شرح الكيفية التي بها يمكن الحكم على شخصية الفتاة، من شكل حركة مؤخرتها. فجأة لا أعرف كيف حدث تغيير في اتجاه الحديث، وبدلاً من الاكتفاء بإمتاع

البصر، بدأنا نتكلّم في السياسة. وقد ارتبط هذا التحوّل في الحديث تقريباً، بلحظة مرور مجموعات سياحيّة من الإيطاليين والأمريكيين، أمام شرفة الحانة.

قلت: هناك جواسيس في كل مكان؛ حتى إنه أصبح من الخطر الحديث في السياسة، في مشرب مع أشخاص لا نعرفهم.

قال: وهل أنا لدىّ في رأسي ملامح الجواسيس؟

نظرت إليه جيّداً لأكتشف أنه طبق الأصل، من ملامح الأخوين التوأم (دييون)، اللذين كانا يظهران، في مغامرات تان تان المصوّرة للأطفال، على أنهما شرطيّان سريّان (تيك) و(تاك). هو بنفس الرأس الأصلع، وبنفس الشوارب، وبنفس الملابس الداكنة اللون. فوجئت بحركة تدلّ على طابع سخيّ، فلقد دفع لي ثمن الجعة التي أحسيتها.

قال: أريد فقط أن أعرف منك كأفريقي، كيف يحكم الأفريقيون على الأحداث في عالمنا المعاصر.

هنا سأنتقل في حديث طويل، بعد الانتهاء منه سأقول في نفسي، إن هذا الرجل سيظلّ طوال حياته يتذكّرني، كأحد أكثر الرجال ثروة من بين كل من قابلهم في حياته. لم أعد أهتم بفكرة أن يكون جاسوساً مدسوساً عليّ من قبل السلطات الفرنسية، بسبب أوراق إثبات شخصيتي التي ليست لي.

قلت: أنا من الكونغو الفرنسي الصغير، بمساحة ٣٤٢ ألف كيلومترا مربّعاً، وليست لدينا إلا نافذة صغيرة جدّاً من بضع عشرات

من الكيلومترات على المحيط الأطلنطي، ولدينا أحد أكبر أنهار أفريقيا والعالم، ولا ينبغي الخلط بين بلدنا، وبين بلد آخر في مواجهة بلدنا، أكبر منا مساحة بسبع مرّات على الأقل، هو الكونغو البلجيكي، الذي كان ملكية خاصة لملك بلجيكا.

قال: تاريخيًا وجغرافيًا، أنتمّا دولة واحدة، فلا مجال لأن تصنع من هذا الموضوع مادة للخلافات بين الكونغوليين.

قلت: لا يجب الخلط بين هذين البلدين؛ وإلا فإنني سأغضب، فأنا أعرف جيّدًا جدًّا تاريخ الصراع بين فرنسا وبلجيكا كدولتين استعماريّتين، والطريقة التي اقتسما بها الكونغو، وقد كادت هاتان الدولتان في ذلك الوقت أن تدخلا حربًا، من أجل أن تقوم كل واحدة منهما بتمزيق أحشاء الأخرى، لولا الوساطة الدولية، وعقد مؤتمر برلين، الذي نجح في تهدئة الأمزجة الشرسة المندفعة نحو القتال. أنا لم أكن قد وُلدت بعد عندما وقف الفرنسيون على إحدى ضفّتي نهر الكونغو، في حين وقف البلجيكيون على الضفّة الأخرى المواجهة لنفس النهر، وبدأ الفريقان في تبادل السباب والشتائم. الوضع الحالي هو أن كل بلد له خصوصيّاته.

قال: أنتم راضون إذن بهذا الوضع، أن يبقى كل طرف في الأرض التي تخصّه، وأن يقوم كل طرف راضيًا بزرع حديقته الخلفية؟

قلت: إن أسلافك هم من اتخذوا قرارًا، وضعوا لنا به هذه الحدود، ولست أنا من سيعارض هذا القرار، الذي يبدو لي الآن حكيماً. لكني مثلاً وافقت بشدّة على قرار [الكونغو الجنوبي البلجيكي الكبير]،

الذي أطلق على نفسه اسم جمهورية (زائير)، ثم اعترضت عليه بشدة عندما عاد في كلامه، وقرّر العودة إلى استعمال الاسم القديم (الكونغو الكبير). لا أحب مثل هذه الأفعال المترددة؛ فهذا يؤدي إلى المزيد من الخلط والارتباك. فعودتهم إلى اسمهم القديم، هو الذي جعلني مع كل مواطني، نعود إلى استعمال التعريف القديم، وهو أننا من [الكونغو الشمالي الفرنسي الصغير].

قلت: هل تعرف ما هو معنى ما نطلق عليه نحن اسم الثورة الأفقية؟ الثورة التي يكون طرفاها منبطحين أرضاً، أو على الفراش في وضع أفقي؟ لقد حدث ذات يوم أن غزتنا في الشمال، جحافل نسائية قادمة من الجنوب، عبرت هذه الجحافل النهر، واستقرت في الشمال، ولم تكن أولئك النسوة إلا الفتيات العاملات في الدعارة، وفي العروض الاستعراضية الراقصة في الملاهي الليلية، اللائي سمعن عن زيادة قيمة العملة في بلدنا CFA (فرنك أفريقيا الوسطى) عنها في بلدهنّ، حيث كانت العملة التي أسموها (زائير) على اسم بلدهنّ، التي كنا نرى عليها صورة رئيسهم حامل اللقب مدى الحياة، تنهار تماماً مع كلّ إشاعة بوقوع انقلاب عسكري، أو بإصابة وزير ماليّتهم بمرض السيلان؛ فقرّر عبور النهر بأي وسيلة كانت، حتى ولو بالقوارب الخشبية الخفيفة، للاستفادة من هذا الفرق في سعر العملة.

قلت: هل تعلم حجم تأثير هؤلاء الفتيات علينا، وعلى اقتصادنا؟ لقد وضعن أيديهنّ على كل شيء؛ وأصبحن هنّ القادرات على تحديد مرتّبات موظّفي الحكومة، ومعاشات المتقاعدين، وكيفية توزيع

عائدات البترول، والخطوط العريضة لسياساتنا الخارجية. أصبحت هؤلاء الفتيات هنّ الحاكمات الحقيقيّات للبلاد. هذا هو أحد أدلّة حجم القوّة التي يلعبها الجنس على الرجال المحرومين. هناك مؤرّخون أوروبيون جادون يدرسون الآن هذه الظاهرة، للإجابة عن السؤال إن كانت هي حركة عشوائية اعتباطية؟ أم أنها خطّة من حكومة الجنوب للتأثير في اقتصاديّات الشمال؟

قلت: لم تكن هناك في بلدنا أماكن كافية، لاستقبال وإيواء كل هؤلاء الفتيات والنساء، اللاتي قدّمنَ إلينا بعشرات الألوف، بعد أن عبّرْنَ النهر في قوارب بدائية، مصنوعة من جذوع الأشجار المجوّفة، وهنّ يحملن أغراضهنّ فوق رؤوسهنّ، وهو ما أسميناه بالانتجاع، أو ما يعرف لدى الرعاة باسم ارتياد الماشية للكلاً في مواضعه، وهو ما أدّى إلى ما أسميناه الثورة الأفقية، التي كانت توفّر لكل رجل أو شاب الفتاة التي تناسب قدرة حافظة نقوده، وفي الحقيقة كان هناك طوفان من النساء والفتيات بأسعار منخفضة جدّاً. كنت أتمنى لو أن شعبنا لجأ إلى نوع آخر من الثورات، التي تكلف الشعوب ثمناً باهظاً.

قلت: بمناسبة الحديث عن الثمن الباهظ، لاحظ دارسو تاريخ البلاد، أنه عند وصول نساء الجنوب، كانت خزائن بلادنا قد أصبحت خاوية؛ بسبب الفساد الذي انتشر بين رجال الحكومة، بعد ما أسموه مأموريّات التصفية القضائية، وهكذا أصبحنا في حالة إفلاس، ولم نعد نستطيع أن ندفع ثمن ثورة مثل تلك التي قامت بها فرنسا سنة ١٧٨٩، التي لا يزال الفرنسيون حتى اليوم يدفعون ثمن تبعاتها المالية. لكن ليست المشكلة

في الأزمة المالية وحدها، بل هناك كذلك نظام الضرائب المجحفة التي قصد بها أولو الأمر، تدمير كل الثروات الصغيرة، وطبعاً قبل كل شيء، هناك تفاوت فرص التعيين في الوظائف العامة، التي لا تقدّم أبداً إلا لأصحاب الوساطات، وهناك تفاوت الفرص الذي سيجعل كل من يقرأ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، يضحك حتى يستلقي على قفاه.

قلت: كان يمكننا ببعض الشجاعة، أن نحصل على نسخة معدلة من ثورة فرنسا في سنة ١٧٨٩، تتناسب مع ظروف الشعب الكونغولي في بداية القرن الواحد والعشرين، وكانت فرنسا الصديقة ستوفر لنا الصيانة اللازمة، مع قطع الغيار المطلوبة في حالات الأعطال، لأنه نظراً للتخلف العام في البلاد، لم تعد هناك الأيدي العاملة المؤهلة للقيام بهذا النوع من إصلاح الأعطال. رغم هذا الدعم الفرنسي، كان ينبغي على الكونغوليين أولاً: العثور على مواطن كونغولي، يمكنه أن يلعب دوراً شبيهاً بدور نابليون بونابارت في الثورة الفرنسية، ثم ثانياً: العثور على امرأة كونغولية ذات أرداف كبيرة، تصلح للعب دور عشيقة بونابارت الكونغولي، ولا مانع من أن تحمل هي الأخرى اسم (جوزفين) العشيقة الفرنسية لنابليون.

قلت: كان ينبغي تحضير الشعب لإحداث تغيير في الأفكار والعقليّات؛ لأنه لا يمكن لشعب أن يقوم بثورة دون إحداث تغيير في الأفكار والعقليّات، ودعني أسمّيها صناعة الأفكار، إذ كان ينبغي لشعب الكونغو الحصول على أفكار ثورية، سواء من الصناعة المحليّة، أو عن طريق الاستيراد، حتى لا تأتي أجيال المستقبل ذات يوم ليقولوا لنا،

إننا أضعنا عليهم فرصة القيام بثورة، لأننا لم نتمكن من الحصول على أفكار جديدة، تتماشى مع الثورة. لكن المشكلة كانت في عدم استعداد الشعب للتضحية بالحياة نفسها، والموت في سبيل إنجاح الثورة، مثلما يفعل كل ثوار العالم.

قلت: فإذا كانت الثورة باهظة التكاليف بالنسبة لشعب الكونغو، أو إذا رفضت فرنسا أن تبيع لنا نسخة من ثورتها بأقساط مؤجلة، لأن لدى الشعوب الأفريقية سمعة سيئة، تتعلق بعدم دفع أقساط الديون في حينها، والذهاب إلى منصات الأمم المتحدة للمطالبة بإلغاء الديون، فإن الكونغو الصغير قد حصل لنفسه على ثورة صغيرة حمراء، باعتهنا لنا روسيا السوفيتية بنصف الثمن، في نسختها الماركسية اللينينية، في نفس توقيت قيام الثورة الأفقية مع نساء البلد المجاور، اللائي زرعن جذورهن في أركان الشوارع، وأفقدن آباءنا عقولهم، وقد أقرّ مسؤولونا في السلطات المحلية، بأن ما قيل عن الثورة الأفقية لم يكن هذراً، وأنها كانت قادرة على منافسة الثورة الحمراء، في الاستيلاء على عقول وقلوب شبابنا.

قلت: كانت ثورتنا الحمراء قد تمّ إعدادها، في مطابخ الشيوعية العالمية، قبل قيامها بسنوات عديدة، بعد نقاشات جدلية جادة ونقيّة، حول الاشتراكية العلمية والمادية التاريخية، إلا أن رئيسنا في ذلك الوقت المدعو معالي (ميكا أو كان جاما)، قد حطّم لنا معنويات العمّال، برسائله شبه اليومية الموجهة إليهم في المصانع، حيث كانوا يعانون من جوع قاتل، ولم أعرف أبداً ما الذي كانوا ينتظرونه، حتى يلّبوا دعوة

توحيد كلِّ عمّال العالم، من أجل إنجاح الثورة الحمراء، في صراعها النهائي ضدَّ الرأسمالية العالمية.

قلت: كان رئيسنا في ذلك الوقت يقرأ في خطبه اليومية، فقرات من مؤلفات فيلسوف الاشتراكية (إنجلز)، ولكنه كان ينطق الاسم كما لو كان يريد أن يقول (إنجل) وهي تعني ملاك، ويقرأ فقرات من كتاب (نهاية الفلسفة الكلاسيكية) للألماني لودفيج فورباخ، وفقرات من كتاب (رأس المال) لكارل ماركس. كان رئيسنا الماركسي في كامل لياقته الذهنية. وأنا لا أستخف أبداً به، حتى لو كنت مخموراً، فهو رغم كلِّ شيء كان حسن النوايا، وقد اعتاد على توجيه السباب لفلاسفة الرأسمالية، الذين كان يدعوهم بالفاسدين الفاجرين، ويتهمهم بممارسة الاستملاء الفكري بواسطة استعمال العقل، والاستملاء الفعلي بواسطة استعمال اليد. أما فلاسفة اليونان القديمة، الذين كانوا يحاضرون الناس في باحات المعابد الوثنية، فقد اتهمهم بممارسة الفحشاء مع فتيات صغيرات أو فتيان صغار، خرجن وخرجوا للتو من مرحلة الطفولة.

قلت: كان رئيسنا يوبّخ فلاسفة اليونان القديمة على غبائهم، عندما كانوا يتشرّدون في الشوارع وينامون ليلاً في البراميل، ويشعلون مصابيح الزيت في ضوء النهار^(٩٥). حتى أبسط الأشياء لم يحاول فلاسفة اليونان القديمة أولئك أن يذكروها لنا، مثلاً ما هو بالتحديد تعريفهم لمعنى الفلسفة، لا يكفي أبداً أن يقال إنه (حُبُّ الحكمة)^(٩٦)، فالسؤال التالي سيكون وما هي الحكمة؟ لو أن لدينا الآن مثل هذا التعريف، لتوقّف تلاميذ المدارس الثانوية في البلاد الغربية، عن شدِّ شعورهم

أثناء امتحانات نهاية العام في مادة الفلسفة، وهم ليس لديهم في ورقة الأسئلة إلا هذا السؤال الواحد الأوحـد (ما هي الفلسفة؟)، ليجيب عليه الطلاب في أربع ساعات!

قلت: سيّدي البريتاني كان رئيسنا قد قرأ الكثير من الكتب، رغم أنه لم يحصل إلا على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية، وعندما تطوّر في الجيش خلال الحرب العالمية الثانية، كان عمله خلال سنوات، هو تقشير البطاطس في المطبخ. لذلك هو مثل كلّ المستبدين بالرأي الذين لا يجدون من يعارضهم، أو لا يتركون الفرصة لأي معارض أن يفتح فمه، ادّعى لاحقاً أنه قد قرأ كل أعمال الأدب الكلاسيكي الغربي، أما الأدب الحديث فقد عامله بشراسة، بسبب أن مؤلّفي الأدب الحديث يعاملون اللغة الفرنسية باستهتار، خاصة تصاريـف الأفعال في زمن ماضي صيغة الشكّ، قال إنهم لا يجيدون التعبير عن الماضي في صيغة الشكّ. يعرف الفرنسيون المعاصرون تمام المعرفة أن رئيسنا ذاك، أدرك قيمة الرجال المستنيرين في تاريخ فرنسا الثقافي، الذين حاولوا خلال القرون الثلاثة الأخيرة، تفسير العالم ومن ثمّ تغييره، كلّ في مجاله، في العلوم والآداب، رغم أن هذا العالم يعاني الآن، من أولئك الذين يريدون تغييره باستعمال السيوف والسواطير الرواندية^(٩٧)، أو باستعمال البنادق الكلاشينكوف المستوردة رأساً من روسيا في البلقان^(٩٨) أو في كابيندا^(٩٩).

دفع لي البريتاني ثمن المشروبات، ثم قال لي وهو يتعد (وداعاً). طبعاً هو لا يريد أن يراني مجدّداً، ولا حتى أن يسمع أخباري عبر طرف

ثالث، بسبب ما أصبته به من صداد حاد، قد يتحوّل بسببي إلى صداد مزمن. ثم اقترب مني ويولي نادل الحانة، الذي كان ينصت إلينا بنصف أذن، وهمس في أذني:

هو: أعتقد أنه عليك الآن أن تعود إلى منزلك وتستريح، فأنا لم أرك أبداً من قبل تثرثر بمثل هذه الطريقة، لقد ضايقت البريتاني المسكين، وأصبته بالقلق والحيرة، في حين أنه يبدو لطيفاً مهذباً، هو لن يعود مجدداً إلى الحانة؛ وهكذا فأنت أفقدتنا زبوناً جيداً.



نهاية الكلام

بعد مرور عام ونصف عام

مرّ عام ونصف، ولم أمت كما توقّع أبقرط، بل حدثت لي أشياء طيّبة في حياتي، أصبحت بفضلها رجلاً مختلفاً، وهو ما جعل أصدقائي في حانة جيس يمازحونني. مثلاً بدأت في ارتداء سراويل قدم الفيل، وهي من طراز أزياء بداية السبعينيات، حتى قال لي لازيو موظّف أمن الحانة: «لقد تركت الذوق السليم وأصبحت هيبى»^(١٠٠). أما إيف الساحل عاجي فقد قال: «أيها المتخصّص في الأرداف، سينتهي بك الحال في مصحّة عقلية». من بين التغيرات التي حدثت في شكلي الخارجي، هو أنني بدأت في فرد شعري المجمع وجذبتّه إلى الخلف، كما كانوا يفعلون في أفلام الثلاثينيات والأربعينيات التي أشاهدها مع سارة.

إنها هي سارة التي تحبّ أن تراني هكذا. تقول إنني يجب أن أتميّز عن الآخرين، وأن أخلق لنفسى أسلوبى الخاص بى، حتى لو كانت اختياراتى على عكس الاتجاهات السائدة. وقد أصبحت مسألة فرد

الشعر تستهلك مني وقتًا طويلاً؛ لأنه ينبغي لي أن أبحث عن المنتجات المطلوبة في متاجر شاتو روج، وهي منتجات تختفي بمجرد ظهورها لشدة الطلب عليها، وبالتالي كان عليّ أحياناً أن أنتظر بشعري المجعد، شهوراً طويلة حتى تصل المنتجات الجديدة، من الدولة المصدرة لها، وهي الولايات المتحدة الأمريكية. لذلك اعتدت أثناء فترات الانتظار، أن أتجنب قدر المستطاع النظر إلى نفسي في المرآة، وأن أخرج من المنزل وقد وضعت فوق رأسي قبعة، أخفي بها شعري المجعد الكثّ العصي.

هناك شاب جابوني أراه دائماً يتسكّع، أمام ماكدونالد محطة قطارات شرق باريس، يرفع صوته كلما مررت من هناك، حتى يجعلني أسمع ما يقوله، وهو أنني مجرد شاب بائس يرثى لحاله، لأن فكّ جعدة شعري لا يعني إلا عدم قدرة على تحمّل مسؤولياتي كرجل زنجي أسود مجعد الشعر، وأن هذا معناه أن لديّ مشكلة كبيرة، لأنني أحاول أن أتشبهه بالببيض، وإنني لذلك مصدر خزي وعار لأجمل جنس في العالم؛ الجنس الذي ظهر أولاً في تاريخ البشر، ثم جاءت منه ومن بعده بقية أجناس بشر الكرة الأرضية. كنت أذهب إلى هناك منتظراً خروج صديقي روجيه الفرنسي الساحل عاجي من المحطة، الذي وعدني بإعارتي أسطوانة موسيقية بعنوان (الحق في الاعتراض)، وهي آخر إنتاج المغني (كوفي أولوميديه).

وحيث إنني كنت أحاول ألا أخلق مشاكل من فراغ، وكان هذا الشاب الجابوني يتابعني ببصره، قلت له صباح الخير، إلا أنه ردّ قائلاً:

«لن أَرِدَ على تحيَّتك، وأنت تعرف السبب». لذلك قرَّرت أن أهمله تمامًا، وأن أقول له بصوت مرتفع، هذه العبارة التي خطرت على بالي لحظتها، ولا أعرف إن كنت أنا من اخترعتها، أو أنني قرأتها في مكان ما (إن الإنسان هو خباز حياته، الذي يقوم بعجن وخبز جسده بالطريقة التي ترضيه. نقطة ومن أول السطر). ما دخله هو بي؟ يكفي جدًّا أنني لا أقوم بتبييض بشرتي، مثلما يفعل الكثير من الزنوج، الذين يحصلون على منتجات تبييض البشرة من إنتاج نيجيريا.

لكنه لم يتوقَّف عند هذا الحدِّ بل قال لي: «أنت بشعرك الناعم ذاك تشبه القِرَدَة، في الحقيقة إن الاستعمار مستمرٌّ في تخريب وإتلاف المجتمعات السوداء». هنا انفجرت في الضحك، لأنه كان يرثني ثيابًا تجعله أقرب شبيهًا بالرجال ساكني الغابات، بربطة عنق تشبه الأمعاء الرفيعة لحيوان البطريق. من يعتقد هو في نفسه؟ أنا أعرف أنه أحد الطلبة الفاشلين، الذين لا ينجحون في أي دراسة جامعية يقومون بها، في حين أن الشعيرات البيضاء تغزو رأسه بالفعل. حتى لا أشتبك معه قرَّرت الانصراف من هذا المكان، وعدم انتظار روجيه الفرنسي الساحل عاجي. بصقت على الأرض ورحلت.

هو: هكذا إذن أنت تهرب بجلدك، أيها المستكَب المعتوه، فبعد فرد الشعر المجعد، ستأتي حتمًا مرحلة تبييض البشرة، وأنا أنصحك بالاهتمام خاصة بجلد راحتي اليدين وباطن القدمين والكعبين^(١٠١).

* * *

أما عربي الناحية فقد قال لي: «لقد أجبرتنا أوروبا طويلاً على ابتلاع الأكاذيب، وعلى أن نملاً أحشاءنا بالروائح التنتنة لتعاليمها الفاسدة»، هل تعرف يا أخي الأفريقي من هو الشاعر الشجاع قائل هذه العبارة؟ في تلك الحياة القصيرة التي نحيها، يجب على الإنسان أن يكون مخلصاً أميناً، بأن يقول الأشياء التي يعتقد فيها فعلاً، وجهاً لوجه أمام الناس. هل سبق لي أنا أن خبأت عنك أي شيء؟ ألم أحكِ لك أنا عن كل شيء؟ لماذا فعلت إذن بي هذا؟ كنت أعتقد أنك مثل أحد أفراد أسرتي، لكنك كذبت عليّ، كذبت دائماً عليّ منذ البداية. أنا أعرف الآن أنك لم تحترمني. في الحقيقة أنت مثل أغلب سكّان أحياء باريس الذين يعتقدون أن كل عرب النواحي، هم مجرد تجّار يبيعون ويشتررون، وليس هناك أي داع لمشاركتهم مشاعرهم الإنسانية، وأن حياتي ليست إلا ساعات العمل خلف هذا الحاجز الخشبي. أنت مخطئ.

ثم قال: إن الذي يقتلني الآن، هو أنني أشعر أن أحد إخوتي، من بين جيرانني في قارتي، قد خانني. لقد كرّرت عليّ مرّات عديدة، أن زوجتك وابنتك هما في إجازة في أفريقيا، وستعودان بعدها إلى هنا. ما هي هذه الإجازة التي تدوم عاماً ونصف عام؟ أنا على علم بكل شيء الآن. فإذا لم يكن الساكن جاركم من جزر الأنتيل قد صرّح لي بهذا، كيف كنت أنا سأعرف الحقيقة؟ كيف كان لي أن أخمّن هذا وحدي؟ أن أعرف أن زوجتك قد ذهبت مع ابن عمها عائدين إلى أفريقيا؟ وأنا الذي بدوت كالأبله في هذه القصة، عندما قلت لك عنه إنه شخص محترم وفنان كبير.

قال: ثم من ناحية أخرى، أنت لم تعد نفس الشخص الذي عرفته سابقاً بهذه السراويل المضحكة التي لا يرتديها إلا السوق، أنت يا من كنت ترتدي ملابسك كما لو كنت ابناً لأحد الوزراء. ثم ما هي قصة فرد الشعر تلك؟ هل أنت تشعر بالعار من شكلك الحقيقي؟ ثم لماذا لم تعد تمرّ بمتجري لتشتري مني؟ رأيك أمس، ومعك سيّدة بيضاء تذهبان لشراء المناديل الصحيّة من متجر الصيني، في حين أن لديّ منها كما ترى هنا كمّيات كبيرة. هل هذا هو سلوك الأخوة؟ إن التجّار الصينيين أقوى منّا، ليس فقط لأنهم أغنى منّا، ولكن كذلك بسبب أشخاص من أمثالك يتركون إخوتهم جيران قارتهم، ويذهبون إلى الغرباء؛ يشترون منهم المناديل الصحيّة.

قال: ثم من هي هذه البيضاء التي تدخل معك إلى بنايتك، وتخرج معك من بنايتك؟ هل بهذه الطريقة يمكن أن تنجح وحدتنا الأفريقية، التي خطّط لها ودعانا إليها قائدنا ومرشدنا القذافي؟ إذن فأنا عندما كنت أتحدّث إليك عن الاحترام المتبادل، أنت لم تكن تنصت إليّ ما أقوله. إن ابن عم زوجتك هو شخص محترم، أنا لا زلت أعتقد في هذا، فهو لم يكن له أبداً أن يخدعني، مثلما فعلت أنت.



إن الفتاة التي يشير إليها هنا عربي الناحية هي (سارة). هي بلجيكية من ناحية الأب، وفرنسية من ناحية الأم. هي ترسم مناظر من الحياة الطبيعية اليومية، في حانات ومقاهي شاتو روج وشاتو دو، وتعتقد أن

هذين المكانين هما مصدر وحي وإلهام كبير، في عملية الخلق الفني. في البداية كانت سارة قد أضحكت كل أصدقائي في حانة جيبس، الذين لم يفهموا كيف يمكن كسب العيش من بيع لوحات مرسومة في الحانات، تظهر فيها علب البيرة على أسطح الموائد، مع أشخاص سود يتناومون أمام أكوابهم.

في أول يوم لها في حانة جيبس، جاءت نحونا وقالت إنها تبحث عن شخص يقبل أن يقف أمامها لترسمه، ومن الأفضل أن يكون رجلاً مختلفاً متألقاً، أقرب ما يكون إليك أنت. وأشارت بإصبعها نحوي! فضحكنا جميعاً. همس لي بول من الكونغو الكبير «هذه الشقراء لا تبحث إلا عن زنجي للممارسة الجنسية».

أما إيف الساحل عاجي فقد التهمها بعينه، حتى إن لعبه سال فعلاً فوق صدره، ثم قال: «إنها مثل الغزالات عندي في أبيدجان، هل رأيت مؤخرتها، أنا أراهن على أن زنجياً كان يصفع هذه المؤخرة ثم هجرها، لذلك هي تبحث عن بديل؛ ليلعب نفس الدور، لأن امرأة لها مثل هذه المؤخرة، لا يمكن إلا أن تكون صنيعة زنوج، قاموا برسم هذه المؤخرة، لتصبح بالشكل الذي هي عليه الآن».

ثم تحوّل الحوار إلى وجهة أخرى، إذ عدنا إلى مسألة الديون، التي يدين بها المستعمران الفرنسي والبلجيكي للشعب الكونغولي، وأن هذه المرأة هي التي عليها أن تسدّد أقساط الديون الاستعمارية، إذ ماذا يريد رجال الكونغو أكثر من ذلك؟ وحيث إنها بلجيكية فرنسية، فإننا هنا كما يقول المثل، نضرب عصفورين بحجر واحد، ونحصل على تعويضات مزدوجة.

ثم وضع ويلى أسطوانة موسيقية جديدة، وصلت للتو من الكونغو برازافيل، وكانت الموسيقى قريبة الشبه، من موسيقى الغناء الجنائزي الديني في جوقة كنسية، كان لها تأثير شبيه بالتنويم المغناطيسي الجمعي، مما جعلنا نفكر في موتانا، حتى إن أوليفيه بدأ في الانتخاب. ثم تراجع ويلى عن اختياره ذاك، ووضع أسطوانة من موسيقى الصلصا البرازيلية الراقصة، لفرقة كومباي سوكوندا، وتقدم إلى الشقراء يطلب الرقص معها.

قال لها: أنا اسمي ويلى، وأنا مالك كل ما في هذه الحانة، ثم رغم ضخامة جسدي، فأنا أخف وزناً من ريشة عصفور دوري، وعندما أرقص فإنني أصعد مع رفيقتي إلى السماء السابعة، ثم أعود بها إلى الأرض، بكل لياقة ورشاقة بدنية، فأنا أفضل راقص صلصا في كل هذه المنطقة، ثم إن كل الموجودين هنا الآن هم من المعقدين، مشوشى التفكير، وسأبدأ بأن أقدم لك كوباً من مشروب عصير الزنجبيل، فهو يساعد على انطلاق الطاقة الكامنة في الجسد.

أما بوسكو، شاعر السفارة الفرنسية، فقد بدأ في تلاوة قصيدة للشاعر الرومانسي لامارتين، وهو يقترب من الفتاة، ويهمس في أذنها بكلمات القصيدة (إن انساناً واحداً هو من تحتاجين إليه/ ولكن كل الأماكن مهجورة، وبلا ناس)، واستمر في تلاوة أبيات القصيدة حتى نهايتها، ثم عندما أراد البدء في تلاوة قصيدة ثانية، صاحوا جميعاً في وجهه، ساخرين منه فأسكتوه.

بدا لي (لازيو) حارس الأمن، وكأن عضلاته تبرق، رغم إضاءة

الحانة الخافتة، كأنه دهن عضلات ذراعيه ذوات الرأسين وذوات الثلاثة رؤوس^(١٠٢) بالزيت لتلمع؛ بهدف إبهار سارة، لعلها تختاره هو. لمعت كذلك جمجمته التامة الصلع، وبدت على وجهه ابتسامة مطمئنة، كأنه لا مجال للمقارنة بينه وبين غيره. هنا همس شاعر السفارة في أذن بول من الكونغو الكبير «إذا خرج صاحب العضلات مع الفتاة، سأذهب من الغد إلى صالة ألعاب رياضية لتنمية عضلاتي». ذهب لازيو إلى الفتاة، ووضع يديه حول خصرتها، ثم كانت أول جملة يوجهها إليها هي أنه يريد أن يتزوَّجها.

أما بيارو الأبيض، فقد ظلَّ بعيدًا عن مجال الصراع على الفتاة، وكان مشغولًا بتحفيزي أنا، بحركات يديه وبنظرات عينيه، على أن أتقدَّم أنا إلى الفتاة، منطلقًا من حقيقة أنها أشارت إليَّ أنا عندما تحدّثت عن رغبتها في رسم بورتريه (وجه شخصي) لأحدنا. اقتربتُ من الفتاة، وحرّرت خصرتها من بين مخالب لازيو، وقلت لها إنني أريد رؤية عيّنة من رسوماتها قبل أن أوافق. وإنني سعيد أنها اختارتني أنا، وهذا دليل على أنها ترى وجهي جميلًا يستحقُّ أن يُرسم. للتوّ أضاء وجهها والتمع بنور سماوي، ومنذ تلك اللحظة لم تعد توجّه الحديث إلى أي شخص آخر عداي.

قالت: عندما تحدّثت منذ لحظات عن الاختلاف بين الوجوه، وعن تألّق بعضها عن بعضها، أرجو ألا أكون قد جرحتك بسبب لون بشرتك، فأنا أنظر إلى مثل هذه المعاني فقط من الناحية الفنيّة، ومن وجهة نظر الفنون الجميلة.

قلت: لم أشعر على الإطلاق بأيّ إهانة، وأنا أفهم وجهة نظرك كرسامة، وكخالقة لأشكال فنية، فأنا أيضاً أخلق شخصيات أثناء تأليني وكتابتي، وقد استعنت في إدراك هذه المفاهيم الفنية، بصديقي لويس فيليب، وهو كاتب مهم من جزر الأنتيل.

قالت: إن الكاتب فنّان، إنه يرسم بالكلمات.

أرادت أن ترسمني، لا في الحانة، بل في منزلي، وسط كتبي وأوراقي، جالساً أمام آلي الكاتبة، أدقّ عليها بأطراف أصابعي، فأعطيتها رقم تليفوني. شربت كوباً واحداً من عصير الطماطم ثم انصرفت، على أن تتصل بي لاحقاً؛ لتحديد موعد جلسة الرسم. سمعت ويلي وهو يوبّخني من مكانه عند النضد.

قال: اسمح لي أن أقول لك يا خبير الأرداف، إنك مخطئ إذا اعتقدت أن هذه الفتاة ستصل بك، هي خرجت الآن لتبحث في حانة أخرى، عن زنجي آخر متآلق، يكون أكثر استعداداً منا ومنك، لممارسة الجنس في التوّ واللحظة، أنا أعرف عمّا أتحدّث، إنها من نوع الفتيات اللائي يصطدن الرجال هكذا في الحانات بحجج مختلفة، من أهمها التصوير والرسم. أنت فقط حرمتني من الرقص معها، ومن تجربة حظّي معها، وأنت لن تحصل عليها لنفسك.

* * *

حضرت سارة إلى شقّتي بعد ثلاثة أيام. كانت هذه هي المرّة الأولى، التي لا أسمع فيها تذرّ جارٍ أبقرط، من خلف بابه المغلق، وذلك فقط لأنها امرأة بيضاء. بالإضافة إلى حقيقة أخرى، وهي أنه قد صارت بيننا هدنة طويلة، منذ حديثه الطويل معي في مقهى (ملك المقاهي). كنت قد ربّبت كلّ شيء في شقّتي الصغيرة استعدادًا للزيارة، لكن سارة أرادت أن تكون هناك بعض الفوضى في المكان، وقالت إن هذا أقرب إلى طبيعة الأشياء؛ حتى لا تبدو اللعبة مزيفة.

قالت: لماذا أرهقت نفسك في ترتيب الشقة؟

قلت: أنا لم أفعل أكثر من إزاحة بعض الحقائق جانبًا في أحد الأركان.

قالت: والبخور؟

قلت: أنا لم أستقبل هنا أحدًا منذ شهور طويلة.

هنا عبرت صورة روز أمام مخيلتي، فأزحتها سريعًا بحركة من يدي.

طلبت مني أن أقف إلى جوار النافذة، وظلّت تنظر إليّ لفترة، كأنها تدرس تأثير الإضاءة الطبيعية على وجهي، ثم بدأت في رسمي. إلا أنها محت كثيرًا من الخطوط التي رسمتها، وغيّرت أكثر من مرّة وضعها، بغرض تغيير زوايا النظر، طالبة مني أن أرفع رأسي قليلًا جهة اليسار، من أجل إضاءة أفضل.

هل أدركت أنني كنت أتعمد النظر إلى أجزائها السفلية، لأعيد تقييم

هذه الأجزاء من جسدها، وأعيد مسح تضاريس النصف الأسفل خاصة من الناحية الخلفية؟ عندما انتهت من عملها ذهبنا معاً إلى مقهى (ملك المقاهي)؛ حيث احتسبنا كأسين، ولأنني شعرت معها بالراحة النفسية، فقد بدأت أحكي لها قصتي، عن اللون الأصلي، وعن ابنتي. قلت: «أنا والد هذه الطفلة، فكيف أتركها تضيع مني؟ كيف أتنازل لها عنها؟».

تحدّثتُ بقرف عن الهجين، وعن نوعية موسيقاه الرديئة، وعن حفلات آلة الطمطم الفاشلة، بينما كانت تنظر هي إلى عينيّ دون أن تقاطعني. الآن، وأنا أكتب هذا الكلام في مساء نفس اليوم، ألوم نفسي على احتكار الحديث. وقفّت في مكانها فجأة ثم قالت: «إلى اللقاء». ثم رأيتها وهي تهبط درجات سلّم محطة قطار أنفاق ماكس دورموي، حين استدارت، وأرسلت إليّ قبلة في الهواء. لاحقاً اتصلت بي هاتفياً قبل انتصاف المساء، قائلة إنها استمتعت بالوقت اللطيف الذي قضيناه معاً، وإنها تشكرني على سماحي لها برسم وجهي. لم ألحظ مرور الوقت، ولكننا بقينا ساعتين نتحدّث. عادت إليّ في الأسبوع التالي، وفي يدها لوحة ملفوفة بالورق، وهي اللوحة التي رسمتها لي، وقد علّقتها على الفور، في مكان مركزي من الحائط الرئيسي.



أحبّ رسومات سارة؛ فألوانها زاهية وحيّة، ثم إنها تجيد التعبير عن الأمل وعن اليأس، في كل الشخصيات الزنجية التي رسمتها، في شاتو روج وشاتو دو، وأعتقد أنها ستصبح يوماً ما واحدة من أشهر فنّاني

البورترية المعاصرين في فرنسا. والداها منفصلان لكنهما طيبان، فالأب يعمل مديرًا لمطبعة، وقيم في (بانتان)، والأم تعمل أخصائية تجميل، وتقيم في (رومبويه). هي ابنتهما الوحيدة التي يعبدانها. هذا جعلني أفكر في اللون الأصلي، التي كان والداها لا يريدان سماع سيرتها، ولا حتى رؤية حفيدتهما. كان والد سارة صموتًا، وكنا نلعب معًا البيتانيك^(١٠٣)، أما الأم فكانت ثرثرة، وتسألني دائمًا عن أخبار الكونغو. وحيث إنه لم يكن لدي أخبار جديدة أرويها لها، كانت تقول: «لا ينبغي للمرء أن ينسى بلده».

كانت سارة كثيرًا ما تحدّثني عن الرسّام رينيه ماجريت *Magritte*، الذي انتحرت أمه غرقًا، عندما كان هو في سن الرابعة عشرة. وكانت تدور بيننا أحاديث من هذا النوع.

أنا (بلهجة تقريرية واثقة): في فن الرسم، يكفي أن يذهب الشخص إلى مدرسة الفنون الجميلة، حتى يتعلّم الحرفة ويصبح فنانًا.

هي (بلهجة محدّدة): ما هذا التخريف الذي تقوله، إن الفنان الحقيقي، هو ذلك الذي يتعدّى الحدود، ويكسر القيود، ويخالف كل المفاهيم التقليدية، وهو ما لا تتعلّمه في مدرسة الفنون الجميلة، هذا هو ما قاله ماجريت نفسه. إن الفنان لا يرسم لمجرّد وضع ألوان فوق لوحة الرسم، كما أن الشاعر والراوي لا يكتبان لمجرّد وضع كلمات فوق صفحة الورق.

فغرّت فاهي. هذا الرسّام ماجريت وجد إجابات جاهزة، على كل الأسئلة التي يمكن أن يسألها الجاهلاء من أمثالي، ووجد مسبقًا كل

الحجج اللازمة للدفاع عن بضاعته. هذا هو إذن ما على الفنّان أن يفعله قبل أن يموت، ألا يترك للآخرين فرصة تفسير فنّه، إذ عليه هو نفسه أن يقدّم للجمهور المفاتيح اللازمة لتعريف عمله الفنّي، حتى يتجنّب دخول الثرثارين المحترفين من أدعياء الفنّ، في مناقشات جدلية عقيمة حول معنى لوحاته، في محاولة منهم لتعريف تجربته الحياتية، وفقاً لأمزجتهم العليلة.

في اليوم الذي قدّمت فيه سارة إلى لويس فيليب، أعادت أمامه صياغة ما قاله ماجريت، بخصوص عمليات الخلق الفني، فدخل فوراً في نقاش لم يتبع نظاماً محدّداً، لكنني هنا فقط أدركت الحجم الهائل للوحات الفنانين الكاريبيين، التي يحتفظ بها لويس فيليب في قبه منزله. نزلنا إلى تحت الأرض، وفي أيدينا مصابيح سابقة الشحن، ونظرنا طويلاً في كلّ لوحة، منصتّين إلى تعليقات الكاتب الكاريبي. وفجأة شعرت بالخوف في ظلام هذا القبو، وتخيلت أن وحشاً من تلك الوحوش الخرافية المرسومة في اللوحات، سيقبع لنا في ظلام القبو، منتظراً أن يهاجمنا ليفترسنا، أو أن يحرق أجسادنا ببيخة نار واحدة من منخاره. إن أغلب شخصيّات هذه اللوحات، كانت تبدو بعينين من لهب نار، وبأسنان تماسيح.

إن اللوحات التي تمثّل مناظر من شياطين عالم الفودو، جعلت شعر رأسي يقف، بينما كانت سارة مع الملائكة في عالم آخر، ولم تعد تريد مغادرة المكان. ثم حدث أن ثاءبتُ بصوت مرتفع، وهنا قال لويس فيليب ”هذا الثأوب يلخّص تاريخ الكونغوليين مع فنون الرسم، ولهذا

السبب فإن أعظم رسّاميهـم وهو جوتان، من مدرسة فنون البوتو بوتو، مات من الجوع واللامبالاة“.

في لحظة مغادرة الكهف، كنت في أول الصفّ، بسبب أنه ليس هناك أي ضمان للنجاة من الذبح، بعد كل ما حكاه لنا لويس فيليب من حكايات عن شخصيّات الرسومات، التي تغادر لوحاتها وتذبح الناس المتفرّجين على اللوحات. عندما عرضت سارة لاحقاً مجموعة لوحاتها على لويس فيليب، اشترى منها لوحة تصوّر أحد متشرّدي الشوارع، الذي ينام على رصيف، وتبدو زجاجة نبّذ نراها ونصفها يخرج من جيب معطفه.

* * *

سارة تدّعي أنني أشبه موسيقياً أمريكياً أسود، هو من موسيقيي الجاز jazz واسمه (مايلز دافيس)، فذهبت إلى أحد متاجر الصور، حيث تباع الصور الفوتوغرافية للمشاهير، وبحثت عن صورة لهذا الفنّان حتى وجدتها. لم أعرف كيف وصلت سارة إلى مقارنة شكلي بشكل هذا الرجل. لا شكّ في أن أحد أسباب التشابه بيننا هو أن شعر رأسينا مفرد، ناهيك عن لون البشرة الأسود. لكن ليس هناك نقاط تشابه أخرى. على أي الأحوال، كانت تلك هي المناسبة لاكتشاف موسيقي جاز موهوب، لم أكن قد تعرّفت عليه من قبل، لكنني لم أصل أبداً إلى فهم موسيقاه كما تفهمها سارة.

أنا أثق في أن هناك بعض الأشخاص، الذين يستطيعون ادّعاء

معرفتهم التامة بأحد أشكال الفنون، وبالتالي أنا أثق في أن سارة تفهم فنون موسيقى الجاز، أفضل من أي شخص آخر عرفته، لذلك عندما قالت: (إن مايلز دافيس هو أفضل موسيقي جاز في العالم)، صدّقتها على الفور. إلا أنني بعد ملاحظة تسجيلاته الموسيقية، أعتقد أنني أخفّ دماً منه؛ إذ يبدو لي أنه في منتهى الجدّية أثناء العزف.

بخصوص هذا الموضوع قالت سارة ذات يوم: إن إديث بياف وجوليات جريكو^(١٠٤) قد قالتا في مناسبتين مختلفتين، إن مايلز دافيس كان جميلاً كأحد أرباب الفنون في الحضارات القديمة، وقالت واحدة منهما، لا أنذكر من هي، إنها لم تشاهد طوال حياتها رجلاً في جماله.

أما أنا فعندما سمعت هذه العبارات، قلت في نفسي لو أن من قالت هذه العبارات هي إديث بياف، فهي إذن كانت تميل إلى المبالغة في مجاملة البشر، لأنني أرى بوضوح أن زوجها مارسيل ساردان، بطل العالم في الملاكمة، كان أجمل من مايلز دافيس. ثم تساءلت هل كان الناس سيرون دافيس جميلاً، أو ربّاً من أرباب الجمال الرجولي، لو لم يكن عازفاً استثنائياً لآلة الترامبيت^(١٠٥). الحقيقة هي أن من يعشق فنّاناً يراه جميلاً رغم أنف الجميع، لأنه يعتقد أنه لو رأى فنّانه قبيح الشكل، لكان هذا بمثابة تجريد له من تاج الربوبية.

قلت لسارة: بالنسبة إليك فإن كل السود يتشابهون.

هنا رأيت وجهها يحمرّ من الانفعال، وأصرّت على أنه ليس هذا ما أرادت أن تقوله، وإنها لم تكن أبداً عنصرية ضد الرجال السود،

بدليل خروجها معي، في حين أن العديد من الرجال البيض في باريس يطاردونها.

قالت: مشكلتك هي أنك غير راضٍ عن نفسك.

قذفتني بهذه العبارة وهي تعطيني ظهرها. كرّرت عليها أنني لا أعتبر مايلز دافيس رجلاً جميلاً، لكنني رغم ذلك مقتنع بأن عبقرية بعض الرجال، يمكنها أن تغفر لهم قبحهم الجسماني.

قالت: لكنه ليس قبيحاً. أنا أشكّ أحياناً في أننا نتحدّث عن نفس الرجل.

أدركت أنه لا ينبغي لي أن أستمّر في هذا العناد، ولا ينبغي لي أن أترك شياطين رأسي تسيطر عليّ، وهي الشياطين التي كانت تحوّلني إلى شخص آخر. لذلك حتى أرضيها، سلّمت لها أخيراً بأن هذا الموسيقي هو رجل جميل. في اللقاء التالي وجدتها تهديني إحدى أسطواناته، بعنوان (مايلز الشاب) *Young Miles*، وتنصّحني أن أستمع خاصة إلى مقطوعته (شهر أبريل في باريس)؛ لأنه لا يمكن لأي شخص يقيم في باريس ألا يحبّها.

وها هي ذي تفرض عليّ الإنصات المستمرّ، إلى العزف المنفرد لعدد من آلات النفخ النحاسية مثل الترومبيت، ومن آلات النفخ الخشبية مثل الكلارينيت، رغم أن هذا النوع من الموسيقى لا يناسبني، فأنا أحب أن أنصت إلى موسيقى كوفي أولوميديه وبابا ويمبا، وهي موسيقى جميلة من إنتاج الكونغو، يقدّمها لي روجيه الفرنسي الساحل عاجي بين وقت وآخر، في مقابل أن أساعده على تعلّم لهجة اللينجالا،

وهي إحدى اللهجات المحلية في الكونغو، التي يغنون بها في هذه الموسيقى.

إن الموسيقى في الكونغو هي شيء آخر، وقد استبعد موسيقونا منها أصوات آلات النفخ منذ مدة طويلة. نحن الآن في زمن الإيقاعات الشيطانية، التي تشغل أغلب وقت المقطوعة الغنائية، التي يصل زمنها إلى عشرين دقيقة، يرقص عليها الراقصون والراقصات، تأتي بعدها بالكاد دقيقة واحدة أو دقيقتان من الكلمات المغناة، التي يستريح خلالها الراقصون والراقصات، قبل أن يبدأوا وصلة جديدة من الرقص على إيقاعات أغنية أخرى، وهكذا.

خلال الفترات الراقصة يعرق الجميع بشدة، ويقبض الراقصون بشدة على خصور الراقصات، ثم يرفع الراقص الراقصة من على الأرض، ويصل برأسها إلى مستوى رأسه، حتى يتمكن من تقبيل شفيتها بشفتيه، فيلتحم الصدران والفمّان، وتلتحم الشفاه الأربعة. لذلك لا يمكن أن يتذوّق كونغولي موسيقى مايلز دافيس، لأنها ليست الموسيقى التي تمكن من تنفيذ وإنجاح خطة مماثلة. بالطبع لم أتمكن مع سارة من أن أشرح هذا السبب لكراهية موسيقى دافيس.

ثم إن أكثر ما يغيظني في موسيقى دافيس، هو أنها موسيقى صرف بلا كلمات مغناة، وأنا غالبًا ما يكون استمتاعي بكلمات الأغنية، أهم من استمتاعي بألحانها. أما سارة فهي على العكس تمامًا مني؛ إذ تفضّل الموسيقى الخالصة دون كلمات، حتى لو كانت كلّها تُعرّف بآلات النفخ النحاسية والخشبية. تقول وهي منتشية إن الجاز هو أقوى نوع

من الفنّون، وتطلب مني أن أترك نفسي تتخلّلني هذه الألحان، دون مقاومة من ذاتي الأنويّة. أحبّبت مقطوعته (فينوس دي ميلو)، لكنني منعت نفسي من أن أذكر لها هذا، إذ إنها تعتقد أنه لا ينبغي لأيّ مقطوعة على الأسطوانة، أن تنزع القداسة عن مقطوعتها المفضّلة (شهر أبريل في باريس).



تعتقد سارة أنه شيء صادم جدًّا، أن يطلق عليّ زملائي في حانة جيس لقب (متخصّص الأرذاف)؛ لذلك اتخذت خطوة مضادة، إذ أعلمتهم أنه من الآن فصاعدًا سيكون لقبني هو (القسّ ليون موران)، وهو تكريم كبير منها لي، إذا علمت من هو هذا القسّ. عرفت أولاً أنه ليس شخصية حقيقية، بل هو شخصية روائية، في رواية لمؤلّفة بلجيكية اسمها (بياتريكس بيك)، وهي امرأة عظيمة من عظماء الأدب البلجيكي المعاصر. ومنذ ذلك الحين، وسارة تساعدني في اكتشاف أعمال هذه المؤلّفة. ضايقها جدًّا أنني فيما مضى، لم أكن متحمّسًا إلا لروايات جورج سيمنون البوليسية، ولأعمال أدباء أمريكا اللاتينية التي يعيرني إيّاها صديقي لويس فيليب.

قالت: «يجب أن تتحرّر بعض الشيء من هذا الانبهار التام بكل ما يقترحه عليك لويس فيليب؛ فالأدب لا يتوقّف عند أمريكا اللاتينية والبحر الكاريبي». أقنعتني بقراءة بيك التي حصلت على جائزة الجونكور الأدبية لسنة ١٩٥٢، بهذه الرواية (القسّ ليون موران)، التي

أنصح أصدقائي الآن بقراءتها، حتى لو كان إلحاحي عليهم يتسبب لهم في بعض الاستفزاز.

يجب أن أعترف أنني بفضل سارة، أصبحت كثير التردد على المكتبات، في هذه الأوقات الأخيرة. أصبحت الكتب التي أشتريها لأقرأها، أكثر عددًا من الأحذية الويستون التي أشتريها لأضع فيها قدمي، ومن السترات الفرنسكو سمالتو، ومن أربطة العنق إيف سان لوران، التي كنت أرديها متفخرًا، أثناء الحفلات الموسيقية لبابا ويمبا ولكوفي أولوميد.

هكذا أصبحت قادرًا الآن، على أن أُلقي على الناس خطابًا آخر، مختلفًا عن خطابي التقليدي، عن مغامرتي النعيسة مع اللون الأصلي، وعن قصة خيانتها لي. أصبحت قادرًا على الحديث لمدة ساعات طويلة، أمام جمهور كبير يبدو متشياً بما أقول. بفضل سارة، تعرّفت إلى عدد كبير من المؤلفين البلجيكيين. ذات يوم وصلت إلى حانة جيبس وفي يدي رواية (حياة النمل)، وبمجرد أن وضعت قدمي على عتبة الباب، قذفتني أعينهم بوابل من النظرات الموجهة إلى الكتاب، وقد اقتنعوا تمامًا أنني قد تملكني الشغف بعالم النمل. جلست في ركن هادئ، وبدأت في القراءة. ثم حيث إنني أصبحت رجلًا مختلفًا، وقرّرت التوقف عن تناول المشروبات الكحولية، لذلك طلبت عصير الزنجبيل.

جاء بول من الكونغو الكبير نحوي ثم قال: أنت تلعب الآن دور المثقف الكبير، منذ تعرّفت بسارة تلك، التي ترسم السكاري

المخمورين، وحولهم تتناثر زجاجات النبيذ على الموائد. قل لي ما الجديد في هذا الكتاب، الذي تعزلنا كلنا لتقرأه؟
أنا: لأنه مقال لموريس ماترلينك.

هو: أنا لا يمكنني أن أنطق بهذا الاسم. لكن قل لي، هل هذا المؤلف أكثر شهرة من جي دي كار أو من جيرار دوفيليه؟
أنا: إنه حاصل على جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩١١.

نظر لي بازدرء من أخصص القدمين إلى قمة الرأس، قبل أن يتركني ويذهب لينضم إلى الآخرين. حاولت أن أنصت على بعد إلى ما يقولون، فإذا بهم يحاولون نطق اسم ماترلينك، ثم إذا بهم بعد ذلك يتحدثون عن حياة النمل بشكل عام، وعن نمل أفريقيا بشكل خاص. وقفت في مكاني ثم غادرت الحانة. بعد ثلاثة أيام عدت بكتاب جديد، هذه المرة كان إيف الساحل عاجي، هو الذي وبّخني:

هو: أنا أستطيع الآن أن أنطق اسم مؤلف الكتاب عن حياة النمل.
في الحقيقة، هو شوّه اسم المؤلف البلجيكي، ثم لاحظت أنه لم يرفع عينيه عن الكتاب الجديد، الذي أحمله هذه المرة في يدي.

هو: وماذا تقرأ الآن، بعد تلك الأشياء عن النمل؟

أنا: أقرأ لبياتريكس بيك.

هو: لا أعرفها.

جعلتني سارة أكتشف أشعار (هنري ميشو)، لكنها كانت أيضًا تقترح عليّ أسماء مؤلفات لم أحبّها، وبالتالي بدأت أتحرّر شيئًا فشيئًا

من اختياراتها. وهكذا تمكّنت من أن أكتشف وحدي رواية (المسعود) للمؤلفة البلجيكية (دومينيك رولان). هذه هي المرأة التي أشبعت مرّبات نقصي. أنا كنت قبلها أبحث عن تأليف روايات بأسلوب المؤلف الفرنسي (جورج سيمنون)، فهو المؤلف البلجيكي الذي أحببته أكثر من كل الآخرين. أما الآن بعد قراءة (دومينيك رولان) أصبحت حائرًا. ثم بدأت في ممارسة نوع من التأثير على قراءات سارة، عندما اقترحت عليها رواية (صحّة القاتل) لأميلي نوتان *Amelie Nothomb*.

قالت: هذا لن يحدث أبدًا؛ فأنا لا أحبّ أبدًا قراءة كل ما هو أفضل المبيعات *best seller*، ولا أقتنع أبدًا بكل من له شعبية كبيرة، بالإضافة إلى أنني شاهدت هذه الفتاة في التلفزيون، وهي تأكل أمام آلات التصوير مأكولات عَفَنَة.

رغم هذا، وجدتها لاحقًا تلتهم هذه الرواية، وأنا أعاكسها طول الوقت بتعليقاتي الساخرة منها.

* * *

لم أعد أخرج كثيرًا من شقّتي، وقد أصبحت الآن أكتب بحماسة أكثر عن ذي قبل. وكانت الساعة حوالي الثالثة بعد الظهر، حين جاءتني مكالمة من مكان عملي. كان المسيو كورجيت^(١٠٦) بنفسه، هو من يتصل بي. هو الرجل العابس المتذمّر المسؤول عن الموارد البشرية. تمكنت على الفور من تمييز صوته، الذي كنت أشبّه بصوت آلات موسيقية وترية محطّمة.

هو: هل لا زلت أيها السيد تتذكّر أنك تعمل لدينا في مطبعتنا؟
لم أكن قد ذهبت إلى هناك، ولا مرّة واحدة منذ أسابيع طويلة.
ادّعت أن السبب هو وفاة عمّتي. ثم أضفت أنني أعاني من مرض
عضال، احتار الأطباء في تشخيصه، وأنني أستعين في تخفيف الآلام
بالمعالجين اليدويين الأفارقة.

هو: استمع جيدًا إلى ما سأقوله لك أيها السيد هنا. لقد سبق لك
دفن عدد كبير من عمّاتك وخالاتك، فقط خلال الشهور الستة الأخيرة.
وهذه هي المرّة الثالثة، التي تدّعي فيها موت نفس العمّة.
في الحقيقة أنا لم أعد أتذكّر عدد المرّات التي غبت فيها عن العمل
بإدعاء وفاة عمّتي. حاولت أن أتدارك الموقف.

أنا: أيها السيد كورجيت، يجوز أنني قد أسأت التعبير، فأنا أتحدّث
معك هنا عن عمّة أخرى، ففي أفريقيا من الممكن أن يكون للشخص
الواحد عشرات العمّات والخالات، ولذلك يحدث أحيانًا أن تموت
أكثر من عمّة أو خالة في الأسبوع الواحد، أو حتى في اليوم الواحد، دون
أن يدعو هذا إلى دهشة أي شخص.

هو: حسنًا إننا هنا نضيّع الوقت بلا جدوى، قل لي متى تعود إلى
موقعك في عملك؟

أنا: سيّدي لا تنسَ أن هناك أيضًا ذلك المرض العضال الذي أعاني
منه، واحتار الأطباء في تشخيصه.

هو: حسنًا ليس عليك إلا أن تظلّ مريضًا مئة عام، على أي حال

فالعامل لم يعد في احتياج إلى خدمات حيوان رخوي من عيّنتك.

أنا: هذا هو أفضل حلّ؛ وسأحضر الأسبوع القادم إلى موقع العمل لأخذ أشياءي، بزة العمل والقفّاز والقبّعة، لأنها أشياء اشتريتها بحرّ مالي، فأنتم حينها لم تكونوا قادرين على توفير احتياجات العمل لمستخدميكم، وليس هناك ما يدعو إلى تركها عندكم. ثم شكرًا لكم على قرار الرفع، فإن الرفع كما تعرف هو أفضل من الاستقالة، فبالرفع يمكنني أن أبحث عن عمل آخر لاحقًا، أما بالاستقالة فهذا سيكون صعب جدًا.

* * *

جاءت سارة إلى شقتي في بداية المساء، وفاجأني أثناء الحمى التي تصيبني عند الاندماج في الكتابة.

هي: أين وصلت في كتابك؟

أنا: تقريبًا وصلت إلى النهاية.

أجبتها بصوت لا يبدو فيه الاقتناع التام. ولأول مرّة منذ بداية علاقتنا، أخذت بعض الصفحات التي كانت متناثرة على أرضية الحجرة، وبدأت في قراءتها بصوت مرتفع. فجأة شعرت بحلقي يجفّ؛ إذ إن هذا الاختبار شاق جدًا لي. تولّد لديّ الإحساس بأن كلماتي لم تعد ملكًا لي. وأن هذه الكلمات تهرب من الصفحات، لتذهب إلى شفتي سارة، وتموت هناك.

أردت أن أشرح لها أن كل شيء كتبته لا يزال قابلاً للتعديل، وأن صديقي لويس فيليب لم يقرأ بعد هذه المخطوطة، وأني أتوقع أن يساعدني كثيرًا بخبرته في إعادة صياغة بعض الأجزاء، وأن هذه النصوص لا تزال مشروعًا أوليًا لكتاب لا شك لا يزال ينقصه الكثير. أنصتت هي إلى كل هذه الجمل المفككة، ثم عادت إلى استئناف القراءة. تصلبت ملامح وجهها فجأة، عند قراءة الجزء الخاص بوصفي للمؤخرات، ثم لبشرة اللون الأصلي شديدة السواد. أعادت ترتيب الأوراق ووضعتها بالقرب من آلي الكاتبة.

هي: هناك مشكلة كبيرة في بازارك الأسود.

أنا: نعم؟

هي: هل لوني أنا أيضًا هو لون أصلي؟

ثم انفجرت ضاحكة، ونظرت إليّ بجديّة، لم أرها من قبل على وجهها، ثم تمتمت: انتظرت أولاً أن تنتهي من كتابك هذا، قبل أن أقول لك، إنني أحب أن تأتي لتسكن معي.



معجم مفردات الرواية

١ - جزيرة كورسيكا هي جزء من فرنسا، وتتبعها إداريًا، في حين أن موناكو هي إمارة مستقلة، تقع بالقرب من منطقة الحدود بين فرنسا وإيطاليا، على ساحل البحر المتوسط.

٢ - في فرنسا المعاصرة، ومنذ ما لا يقل عن نصف قرن، ظهرت العلاقات الحرّة بين الرجال والنساء، وتراجع نظام الزواج الرسمي، مع تراجع كل القيم الأخرى التي كانت تدعو إليها الكنائس، فعندما يقول المؤلّف هنا (رفيقتي)، فهو يقصد أن يقول المرأة التي تعيش معي، ويمكننا أن ننجب طفلًا، ونسجّله في شهادة ميلاد، دون أن نكون متزوّجين.

٣ - في الزمن الاستعماري، تمّ تقسيم الكونجو بين دولتين استعماريّتين هما فرنسا وبلجيكا، إلى كونجو جنوبي كبير المساحة كان تابعاً لبلجيكا وعاصمته ليوبولدفيل، وكونجو شمالي صغير المساحة كان تابعاً لفرنسا وعاصمته برازافيل. ونهر الكونغو يفصل بين العاصمة الشمالية برازافيل، والعاصمة الجنوبية ليوبولدفيل، اللتين هما في الأصل مدينة واحدة.

٤- البيجمي *Pygmees* هم من جنس أفريقي، اشتهر منذ آلاف السنوات لكونه من الأقزام، وقد جاء بعضهم إلى مصر زمن الحملات الحربية المصرية في أفريقيا، وظهرت أشكال بعضهم في النقوش والرسوم على جدران المعابد المصرية، مثلما حدث في نقوش معبد حتشبسوت الجنائزي الموجود في طيبة الغربية، والمعروف حاليًا باسم الدير البحري؛ حيث نرى صور هؤلاء الأقزام ضمن المناظر التي تصور عودة الحملة التجارية من بلاد بونت، التي لا نعرف إن كانت هي الصومال أو إثيوبيا الحاليتين، وقد وقعت هذه الحملة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

٥- الهال *Les Halles*، هو اسم الموقع الذي كان، حتى منتصف السبعينيات، يسمّى معدة باريس، لوجود أسواق الطعام فيه، ثم بعد نقل تلك الأسواق إلى خارج باريس، تحوّل موقع الأسواق القديم، إلى مجمّع تجاري وثقافي هائل، به ستّة أدوار أدوار، ثلاثة فوق الأرض وثلاثة تحتها، بمحلات تجارية ومطاعم ومكتبات ودور عرض سينمائي.

٦- تنقسم باريس إداريًا إلى عشرين حيًا، يقع الهال في الحي الذي يحمل رقم واحد في قلب باريس، والأحياء أرقام ٢ و ٣ و ٤، تقع هي الأخرى في دائرة ضيقة حول قلب باريس، تأتي بعدها دائرة أوسع، بها الأحياء أرقام ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ و ١١، ثم بقية الأحياء تمثل الدائرة التي يقع على حدودها الخارجية الطريق الدائري، أي أنك لو كنت في مركز باريس في الحي رقم ١ وأردت الذهاب إلى الطريق الدائري شمال باريس، ستمرّ إليه عبر الحيّين رقمي ٩ و ١٨، أو عبر الحيّين ١٠ و ١٩.

٧- هذا الاسم لمحل الأزياء يشير إلى اتجاه في ارتداء الملابس

ظهر في منتصف القرن العشرين في نيويورك، وأعادته إلى الصدارة المغنية الأمريكية مادونا، وانتقل معها قرب نهاية القرن العشرين إلى أوروبا، وفيه يرتدي الرجال والنساء تقريبًا نفس الثياب، التي يكثر فيه استعمال الجلود والمعادن، والأقمشة الشفّافة المقصود بها الإثارة الجنسية.

٨- الفرنسي الساحل عاجي بمعنى أنه مولود لأب فرنسي، وأم من ساحل العاج أو العكس.

٩- في القرون الوسطى، عندما تمّ بناء السور الذي أحاط بمدينة باريس، كانت هناك بوابات في هذا السور، عددها أربع وثلاثون بوّابة، تحمل أسماء المناطق التي تؤدّي إليها، تغلق أثناء الليل، وتفتح أثناء النهار، فيخرج منها الناس من باريس، أو يدخل منها الناس إلى باريس. وعندما تمّ بناء الطريق الدائري حول باريس في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، احتفظت هذه البوابات بمواقعها وأسمائها، فبوّابة فانسان Vincennes مثلاً، هي التي تقود الخارج من باريس إلى الغابة التي تحمل نفس الاسم، وتقع إلى الجنوب الشرقي من باريس، وهي في الوقت الحالي ليست غابة بالمفهوم التقليدي لهذه الكلمة، لكنها حديقة عامة واسعة، بها ممرّات للمشاة ومسطّحات مائية وكافيتيريات. يقع الى جوار هذه البوّابة المتحف الذي يضمّ في طبقه الأرضي حوضاً هائلاً للأحياء المائية، وفي طبقه التالين معروضات من حضارات جزر المحيط.

١٠- الطراز الكولونيالي في المباني، يعود إلى زمن الاستعمار الأوروبي، في القرن التاسع عشر، وهي المباني التي كان يسكنها

المستعمرون البيض، في مستعمراتهم في أفريقيا وآسيا، وبينونها غالبًا من الخشب؛ لعدم وجود مواد بناء أخرى أو أحجار كافية، ولسهولة الحصول على خشب أشجار الغابات. وبينونها غالبًا من طابق واحد، وبأسطح مائلة؛ لمواجهة مواسم سقوط الأمطار في المناطق الاستوائية. والمنزل تحيط به شرفة خارجية، تكون مغطاة بمظلات خشبية تتصل بالبناء، لحماية السكان من قسوة أشعة شمس الصيف في الظهيرة.

١١- تان تان هو شخصية من شخصيات حكايات الأطفال والمراهقين في فرنسا وبلجيكا، وهو مراهق في حوالي السادسة عشرة من عمره، إلا أنه كان يتصرّف كالكبار؛ فيساعد في القبض على عصابات تهريب المخدرات، ويقود السيارات والطائرات، وكانت له شعبية كبيرة في منتصف القرن العشرين عند الأطفال والمراهقين في أوروبا، وتمت ترجمته إلى لغات كثيرة منها اللغة العربية، وكانت مجلة (سمير) المصرية للأطفال تنشر حلقات تان تان مسلسلًا في الستينيات.

١٢- ل (بيكاسو) لوحة بهذا الاسم من الفن السيريالي، وقد أعاد رسمها فتانون آخرون كلٌّ منهم بأسلوبه المختلف ومنهم (ديلونى).

١٣- كل هذه الإشارات إلى اليابان وهايتي والكوليرا والطفلة، هي إشارات إلى روايات اشتهرت في العالم أجمع، فرواية قارع الطبل مثلًا هي للأديب الألماني جونتر جراس، كما أن هناك إشارات إلى إحدى روايات أميلي نوتان *Amelie Nothomb*.

١٤- بلغ العجز في ميزانية التأمين الصحي الفرنسي خلال العام المالي ٢٠١٦ / ٢٠١٧ حوالي مئة مليار يورو، والسبب الرئيسي في ذلك هو أن نظام التأمين الصحي يغطي عددًا كبيرًا من المهاجرين

المغاربة، والأفارقة، الذين لا يدفعون للاستفادة به إلا اشتراكات رمزية. أثناء مرافقتي لزوجتي الفرنسية المريضة في عيادات ومستشفيات فرنسا، أجد أن ٥٠٪ من المترددين عليها هم من المغاربة أو الأفارقة، رغم أنهم لا يتعدون نسبة ١٥٪ من السكّان. لذلك فإن أحزاب اليمين المتطرّف تتهم هذه الأقليّات بأنها السبب في إضعاف، وتراجع خدمة التأمين الصحي في فرنسا.

١٥- محلات المونوبري *Monoprix* وهي كلمة فرنسية تعني السعر الواحد، هي سلسلة سوبرماركت لديها المئات من الأفرع في كل المدن الفرنسية، وتبيع ضمن معروضاتها الملابس ومستحضرات التجميل. في حين أن أكثر محلات السوبرماركت انتشارًا لبيع المأكولات والمشروبات في فرنسا، هي سلسلة كارفور *Carrefour*، وهي كلمة فرنسية تعني مفترق الطرق، وهي أكثر انتشارًا في فرنسا عن المونوبري، لأن الطعام أهم من الملابس. سأضرب لكم مثالًا عمليًا، ففي مدينة نيم *Nimes*، حيث تقيم زوجتي السابقة، وهي المدينة رقم ٢٠ من حيث تعداد السكّان في فرنسا، بعدد ١٥٠ ألف نسمة، نجد محلّين لمونوبري، وخمسة محلات لكارفور.

١٦- كانت ثورة الشباب الفرنسي على ديحول والإدارة القديمة، في مايو ١٩٦٨، هي نقطة التحوّل في وسائل الإعلام الفرنسية التي بدأت منذ ذلك العام، في السينما والمسرح والتلفزيون، في عرض لقطات اللقاء الجنسي الحميم بين الرجل والمرأة، دون أن يتدخل مقصّ الرقيب.

١٧- كل حيّ من أحياء باريس العشرين له عمدة، يقع مكتبه في

دار عمودية، ويرأس هؤلاء العمدة العشرين، عمدة يقيم في دار بلدية باريس، الذي يسمّونه أوتيل دو فيل *Hotel de ville*، ومن المعروف مثلاً أن جاك شيراك كان عمدة لباريس في أوائل التسعينيات، قبل أن يصبح رئيساً للجمهورية الفرنسية، في منتصف التسعينات.

١٨ - العبارة المستعملة في الرواية باللغة الفرنسية تعني حرفياً (ضرورة الدقّ على المسامير بمنتهى القوّة).

١٩ - في كل شارع من شوارع باريس وشوارع المدن الفرنسية الكبرى، هناك محلّ بقالة يديره عربي، يعرف باسم عربي الناحية *arabe du coin*، غالباً يكون تونسياً، وأحياناً يكون جزائرياً، ولا أعرف السبب في قلّة المغاربة في هذه المهنة، وهو يبيع في محلّه إلى جوار البقالة بعض الخضراوات والفواكه والخبز والسجائر، وغالباً يفتح أبوابه في المساء المتأخر، من الثامنة مساءً وحتى الثانية صباحاً، فكل السوبرماركت في المدن تغلق أبوابها في الثامنة مساءً، وهو بالتالي يحصل على زبائنه من بين أولئك الذي يعودون متأخرين إلى منازلهم.

من ملاحظاتي الشخصية أقول، إن عربي الناحية لا يخاف من الاعتداءات المتكرّرة المعتادة، على محلات الصينيين أو الباكستانيين التي تفتح ليلاً، وذلك لسبب واضح جدّاً، وهو أن أغلب المعتدين ليلاً على المحلات هم من الشباب المغاربة، الذين يحصلون منه على ما يريدون بالتراضي ودون عنف. وغالباً لا يأتي العنف معه إلا من الشباب الأفارقة. وكنت في باريس قد تعرّضت لبعض المواقف الصعبة، فإذا كان المعتدي عربياً، قلت له على الفور بلغة عربية سليمة، السلام عليك يا أخ الإسلام، فيأخذ يدي في يده ويتركني في سلام، أما الأفريقي

فكنت أعطيه ما أعدّته له في جيبي دون نقاش، وكان مبلغ ثلاثين فرنكاً في التسعينيات كافياً؛ فهو قيمة الوجبة السريعة مع كوب بيرة في كل المطاعم. منذ ٢٠٠٣ لم أعد أذهب إلى باريس، بل أذهب مباشرة إلى مدن الجنوب، التي يقل فيها عنف الشوارع بدرجة كبيرة.

٢٠- يقال إن هناك أعداداً كبيرة من البولنديين غزت أوروبا، بعد انضمام بولندا إلى الاتحاد الأوروبي سنة ٢٠٠٤، فهم مثلاً في إنجلترا يقدر عددهم بنصف مليون. هذه الهجرة الجماعية هي سبب أن متوسط مرتّبات أو مداخيل المهن اليدوية في بولندا، لا يزال من أقل المتوسطات الأوروبية، بمبلغ قد لا يتعدّى ٥٠٠ يورو في الشهر، في حين أنه قد يصل إلى ٢٠٠٠ يورو في فرنسا.

٢١- بدلاً من أن يقول (تدخين الحشيش)، فإن التعبير الفرنسي يقول (تدخين الموكيت)، وقد ظهر هذا التعبير خلال الخمسين عاماً الأخيرة، أي منذ انتشر استعمال الموكيت الأخضر في المنازل، بديلاً عن الحشائش الحقيقية التي كانت تزرع في حدائق المنازل.

٢٢- لا تزال مهنة البواب *concierge* معروفة في فرنسا، وهو عادةً يقيم في إحدى شقق الطابق الأرضي، ويحصل على مرتّب كبير نسبياً، ففي عمارة من عشرين شقّة في مدينة كبيرة، يمكنه أن يحصل على ألف يورو في الشهر، بالإضافة إلى سكنه المجاني، وهو المسؤول عن متابعة كل الإصلاحات المطلوبة، مثل المصاعد والكهرباء والمياه، بالإضافة إلى نظافة السلالم، كما أن عليه تفريغ موقع تجميع القمامة، واستلام الخطابات. كما أنه يمكنه من الناحية الأمنية، متابعة عمليات صعود وهبوط السكّان وضيوّفهم، بالجلوس خلف نافذة تطلّ على مدخل

العمارة.

٢٣- باتريس لومومبا هو رجل وطني، أراد تحرير الكونغو من الاستعمار البلجيكي. وعندما وصل سنة ١٩٦٠ إلى منصب رئيس وزراء بلاده، تَمَّت فعلاً مراسم استقلال الكونغو عن بلجيكا، لكن لومومبا رفض منطق التراضي مع ملك بلجيكا وقاطعه، فقبضت عليه السلطات الاستعمارية وقتلته رمياً بالرصاص سنة ١٩٦١، وهو في سن السادسة والثلاثين. حاولت مصر عبد الناصر إنقاذ أبنائه وإخوته، فأرسلت طائرة حربية إلى إقليم كاتانجا، حيث كانت تقيم قبيلة لومومبا وأحضرهم إلى مصر. تخليداً لذكراه أصدرت مصر طوابع بريد تحمل صورته.

٢٤- في النصّ بالإنجليزية *dry cleaning*.

٢٥- الكونغو هو أحد أكبر الدول الأفريقية حجماً، وينقسم حالياً إلى جزئين: الكونغو الشمالي الأصغر حجماً، الذي كان سابقاً مستعمرة فرنسية وعاصمته برازافيل، والكونغو الجنوبي الأكبر حجماً، الذي كان سابقاً مستعمرة بلجيكية، وعاصمته ليوبولدفيل، فلو ضُمَّت الجزئين إلى بعضهما لأصبح الكونغو هو أكبر بلاد أفريقيا حجماً من حيث المساحة، فالجنوبي حوالي مليونين و ٣٠٠ ألف كيلومتراً مربعاً، والشمالي حوالي ٣٣٠ ألف كيلومتراً مربعاً. أما والبلد مقسّم إلى جزئين، وبعد تقسيم السودان هو الآخر الى جزئين، أصبح الكونغو الجنوبي، والمعروف حالياً باسم جمهورية الكونغو الديمقراطية الشعبية، ويعرف كذلك باسم (زائير)، ثاني بلاد أفريقيا من حيث المساحة، بعد الجزائر.

٢٦- في نظام تأجير الشقق في فرنسا ما هو معروف باسم الضامن

le garant، فعندما يستأجر شخص عاطل عن العمل أو طالب جامعي شقة ما، يقوم والده أو أحد أقاربه أو حتى أحد أصدقائه، بالتوقيع على استمارة الضامن، أي أنه هو الشخص الذي يمكن أن يلجأ إليه صاحب الشقة لدفع الإيجار المتأخر؛ إذا تأخر الساكن في دفعه.

٢٧- جزر المارتينيك *Martinique* تقع في البحر الكاريبي، وتسكنها شعوب قريبة عرقياً من هنود أمريكا الحمر؛ لذلك فهم حمر البشرة، وبينهم أقلية من السكّان سود البشرة من أصول أفريقية، لذلك سكّان المارتينيك الحمر البشرة الذين يعيشون في فرنسا، يعتبرون أنفسهم أرقى مستوى من الأفارقة السود. بالإضافة إلى حقيقة أخرى، وهي اعتبار جزر المارتينيك من الأراضي الفرنسية، منذ فترات زمنية أطول بكثير من زمن استقلال الشعوب الأفريقية، لذلك تجد لدى أفراد شعب المارتينيكي في فرنسا، انتماء إلى فرنسا، وإلى الثقافة الفرنسية، وقدرة على الاندماج في المجتمع الفرنسي المعاصر، أقوى من الانتماء والقدرة على الاندماج لدى الشعوب الأفريقية.

٢٨- توتال *Total* هو اسم واحدة من أكبر شركات البترول الفرنسية، التي تقوم باستخراج البترول في العديد من الدول الأفريقية، ثم تكريره وبيعه في أسواق تلك البلاد وفي أسواق فرنسا. من أهم شركات البترول الفرنسية الأخرى شركة *elf*.

٢٩- باريس بها ستّ محطات قطارات سكك حديدية رئيسية، موزّعة على أنحاء المدينة، فمحطة (الشمال) ومحطة (الشرق)، تخدمان الخطوط التي تذهب في الاتجاهات المشار إليها، ومحطة (سان لازار) تخدم الخطوط المتجهة إلى الشمال الغربي، ومحطة (مونبارناس)

تخدم الخطوط المتجهة إلى الغرب والجنوب الغربي، ومحطة (ليون)
تخدم الخطوط المتجهة الى الجنوب، ومحطة (أوسترلitz) تخدم
الخطوط المتجهة الى الجنوب الشرقي.

٣٠- محطة قطارات شمال باريس، هي نقطة التقاء عدد كبير
من خطوط مترو الأنفاق، وخطوط سيارات النقل العام داخل باريس،
بالإضافة إلى أنها محطة البداية والنهاية، لعدد كبير من قطارات
الضواحي، وقطارات المسافات الطويلة. وفي حالة إضراب خطوط
مترو الأنفاق داخل باريس، من السهل على المواطن الباريسي، أن يعود
إلى منزله مشيًا على الأقدام، أما ضواحي باريس فمن الصعب الذهاب
إليها مشيًا على الأقدام.

٣١- شاتودو *Chateau d'eau* هو اسم مكان في باريس، والاسم
يعني (خزان ماء)، ويشير إلى موقع أحد خزانات المياه، التي كانت
تغذي الأحياء بالماء الجاري، في نهايات القرن التاسع عشر، بتطبيق
نظرية الأواني المستطرقة، وهو ما يعني ضرورة أن يكون خزان الماء
هذا، أعلى من كل المنازل التي يغذيها بالماء، وقد عرفنا هذا النوع من
الخزانات في مصر، ولا يزال لدينا بعضها موجودًا على قوائم خرسانية
مرتفعة في مدن مختلفة.

٣٢- الشعب الفرنسي الحالي هو من أحفاد القبائل التي كان يطلق
عليها لقب الجولوا *Gaulois*، ونسميها بالعربية قبائل الغال أو الجال،
كما توجد في بعض الكتابات العربية القديمة لفظ (الغاليون)، وهي
القبائل التي عاشت في المنطقة الجغرافية التي تسمى الآن فرنسا، منذ
ما قبل ميلاد المسيح. هذا الاسم موجود مثلاً في لقب الرئيس الفرنسي

الأشهر شارل دي جول *De Gaule*، ومعنى اسمه شارل من بلاد الغال.

٣٣- شاهدنا مثل هذه الأفعال، في بعض مباريات كرة القدم، مع فرق أفريقية في الملاعب المصرية.

٣٤- بوانت نوار *Pointe Noire* هي مدينة كونغولية يعني اسمها (الرأس الأسود)، والرأس هنا تعني الأرض التي تبرز داخل المحيط الأطلنطي، فهي تقع على الساحل الأطلنطي، وبها الميناء الرئيسي للبلاد، وبها كثافة سكانية هائلة، وتبدو صورها مأخوذة من الجو بواسطة جوجول إيرث *Google Earth*، كما لو كانت كل شوارعها طول الوقت، ممتلئة عن آخرها بالبشر. يمكن للقارئ أن يتأكد بنفسه من هذه الملاحظة.

٣٥- رغم المساحة الشاسعة للكونغو، فإن المستعمر الفرنسي البلجيكي بسوء نية، عندما تمّ ترسيم الحدود، لم يترك لها إلا ثلاثين كيلومتراً فقط على الساحل الأطلنطي، حتى يخلق لها مشاكل مع جيرانها، مثلما فعلت إنجلترا مثلاً في ساحل العراق المحدود جداً على الخليج، الذي تسبّب في حروب مع إيران والكويت.

٣٦- الأب بيار *Abbe Pierre* هو واحد من أحبّ الشخصيات إلى الفرنسيين، بعد أن كرّس حياته لفقراء الشوارع، منذ سنة ١٩٥٤. ظلّ الأب بيار هو الشخصية الفرنسية رقم واحد، حتى سنة ١٩٩٨، ولم يتفوّق عليه في الشعبية، بعد مرور أربع وأربعين سنة، إلا زين الدين زيدان، عندما أحرز لفرنسا الأهداف في مرمى شباك البرازيل؛ فحصلت فرنسا على كأس العالم في كرة القدم سنة ١٩٩٨.

٣٧- (في البدء كانت الكلمة) هي الآية رقم واحد التي يبدأ بها إنجيل القديس يوحنا، وتفسيرها لدى المسيحيين، أن يسوع المسيح هو الكلمة التي نطق بها الله، وتحولت فيما بعد إلى جسد، ووفقاً لبعض المفسرين، خلق الله كل الكائنات بأن نطق أولاً باسمها، ثم تحولت بعد ذلك إلى أجساد كائنات حقيقية. وهنا يستعمل المؤلف الكلمة الفرنسية *verbe*، التي تعني في اللغة الفرنسية (الفعل) بمفهومه المعروف في قواعد النحو الفرنسي، لكن نفس هذه الكلمة لها مدلول آخر في تاريخ اللغة الفرنسية، وفي تاريخ الدراسات المسيحية؛ إذ إنها تعني كل ما يخرج من الفم، أو كل ما تنطق به الشفاه. والمؤلف يسخر من هذا المفهوم التوراتي الملتبس، فيستغل هذا الالتباس فيتحدث عن الفاعل والمفعول به في غير مكانهما.

٣٨- نيولوجيزم *Neologisme* هو علم ابتكار كلمات جديدة، وفيه كل مفردات المبتكرات العلمية الحديثة في القرن العشرين.

٣٩- الترانسيندنتالية *Transcendentalisme* يعطي لها القاموس التعريف التالي: (هي فلسفة تقول إنّ اكتشاف الحقيقة لا يتم عن طريق الخبرة أو التجربة، بل يتم عن طريق دراسة عمليات التفكير). وهناك تعريف آخر في قاموس آخر يقول: (هي دراسة الوقائع التي تكون موجودة وراء نطاق الخبرات اليومية، ولكنها ليست ضمن نطاق المعارف البشرية).

٤٠- قمّة إيفيرست في جبال الهمالايا، على الحدود بين الهند والتبت، ترتفع إلى أكثر من ثمانية كيلومترات. والمؤلف يقصد أن يقول إنها لم يكن من الصعب الوصول إليها.

٤١- الشقق الباريسية قليلة المساحة تسمى ستوديو، وهي تلك الشقق التي لا تتعدى العشرين مترًا مربعًا، وتتكوّن من قاعة واحدة، وبها ركن للمطبخ ولدورة المياه. كانت هذه الشقق تؤجّر في البداية لطلبة الجامعات، الذين يكتفون في العادة في مثل هذه الشقق، بمجرد وجود مكتب للمذاكرة وسرير للنوم، فالغرض من هذه الشقق هو المذاكرة والنوم، لذلك سمّيت هذه الشقق ستوديو *studio* وهي كلمة لاتينية تعني دراسة، ومنها جاءت الكلمتان الإنجليزيتان *study* وتعني دراسة، و *student* وتعني دارس أو طالب.

٤٢- كانال بلوس + *Canal* هي أول قناة فرنسية خاصة أنشئت في الثمانينيات، يستقبلها الناس على أجهزتهم المنزلية بدفع اشتراكات شهرية أو سنوية، حيث يمكنهم مشاهدة مباريات كرة قدم، وأفلام سينمائية حديثة، وأفلام إباحية (بورنو) بعد منتصف الليل.

٤٣- نبات المانيوك *Manioc* هو شجيرة صغيرة، تنمو عشوائيا في مساحات شاسعة بالمناطق الاستوائية، في أفريقيا وأمريكا اللاتينية. كانت في السابق غير مرحّب بها، لاعتقاد السكّان أنه نبات سام غير قابل للأكل، إلى أن اكتشفت بعض القبائل قبل قرون أنه يمكن أكل جذوره، لكنها يجب أن تُطهى جيّدًا؛ للتخلّص تمامًا من بعض السموم التي اعتادت أن تنمو معها. عادة ما تؤكل جذور المانيوك مع حسائها أو عصيدها، كما نجح الأفارقة في استعمال هذه الجذور في إنتاج ما يسمى فطيرة الأرز، أو فطيرة الخبز. هذا النبات يمكن تخزينه في الفم، فيكون له تأثير مخدّر، مثلما هي الحال في نبات القات في اليمن.

٤٤- الأحياء من رقم ١ الى رقم ١٢ لديها أرصفة على نهر السين،

أما الأحياء من ١٣ الى ٢٠ فتبتعد عنه، لأنها تقع في المحيط الداخلي للطريق الدائري. ويبلغ طول نهر السين حوالي ٧٧٠ كيلومترًا، وينبع من إحدى الهضاب في وسط فرنسا، التي تسقط عليه الأمطار، ثم ينزل في اندفاع متوسط نحو باريس، حيث لا يتعدى عرضه في بعض مناطقها المئة متر، ثم عندما يصل إلى مدينة روان *Rouen*، في اتجاهه إلى مصبه في بحر المانش، يتسع إلى عدة كيلومترات، فيما يعرف باسم *estuaire*، وهي منطقة المصب التي تتناقل فيها مياه النهر، وتكثر على جانبيها المراسي التجارية والمصانع.

٤٥- صاحب قصيدة جسر ميرابو *le Pont Mirabeau*، هو الشاعر جييوم أبولينار *Guillaume Apollinaire*. وهو كذلك صاحب مانيفستو تأسيس الحركة السيريالية في الفن والأدب عند نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨.

٤٦- في شبكة قطارات أنفاق مترو باريس هناك خمسة عشر خطًا، وهي شبكة شديدة التعقيد؛ حيث تتقاطع هذه الخطوط في عشرات المحطات، وهي التي يمكن تغيير الخط. بدأ إنشاء مترو أنفاق باريس سنة ١٩٠٠، وتنتهي خطوطه الحالية بعد عبورها الطريق الدائري. وقد بدأت فرنسا سنة ١٩٧٠، في إنشاء ما يسمّى الشبكة الكهربائية المحلية *Reseau Electrique Regional*، واختصارها هو *RER*، ومن هناك عند حدود الطريق الدائري، يستطيع الباريسيون استعمال ما يسمّى *RER*، ليقطعوا بها في بعض الخطوط مسافات تصل إلى مئة كيلومتر، دون الحاجة إلى الذهاب إلى محطات قطارات السكك الحديدية الرئيسية المعروفة.

٤٧- تقع سارسيل *Sarcelles* على خطّ السكّة الحديد، الذي يربط محطة شمال باريس بمناطق الضواحي، الواقعة خارج باريس على امتداد خطّ الشمال. عندما حاولت قياس الخط المستقيم على خريطة جوجول إيرث، بين سارسيل ومنطقة شاتودو حيث تقع شقّة الراوي، كانت المسافة حوالي ستة عشر كيلومترًا. لكن من المؤكّد أنه أثناء المشي، لا تكون الخطوط المستقيمة دائمًا متاحة.

٤٨- شان دو مارس *Champs de Mars* هي الحدائق الواقعة أسفل برج إيفل، وتصل بينه وبين واجهة الكلّية الحربية، وهي واحدة من أرقى وأعلى أماكن السكن في باريس.

٤٩- لوكي لوك *Lucky Luke* واسمه يعني (لوقا المحظوظ)، هو مغامر أمريكي، وبطل المجالات المصوّرة والرسوم المتحرّكة للأطفال، وتدور مغامراته في الغرب الأمريكي، في منتصف القرن التاسع عشر، عندما كان يقوم وهو راعي بقر (كاوبوي) *cow boy*، بمهاجمة عصابات الأشرار وحده، والانتصار عليهم.

٥٠- ينطبق على مواطني جزر الأنтил *les Antilles*، الكلام الذي سبق أن قيل عن مواطني جزر المارتينيك، هنا في رقم (٢٧) من هذا المعجم، فهم يشعرون أنهم أقرب الى الفرنسيين، ممن عداهم من مواطني المستعمرات الفرنسية السابقة في أفريقيا وآسيا، لأن بشرة جلودهم سمراء وليست سوداء أو صفراء. كانت لفرنسا مستعمرات في العديد من الدول الأفريقية الحالية، ومنها السنغال وساحل العاج ومالي والكاميرون والكونغو، وفي العديد من الدول الآسيوية الحالية، ومنها فيتنام ولاوس وكمبوديا.

٥١- كاوتر البار هو نضد (أو منضدة) تقديم المشروبات في الحانات، ويجلس بمحاذاته الشاربون على الكراسي التقليدية المرتفعة، ويضعون كؤوسهم وأذرعهم عليه، ويصنع عادة من الخشب أو من الزنك *zinc*.

٥٢- في البلاد المسيحية الغربية، خاصة في أوروبا الغربية، هناك قدّيس لكل يوم من أيام السنة الثلاثمائة والخمسة والسّتين، تكون الصلوات اليومية في الكنائس بشفاعته. فباتريك وستيفان وكليز وكريستين، هي أسماء قدّيسين وقدّيسات، لهم ولهنّ كنائس بأسمائهم وبأسمائهنّ في البلاد الأوروبية. وأنت عندما تقتني روزنامة بأيام السنة في أوروبا، تجد اسم قدّيس اليوم أو قدّيسه مكتوبًا في مكان واضح على اليوم.

٥٣- استعمل المؤلّف كلمة *hybride* الفرنسية في وصف عازف الطمطم المتجولّ الذي خطف منه رفيقته. وقد ترجمتها هنا بكلمة (هجين) لأنه كان يقصد بها إهانة العازف، وكلمة (هجين) تستعمل غالبًا في حالة اقتران حيوانات من فصائل مختلفة. أما الكلمة الفرنسية التي استعملها المؤلّف هنا في وصف الطفل، الذي كان ينبغي إنجابه، فهي كلمة *metis*، ويقصد بها الطفل المولود من اقتران بين لونين، غالبًا أحدهما أسود والآخر أبيض، وقد استعملت في ترجمتها هنا كلمة (مخلّط)، وهي لذلك غير مقصود بها الإهانة، وتستعمل في ترجمتها كذلك كلمة (خلاسي)، التي يقصد بها غالبًا، ذلك اللون الجميل الذي يحبه الفرنسيون، والموصوف في نصوص فرنسية أخرى مشهورة، بأنه لون مشروب الشوكولاتة باللبن.

٥٤- المفعول به غير المباشر *complement d objet indirect*، مثل أن تقول (أعطيت الولدَ كوبًا)، ف(الولد) هنا هو المفعول به المباشر، وتسمّيه قواعد اللغة العربية المفعول به الأول، و(الكوب) هو المفعول به غير المباشر، الذي تسمّيه قواعد اللغة العربية المفعول به الثاني.

٥٥- تقول أحدث نظريات علم الأنثروبولوجي، وكلمة أنثرو *anthro* تعني إنسان، وهو العلم الذي يدرس أصل الإنسان والأجناس البشرية، إن أول إنسان ظهر على الأرض كان في أفريقيا.

٥٦- صحيح أن هناك الكثير من التماثيل والنقوش الجدارية المصرية القديمة، يظهر فيها بعض المصريين القدماء بلون بشرة أسود داكن، إلا أن أغليتهم تظهر بلون بشرة قمحي. ويُعتَقَد الآن أن الجنس المصري نشأ من التقاء جنس آسيوي ببشرة ذات لون فاتح، مع جنس أفريقي ببشرة ذات لون أسود داكن.

٥٧- لا تذكر النصوص التوراتية الخاصة بقصة أبناء نوح، إلا أسماء ثلاثة فقط من أبنائه الذكور، هم سام وحام ويافت، وفقًا للنص التوراتي، ولا ذكر فيها لابن أسود باسم شام.

٥٨- هنا سأعرض هذا الموضوع ببعض التفصيل، لشرح أسباب تدهور مستوى المعيشة في الضواحي الباريسية:

- تسببت محاولات السلطات الفرنسية، في إعداد تحصينات حربية خلال العام الأول من الحرب أي سنة ١٩٤٠، في تدمير جزء كبير من البنية التحتية في ضواحي باريس، خاصة إلى جهتي الشمال

والشرق، التي كان من المتوقع أن يأتي منها الأعداء؛ فقامت السلطات الحربية بحفر خنادق لاختباء الجنود داخلها، وبناء تلال صناعية أقيمت فوقها منصّات إطلاق القذائف.

- عندما اعترض بعض الضباط الألمان المستنيرين، على ضرب باريس بالقنابل، في محاولة منهم للإبقاء على تراثها الحضاري والفني، لم يستطيعوا أن يعترضوا كذلك على ضرب ضواحي باريس، فتحملت الضواحي كل عبء التدمير بالقنابل.

- قبل الحرب العالمية الثانية، كانت هناك رحلات بحرية كثيرة، تقوم كل يوم من الموانئ الأوروبية، ذهابًا إلى أمريكا، لكنها توقفت كلّها بسبب الحرب. بعد انتهاء الحرب، اندفعت الملايين من البشر اليائسين من الأوضاع القائمة في بلادهم، إلى موانئ أوروبا؛ في محاولة للوصول من جديد إلى موانئ أمريكا. إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية، أدركت استحالة استقبال كل هذه الملايين، فكانت النتيجة أنها أغلقت أبوابها أمام المهاجرين، فعادوا كلهم إلى أوروبا على نفس السفن، ومن منهم كان لا يزال في الموانئ الأوروبية، صرف النظر عن موضوع السفر.

- كانت فرنسا في نظر أغلب هؤلاء المهاجرين العائدين إلى أوروبا، هي أفضل بلد أوروبي من حيث ظروف ما بعد الحرب؛ فذهب عدد كبير منهم إليها، بكل وسائل المواصلات المتاحة من قطارات وسيّارات، بل حتى أحيانًا مشيًا على الأقدام. اختاروا أن يذهبوا إلى العاصمة باريس، التي دخلها الألمان دون قتال؛ فنجت بذلك من الدمار، إلا أن المساكن المحدودة المتوفّرة لهم فيها، كانت مرتفعة الثمن، فما كان عليهم إلا أن يقبلوا السكن في ضواحي باريس. وكانت فرنسا مرهقة تمامًا، بل

يمكنني أن أقول مستنزفة الدماء، أقرب ما تكون إلى جثة هامدة، فجاء المهاجرون إليها ليزيدوا من معاناتها.

- ذهب المهاجرون إذن إلى الضواحي؛ ليسكنوا المنازل المهجورة المهدّمة، بل إنهم سكنوا أي حفرة وجدوها في الأرض، تسببت فيها سابقاً القنابل، أو كانت من الخنادق التي حفرها الفرنسيون ضمن خطط الاستحكامات العسكرية، وضع المهاجرون فوقها ألواحاً من الصاج أو من الصفيح أو من الخشب، من بين تلك الألواح المتناثرة في كل مكان، ليحتموا بها من المطر.

- هذا هو قانون الاستسلام للأمر الواقع. كان هذا هو القانون الأول، أما القانون الثاني فكان هو قانون القبيلة، الذي حتم على البولنديين أن يسكنوا معاً، وعلى الأرمنيين أن يسكنوا معاً، على الأقل لأنهم يتحدثون نفس اللغة، وبالتالي يكون هناك الحد الأدنى من القدرة على التفاهم، مما قد يسمح بالتعايش السلمي وحسن الجوار. القانون الثالث هو أن كل قبيلة أحاطت نفسها بالأسلاك الشائكة، وطلبت من الرجال الأشداء فيها، بالعمل كفتوات لحمايتها من الاعتداءات المحتملة، من قبيل فتوات القبائل الأخرى.

- منذ بداية حرب التحرير الجزائرية سنة ١٩٥٤، بدأت أعداد كبيرة من الفرنسيين المقيمين في الجزائر، ومن الجزائريين المتعاونين معهم، في العودة إلى فرنسا، وقد سُموا أصحاب الأقدام السوداء، كناية عن قدومهم من أفريقيا السوداء. لم يجد هؤلاء سكناً إلا في ضواحي باريس.

- منذ منتصف الستينيات، ومع موجة تحرر الدول الأفريقية التي

كانت مستعمرات فرنسية، مثل: السنغال وساحل العاج وموريتانيا ومالي والكاميرون والكونغو، حضر كل الذين كانوا يتعاونون مع المستعمر إلى فرنسا؛ بسبب نظرة مواطنيهم إليهم كخونة. لم يجد هؤلاء كذلك سكناً إلا في ضواحي باريس.

٥٩- بدأ استعمال اليورو في فرنسا، وفي عدد آخر من الدول الأوروبية لأول مرة، في أول يناير ٢٠٠٢. قبل ذلك كانت العملة المستعملة في فرنسا هي الفرنك، وقدّرت قيمة اليورو في يناير ٢٠٠٢ بمبلغ ستة فرنكات ونصف.

٦٠- بصراحة أنا لا أذوّق هذا النوع من الفكاهة، فالمؤلف يلعب على الكلمة التي تستعمل في فرنسا، لوصف سوق العمل دون تصريح عمل بالسوق السوداء، قائلاً إنه إذا اختفى السود، ستختفي السوق السوداء، وبالتالي ستفقد فرنسا الكثير من الوظائف. وقد فكّرت في حذف هذه الفقرة، ثم قرّرت أن أتركها، وأضع هذه الملحوظة.

٦١- مرة أخرى فقرة تثير المناقشات، حول موضوع التحرش بالفتيات، وعن مدى مسؤولية الفتاة بما ترتديه، في أن تكون ملابسها هي السبب في التحرش بها.

٦٢- محطة قطارات شمال باريس هي التي تذهب بالعرب والسود، إلى الضواحي الشمالية الشرقية، التي يعتبرون أغلب سكّانها. كما أن هذه المحطة تقع بالقرب من أحياء ١٨ و ١٩ و ٢٠، وهي الأحياء التي يكثر فيها سكن العرب والسود. ومبنى المحطة من الداخل هو مكان واسع يصلح للمشاجرات بين العشرات.

٦٣- لافونتان *La Fontaine* في الأدب الفرنسي الكلاسيكي، هو صاحب القصص القصيرة على لسان الحيوانات، التي يقرأها الأطفال في المدراس الابتدائية، لتعلّم بعض أخلاقيات الحياة، وهو قريب الشبه من كتاب كليلة ودمنة في الآداب الشرقية.

٦٤- متوازي المستطيلات هو مثل قالب الطوب الأحمر المعتاد استعماله في البناء في مصر. وهو جسم صلب له ستّ جهات، أو ستّة أوجه، يتكوّن كلّ وجه منها من شكل مستطيل، وسمّي هكذا لأن كل وجهين متقابلين من أوجهه الستّة، متطابقان ومتوازيان، ولهما نفس المساحة. وهكذا هو له ١٢ حرفاً (أو حزاً)، وثمانية رؤوس.

٦٥- ماتسوا *Matsoua* (١٨٩٩ - ١٩٤٢) هو شخصية دينية وسياسية من الكونغو، كانت له تأثيرات قويّة على مواطنيه في فترة الاستعمار.

٦٦- عدد من شوارع باريس يحمل أسماء مدن مصرية، وهي غالباً شوارع تحمل هذه الأسماء منذ زمن حملة بونابارت على مصر، أو منذ زمن حفر قناة السويس، فهناك مثلاً شوارع القاهرة والإسكندرية ورشيد وأبوقير والسويس.

٦٧- كاب فيردي *Cape verde*، هو اسم جمهورية الرأس الأخضر الأفريقية، وتقع فوق مجموعة صغيرة من الجزر، في المحيط الأطلنطي، على بعد حوالي ٦٠٠ كيلومتر من الساحل الأفريقي المواجه لموريتانيا والسنغال.

٦٨- عندما يضع مصمّم أزياء توقيعه على قطعة ملابس، فهذا هو

ما يسمّى (سينيه)، وهذا يعني أنها مجموعة خاصة جداً من الملابس، لم ينتج منها إلا عدداً قليلاً من القطع، مما يبرّر ارتفاع سعرها في سوق الأزياء.

٦٩- التعويذة هي ما يستعاذ به من الشياطين، وهي لدى القبائل البدائية، قد تكون في شكل قطعة حلّي معدنية تعلّق على الصدر، أو تمثال صغير منحوت في قطعة من الخشب، أو قد تكون ورقة مطوية مكتوباً عليها ألفاظ غير مفهومة.

٧٠- التعبير الفرنسي (كلّفني جلد أردافي) *la peau des fesses* يدلّ على أن الشيء كلّف غالباً جداً، وقد ظهر هذا التعبير في فرنسا، في منتصف القرن التاسع عشر، وغير واضح تماماً المصدر الذي جاء منه.

٧١- قاد مارتن لوثر كينج في الولايات المتحدة الأمريكية، حركة مدنية سلمية مطالباً من الإدارة الأمريكية، حصول الأمريكيين السود على كل حقوقهم المدنية، في الخمسينيات والستينيات، وقال في إحدى خطبه (لديّ حلم)، وهو أن يرى رئيساً زنجياً أسود للولايات المتحدة. تمّ اغتياله في سنة ١٩٦٨. شوهد في لقطة تلفزيونية قسّ بروتستانتي هو جيسي جاكسون، وهو يبكي من الفرح في مراسم تنصيب أوباما، ويقول: «لقد تحقّق حلم مارتن لوثر بعد ٤٠ سنة من اغتياله».

٧٢- العجيب هو أن المؤلّف قد أورد هنا، أربعة أسطر من نصّ الأغنية، ولكن بإحدى لغات الكونغو، لذلك لا يمكن للقارئ الفرنسي أن يفهم من هذا النص الغنائي أي شيء.

٧٣- الجستابو هو جهاز الشرطة السريّة الألمانية، على زمن

هتلر، وهو الجهاز الذي تكفل بالقضاء على كل معارضي النازية، بكل الوسائل غير المشروعة.

٧٤- الفودو vodou هو نوع من الديانات المحليّة في جزر الكاريبي التي تمارس بالتواصل مع أرواح الموتى.

٧٥- الزومبي zombie هم الموتى الذين ردّت إليهم أرواحهم، ويرتبطون بديانة الفودو المشار إليها أعلاه، وقد ظهرت هذه الكلمة لأول مرة في البرازيل في أوائل القرن التاسع عشر.

٧٦- مذكورة بالإنجليزية في النصّ (يوم آخر في الجنّة) *Another day in paradise*، للمغني فيل كولينز، وهي من ألبوم غنائي، صدر سنة ١٩٨٩.

٧٧- ميدان فاندوم *Vendome* يقع في قلب باريس، ويصل بينه وبين أوبرا باريس شارع السلام (ري دو لا بيه)، ويصل بينه وبين ميدان الكونكورد، حيث المسلة المصرية أمام متحف اللوفر، شارع كاستيليوني، ثم شارع ريفولي. وتوجد بهذه المنطقة أغلب محلات أشهر تجار المجوهرات في باريس.

٧٨- منذ الثورة الفرنسية التي أطاحت بالملكية سنة ١٧٨٩، جاءت خمس جمهوريات، تخللتها العودة إلى الملكية عدّة مرات:

- فالجمهورية الأولى كانت سنة ١٧٩٢، عند إعدام الملك لويس السادس عشر، ثم عادت الملكية بعد سقوط نابليون سنة ١٨١٥، مع الملكين لويس ١٨ وشارل ١٠، وهما من نسل العائلة الملكية الفرنسية التي أسقطتها الثورة.

- جاءت الجمهورية الثانية بعد ثورة ١٨٤٨، ثم عادت الملكية مع
المكين لويس فيليب و نابوليون الثالث.

- جاءت الجمهورية الثالثة بعد الغزو البروسي الذي أسقط
نابوليون الثالث، وقيام كومونة باريس ١٨٧٠.

- جاءت الجمهورية الرابعة في نهاية الحرب العالمية الثانية، ولم
تستمر إلا إثني عشر عامًا.

- جاءت الجمهورية الخامسة مع ديغول سنة ١٩٥٨، وهي التي لا
تزال مستمرة حتى الآن.

٧٩- العهد القديم هو توراة اليهود، وهو الكتاب الذي يعتبره
المسيحيّون، العهد الذي وعد به الله إبراهيم، الجدّ الأكبر للشعب
اليهودي، أن يجعل الله نسل إبراهيم منتشرًا في الأرض كلها. والعهد
القديم هو إذن ذلك الذي كان بين الله وإبراهيم، بالنظر إلى العهد
الجديد، الذي هو بين الله والمسيح. وأنبياء العهد القديم هم بالعشرات،
وأشهرهم موسى وهارون ونوح ولوط، الذين عرف عنهم أنهم عاشوا
مئات السنين.

٨٠- بيافرا *Biafra*، هو اسم إقليم يقع في شرق نيجيريا، حاول
إعلان انفصاله واستقلاله عن نيجيريا، خلال الفترة بين ١٩٦٧ و ١٩٧٠،
واستعان بالمرتزقة القادمين من بعض الدول الأفريقية القريبة من الإقليم،
وكان من بين تلك القوّات بعض الجنود الكونغوليين.

٨١- قيل عن هؤلاء الرماة السنغاليين إنهم يحتفظون بقوّة
الإبصار؛ لأن أعينهم لا تتعرّض لأي إتلاف، لا بالأضواء الكهربائية،

ولا بالآلات الإلكترونية، ولا بعناصر التلوث الصناعي المنتشرة في البيئات المتحضرة، ثم إنهم يعيشون في الطبيعة، التي لم تدنسها الحضارة الحديثة، ويلاحظون بدقة كل تغيراتها، وتحركات مكوناتها من حيوانات ونباتات، ثم إنهم يتابعون الحيوانات التي يصطادونها بأبصارهم تلك الحادة، ويطلقون عليها أسهمهم، فيصيبونها.

٨٢- فيلم أطول يوم في التاريخ هو عن عمليات أول إنزال للقوات المشتركة الأمريكية والبريطانية، على سواحل نورماندي بشمال فرنسا، في بداية الهجوم على الألمان، وبداية اندحارهم، يوم ٦ يونيو ١٩٤٤.

٨٣- أنجولا كانت مستعمرة برتغالية، لذلك لا تزال للبرتغال علاقات قوية مع دولة أنجولا الحالية، حتى بعد استقلالها بعشرات السنين، بالضبط كما هو الحال بين فرنسا ومستعمراتها السابقة، وإنجلترا ومستعمراتها السابقة، فالأسهل للسنگالي أن يذهب إلى فرنسا، وللنيجيري أن يذهب إلى إنجلترا؛ فالدول الاستعمارية السابقة، تشعر بالذنب نحو مواطني مستعمراتها السابقة.

٨٤- دولة (بنين) هي التي كان اسمها سابقاً (داهومي)، وتقع على المحيط الأطلنطي، في غرب أفريقيا، وتنحصر جغرافياً بين توجو وغانا إلى الغرب، ونيجيريا إلى الشرق، وهي الأخرى كانت مستعمرة فرنسية سابقاً.

٨٥- من الأشياء الملحوظة في البلاد الأفريقية، التي كانت مستعمرات فرنسية، هو إطلاق أسماء كبار الكتّاب والمفكرين الفرنسيين، من أمثال فولتير وموليير وهوجو، على أبناء العائلات المحلية الفقيرة؛ كأنهم يريدون أن تحل بركة هذه الأسماء على أبنائهم.

فرانسوا رابليه *Rabelais* هو أحد مفكرى عصر النهضة الفرنسية في القرن السادس عشر، وهو هنا في هذه الرواية هو اسم والد الراوي.

٨٦- عند وصول المستكشف جيمس كوك إلى قارة أستراليا سنة ١٧٧٦، أعتقد أنها أرض مهجورة تمامًا، إلا أن المستعمرين الأوائل عثروا على سكان أصليين، كانوا يعيشون في عزلة تامة عن العالم حتى ذلك الوقت من نهايات القرن الثامن عشر، وهم الذين أطلق عليهم اسم *aboriginals*. وفي هذه الرواية يقول الراوي إن المستعمرين الفرنسيين الأوائل، أطلقوا اسم سكان أستراليا الأصليين، على فقراء الدول الأفريقية، لأنهم كانوا منعزلين عن العالم.

٨٧- النفتالين هي مادة كيميائية، تستعمل في حفظ الملابس من التلف، بسبب حشرات مثل العتّة، في حالة تخزينها لمدة شهور طويلة.

٨٨- إيف سان لوران هو أحد أشهر مصممي الأزياء الفرنسيين في القرن العشرين.

٨٩- دافيد كوبر فيلد شخصية روائية، من ابتكار الروائي الإنجليزي تشارلز ديكنز، اشتهرت في صباها بالعمل مع النشّالين في شوارع لندن، في منتصف القرن التاسع عشر.

٩٠- أي لجعل الوقت يمرّ بسهولة، في انتظار معرفة ما الذي حدث للجار أبّقراط.

٩١- جول فيري *Jules Ferry* كان وزيرًا للتربية والتعليم في حكومة ١٨٧٠، وهو الذي وضع نظام التعليم الإلزامي المجاني في مدارس فرنسا، وكان أول من لفت الانتباه إلى ضرورة فصل العلوم

الدينية عن المدارس، وهو بالتالي يعتبر من مؤسسي الروح القومية للهوية الفرنسية، التي لا تضع للدين المسيحي أي اعتبار في الحياة اليومية للمواطن الفرنسي، على اعتبار أن الدين هو مسألة تخص كل شخص على حدة، ولا تخص على الإطلاق أي جهة حكومية.

٩٢- كلمة بترول تعني الزيت الصخري، وتتكون من مقطعين، بتر *petro* وتعني صخرة باللاتينية، وأويل *oil* وتعني زيت.

٩٣- تيمبوكتو هي العاصمة القديمة لمالي، قبل الاستقلال عن الاستعمار الفرنسي. وكانت خلال العصور الوسطى مركزاً لانتشار الإسلام.

٩٤- إقليم بريتانيا يقع في الشمال الغربي من فرنسا الحالية، وكان هذا الإقليم الأقرب جغرافياً إلى إنجلترا، الذي لا يفصله عنها إلا بحر المانش، قد وقع مرات عديدة تحت الاحتلال البريطاني، خلال القرون الوسطى، وبدايات عصر النهضة الأوروبية. لذلك هو يحمل هذا الاسم (بريتاني) المأخوذ من الاسم (بريطانيا). أهل هذا الإقليم هم أكثر فئات الشعب الفرنسي اهتماماً بالثقافة الإنجليزية.

٩٥- إشارة إلى الفيلسوف ديوجين، الذي كان زاهداً في كل شيء، متقشفاً، إلى درجة النوم في برميل، وقد اشتهر عنه، بين القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، الدوران في شوارع أثينا، بمصباح زيتي مضئ تحت ضوء الشمس.

٩٦- فلسفة *philosophy* تتكون من مقطعين، هما فيلو *philo* وتعني محبة، وصوفي *sophy* وتعني حكمة.

٩٧- قامت حرب أهلية بين عنصري الهوتو والتوتوسي في رواندا، بين عامي ١٩٩٣ و١٩٩٤، وكان الجيران يتقاتلون في الشوارع، بسبب انتماء بعضهم إلى أحد هذين العرقين، وانتماء بعضهم الآخر إلى العرق الآخر.

٩٨- شهدت دول البلقان الست، حرب تطهير عرقية بين مسلمي كوسوفو، ومسيحيي صربيا سنة ١٩٩٣، وهما دولتان سابقتان في اتحاد الجمهوريات اليوغوسلافية، التي تفككت بعد موت تيتو وسقوط الاتحاد السوفيتي. وكان الإسلام قد دخل كوسوفو في القرن السادس عشر، بعد غزو تركيا العثمانية لها.

٩٩- كابيندا هي إقليم صغير في أنجولا، له حدود مع الكونغو، ظهر فيه البترول، فبدأ النزاع على ملكيته.

١٠٠- هيببي hippie هي كلمة ظهرت في نهاية ستينيات القرن العشرين وبداية سبعينياته، في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، وتعني الشخص المتمرد على المجتمع، خاصة ضد تجنيد الشباب في حرب فيتنام. كان الهيببي الرجل أو المرأة، يرتدي ثياباً غير متناسقة، ويترك شعر رأسه طويلاً، وقد يسير في شوارع المدينة بأقدام حافية. وكان هؤلاء الشباب يعيشون معاً في مجموعات من عشرات الأشخاص، في المناطق المهجورة، مثل البنايات القديمة، أو حواف الغابات، ولا يقبلون العمل في الوظائف الحكومية، بل يعيشون على زراعة قطع صغيرة من الأرض ببعض الخضراوات، وقد انتشر بينهم إدمان عقاري الماريهوانا والإل إس دي LSD. كما أنهم رفضوا الحصول على عقود زواج رسمية أو شهادات ميلاد لأولادهم. لم تستمر هذه الحركة لأكثر من عشر سنوات.

١٠١ - هذه الأماكن هي عادة بيضاء اللون لدى الزوج.

١٠٢ - في منطقة العضد بين الكتف والكوخ، لدى الإنسان عضلة ذات ثلاثة رؤوس، لأنها تخرج من ثلاثة منابع، وتصب معاً في مصب واحد، واسمها الطبيّ التشريحي هو ترايسبس *triceps*، وهناك عضلة ذات رأسين تسمّى البايبس *biceps*.

١٠٣ - لعبة البيتانك *petanque*، تمارس في الألفية الصغيرة، بقذف كرة معدنية صغيرة وزن ٣ كيلوجرام، في اتجاه مجموعة كور على أرضية الفناء، وهناك طريقة ما، لحساب مكسب وخسارة كل فريق، بحساب عدد الإصابات الصحيحة.

١٠٤ - إديث بياف *Piaf* هي مغنية فرنسية من منتصف القرن العشرين، وقد تكون أشهر مغنيات فرنسا على الإطلاق، أما جوليت جريكو، فهي مغنية من مرحلة زمنية لاحقة على بياف.

١٠٥ - الترامبيت *Trumpet* هي إحدى آلات عائلة النفخ النحاسية، وهي العائلة التي تشتمل كذلك على الساكسوفون والترومبون وآلات أخرى.

١٠٦ - هذه الكلمة كورجيت *courgette* تعني (كوسة) وهي من الخضراوات، ورغم غرابة الكثير من الأسماء الفرنسية، إلا أن هذا الاسم نادر جداً، وقد يكون غير موجود في الواقع، وغالباً سيكون غرض المؤلف هو السخرية من هذه الشخصية. وليس للكوسة المعنى المعروف في العامية المصرية، مثل المحسوبية.